## إقـــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

# حقوق الإنسان في دولة المماليك

## (648 / 922هـ = 1250 / 1517م)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

## DECLARATION

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification

Student's name: اسم الطالب/ة: طارق محمد الكرد

Signature: التوقيع: طارق

Date: التاريخ: 30 سبتمبر 2015

الجـامعــة الإسـلامـيــة – غـــــزة
شئون البحث العلمي والدراسات العليا
كـلـــــيـــــــــــــة الآداب
قســـــــم التـــاريـــــخ والآثـــــار

# حقوق الإنسان في دولة المماليك

## (٦٤٨ / ٩٢٢هـ = ١٢٥٠ / ١٥١٧م)

# Human Rights In the Mamluks State

## (1250 / 1517 AD = 648 / 922 H)

إعداد الباحث
طارق محمد شريتح الكرد

إشراف الدكتور
غسان وشاح

**قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة– فلسطين.**

**١٤٣٦هـ-٢٠١٥م**

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية – غزة
The Islamic University - Gaza
مكتب نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا هاتف داخلي 1150

الرقم...ج.س.غ/35/..... Ref

التاريخ 2015/08/19م..... Date

# نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **طارق محمد شريتح الكرد** لنيل درجة الماجستير في **كلية الآداب/ قسم التاريخ**، وموضوعها:

## حقوق الإنسان في دولة المماليك (648 – 922هـ = 1250 – 1517م)

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الأربعاء 04 ذو القعدة 1436هـ، الموافق 2015/08/19م الساعة الواحدة والنصف ظهراً بمبنى القدس، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

| | |
|---|---|
| د. غسان محمود وشاح | مشرفاً و رئيساً |
| د. إبراهيم أحمد أبو شبيكة | مناقشاً داخلياً |
| د. عبد الحميد جمال الفراني | مناقشاً خارجياً |

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية الآداب/قسم التاريخ**.

**واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.**

**والله ولي التوفيق ،،،**

**نائب الرئيس لشئون البحث العلمي والدراسات العليا**

**أ.د. عبدالرؤوف علي المناعمة**

P.O. Box 108, Rimal, Gaza, Palestine fax: +970 (8) 286 0800 فاكس Tel: +970 (8) 286 0700 هاتف ص.ب. 108 الرمال، غزة، فلسطين
public@iugaza.edu.ps www.iugaza.edu.ps

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

(التوبة: ١٠٥)

# الإهداء

- إلى الشهداء، والأسرى فرج الله كربهم.
- إلى روح والدي الغالي على قلبي رحمه الله.
- إلى امي الغالية أطال الله في عمرها.
- إلى زوجتي الكريمة وأبنائي محمد، أسيل.
- إلى إخوتي وأخواتي وأولادهم جميعاً.
- إلى أهلي وأحبابي، وكل من يهمه أمري.

**إليهم جميعاً أهدي هذه الرسالة.**

# شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه الذي تتم بفضله الصالحات القائل: ﴿**مَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيد**﴾ **(لقمان: ١٢)** والصلاة والسلام على الرسول الكريم ومن سار على دربه إلى يوم الدين أفضل الصلوات وأتم التسليم، أما بعد:

اعترافاً لذوي الفضل بفضلهم، يتقدم الباحث بجزيل الشكر للأستاذ الدكتور/**غسان محمود احمد وشاح**، لإشرافه على رسالتي، وكان له الفضل الكبير في إخراجها على أفضل وجه ولم يبخل على في تقديم النصائح والإرشادات القيمة التي أفادت البحث.

كما أتقدم بجزيل الشكر لأعضاء لجنة المناقشة الدكتور إبراهيم أبو شبيكة والدكتور عبد الحميد جمال الفراني لتكرمهما بمناقشة الرسالة، وإبداء الملاحظات المفيدة والحكم عليها.

ولا يفوتني أن اشكر الاخ/ **اشرف المبحوح**، لما قدمه لي من مساعده في طباعة هذه الرسالة وأشكر كل من ساعدني في أمر أسهم في إتمام الرسالة.

## دراسة نقدية لأهم مصادر البحث:

اعتمد الباحث في دراسته لحقوق الإنسان في مصر والشام في دولة المماليك على عدد كبير من المصادر العربية المخطوطة وكذلك على عدد كبير من المصادر العربية المطبوعة والمراجع التاريخية والحضارية الحديثة وعدد لا بأس به من المصادر والمراجع الأجنبية المعربة إضافة إلي مجموعة من الدوريات العلمية والرسائل العلمية، وقسم الباحث هذه المصادر والمراجع حسب الاستفادة منها على النحو التالي:

**١- الوثائق والمصادر العربية المخطوطة :**

تعتبر الوثائق من أهم المصادر الأصلية التي يعتمد عليها الباحث، فهي عاصرت الفترة الزمنية الخاصة بموضوع الدراسة، وتلقي الضوء على أهم جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية، من هذه الوثائق وثيقة وقف السلطان المنصور قلاوون على البيمارستان المنصوري، ووثيقة وقف السلطان الناصر حسن على المدرسة والسبيل والجامع، واستفاد الباحث من هذه الوثائق بالتعرف على الخدمات التي كانت تقدمها الدولة لحفظ حقوق الإنسان فيها من جميع النواحي.

**٢- المصادر العربية المطبوعة :**

واستفاد منها الباحث لفهم الأحداث التاريخية؛ لاحتوائها على أحداث معاصرة، أو اعتمد أصحابها على وثائق ومعلومات معاصرة، ومنها أهمها:

**أ- كتب الحوليات :**

حيث لا غني لأي باحث في التاريخ عن الاستعانة بالمصادر الحولية، مثل كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (ت: ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) الذي يعد من أروع وأنفس ما كتب في تاريخ مصر الإسلامية فقد كان خاتمة لحلقة كبيرة عني فيها المقريزي بالتاريخ لمصر منذ الفتح العربي وحتي قبيل وفاته، وتناول الكتاب تاريخ الدولة المملوكية بمصر وتأثير الأحداث الداخلية والخارجية على الوضع العام والأحوال بمصر، ويمتاز الكتاب بأسلوب سهل وسلسل في سرد الأحداث وتفاصيلها.

ومن هذه الكتب الحولية أيضاً وكانت مهمة لهذا البحث كتاب النجوم الزاهرة لمؤلفه ابن تغري بردي (أبو المحاسن: ت: ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) وتحدث عن فيضان النيل وتأثير ذلك على الأحوال بمصر من حيث الغلاء والمجاعات من عدمها، فقد كان ابن تغري بردي يستهل الحديث عن السنة بقوله: أمر النيل في هذه السنة الماء القديم كذا زراع وكذا أصبع ومبلغ الزيادة كذا أصبع.

ومن الكتب الحولية كذلك : كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس (ت: ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، وترجع أهمية هذا المصدر معاصرته نهاية العهد المملوكي، وشاهد نهاية الدولة.

وكتاب البداية والنهاية لمؤلفه الحافظ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) حيث لا يمكن لأي باحث الاستغناء عنه فقد قدم معلومات عظيمة عن الحروب والأمراض والأوبئة .

بالإضافة إلي بعض المصادر التي ألقت الضوء علي جوانب متعددة من البحث، بتناولها حياة السلاطين ودورهم، ومنها كتاب تشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر (ت:٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، وكتاب تذكرة النبيه لابن حبيب(ت:٧٧٩هـ/١٣٧٧م).

**ب-كتب الخطط :**

اعتمد الباحث على كتب الخطط بشكل أساسي ومن أهم هذه الكتب، كتاب الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة لابن عبد الظاهر وكانت معلوماته قيمة عن خطط القاهرة وأسواقها ودروبها .

وكان كتاب الخطط لصاحبه المقريزي قمة في الإبداع المعروف بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار والذي اشتمل على وصف شامل لطبوغرافية مصر ووصف حاراتها وشوارعها ودروبها ورحابها، أسواقها إضافة إلي وصفه للخانات والبرك والميادين والمساجد والمدارس والأضرحة والكنائس والدور السكنية والقصور ودور الصناعة وغيرها من العادات والتقاليد والأنشطة البشرية للسكان وتحث أيضاً عن الأربطة والزوايا والخوانق والترب والحمامات والبيمارستانات، وهي موضوعات أثرت مادة البحث العلمية .

**ج-كتب الطبقات والتراجم والأعلام :**

ومن المصادر الهامة التي أثرت مادة البحث العلمية كثيراً كتب التراجم والأعلام، حيث رجع إليها الباحث كثيراً ومن أهم هذه الكتب كتاب وفيات الأعيان وأنباء الزمان لمؤلفه أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان قاضي القضاه شمس الدين أبو العباس البرمكي الاربلي الشافعي، ويعد من أوثق المصادر التاريخية التي تتناول تراجم الملوك والإعلام والبلاد والأماكن، وقد اشتمل على أكثر من ستمائة ترجمة ويمتاز بالبلاغة وكثرة الاطلاع وشدة التحري والضبط أثناء الترجمة مما افادة الباحث بشكل كبير جدا.

**د- كتب الرحالة والجغرافيين :**

واستفاد الباحث بشكل كبير من هذه الكتب وأهمها كتاب معجم البلدان لصاحبه ياقوت الحموي والذي أمدنا بمعلومات كثيرة عن سائر مدن مصر والشام وعن أحوالها سائر أهلها وقد استعنا به كثيراً عن التعريف بالعديد من المدن والبلاد وله مؤلفات آخري مثل كتاب معجم الأدباء وهو موسوعة كبيرة في تصنيف الرجال في عصره .

**هـ-كتب الحسبة :**

واستعان الباحث كثيرا بكتب الحسبة لمعرفة دور المحتسب في ضبط أصحاب المهن والحرف والأطباء والأسواق وجميع هذه الحرف ومن هذه الكتب كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لمؤلفه الشيخ عبد الرحمن بن نصر الشيزري، وتناول الكتاب معلومات عن الحسبة وواجباتها وشروطها ودور المحتسب في الرقابة على أصحاب الحرف المختلفة ومنعهم من الغش مما يؤكد على دور الدولة الرقابي على كل ما يتعلق بحقوق الإنسان، وكتاب معالم القربة في أحكام الحسبة لمؤلفه محمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن الأخوة القرشي الشافعي (ت: ٧٣٩هـ/١٣٣٨م) ليبرز الدور المهم للمحتسب في الرقابة والإشراف على جميع أصحاب الحرب مما كان له بالغ الافادة للباحث .

كما استفاد الباحث أيضاً من كتاب محمد بن أحمد بن بسام المحتسب وهو بعنوان نهاية الرتبة في طلب الحسبة .

**و- كتب متفرقة :**

كما استفاد الباحث من مجموعة كبيرة من المصادر لا تنتمي لصنف معين من المؤلفات بل تعالج مواضيع مختلفة حسب موضوعها مثل نهاية الأرب في الفنون الأدب للنويري (ت:٧٣٢هـ /١٣٣٢م) وهو عبارة عن موسوعة ضخمة تصل إلي ثلاثين جزء وتحوي خمسة فنون أو مجالات وهي: الأرض والماء ومعالم كلا منهم ثم الإنسان ثم الحيوان ثم النبات ثم التاريخ استفاد الباحث منه في بحثه بشكل كبير جدا .

وكتاب مسالك الأبصار للعمري (ت:٧٤٩هـ/١٣٤٨م) الذي استفاد منه الباحث، وكتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي (ت:٨٢١هـ/١٤١٨م )الذي يعتبر موسوعة في المراسيم الصادرة من ديوان الإنشاء.

وهناك الكثير من المصادر التي لا تقل أهمية عن المصادر السابقة ولكن لا يمكن ذكرها في هذه النبذة المختصرة وهي مثبتة في حواشي وفي قائمة المصادر .

**٣- المراجع العربية والمترجمة :**

واستخدم الباحث مجموعة كبيرة من المراجع العربية الحديثة والمترجمة عن لغات أجنبية .

**٤ – الدوريات العلمية والرسائل الجامعية:**

واستعان الباحث بعدد من الدوريات العلمية إضافة إلي عدد من الرسائل الجامعية التي استرشد الباحث بها في بحثه .

# قائمة المحتويات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| آية قرآنية | أ |
| الإهداء | ب |
| شكر وتقدير | ت |
| دراسة نقدية لأهم مصادر البحث | ث |
| قائمة المحتويات | د |
| المقدمة | ز |
| **الفصل الأول**<br>**دوافع دولة المماليك للاهتمام بحقوق الانسان.** | |
| تعريف الحقوق. | ٢ |
| تعريف الحقوق اصطلاحا. | ٣ |
| **المبحث الأول:** الدوافع الشرعية. | ٥ |
| **المبحث الثاني:** الدوافع السياسية. | ١١ |
| **المبحث الثالث:** الدوافع الاقتصادية. | ١٥ |
| **المبحث الرابع:** الدوافع الإنسانية. | ١٨ |
| **الفصل الثاني**<br>**الحقوق الاجتماعية في دولة المماليك.** | |
| المبحث الأول: الحق في إقامة العدل. | ٢٢ |
| المبحث الثاني : الحق في الرعاية الصحية والتكافل والتعليم. | ٢٨ |
| المبحث الثالث: الحق في الإقامة والتنقل. | ٤٣ |
| المبحث الرابع: حقوق المرأة والعبيد والموالي. | ٤٨ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| **الفصل الثالث**<br>**الحقوق الاقتصادية في دولة المماليك.** | |
| **المبحث الأول:** الحق في العمل. | ٥٩ |
| **المبحث الثاني:** الحق في الملكية الخاصة والعامة. | ٦٤ |
| **المبحث الثالث:** الحق في العدل الضريبي وفق الضوابط الشرعية. | ٦٩ |
| **المبحث الرابع:** الحق في تعبيد الطرق وحفظها. | ٧٤ |
| **المبحث الخامس:** الحق في حماية الأسواق والأملاك. | ٨٤ |
| **الفصل الرابع**<br>**الحقوق السياسية في دولة المماليك.** | |
| **المبحث الأول:** الحق في المشاركة والحكم | ٨٤ |
| **المبحث الثاني:** الحق في التعبير والنصح | ٩٠ |
| **المبحث الثالث:** الحق في الشورى. | ٩٦ |
| **المبحث الرابع:** الحق في المساواة بين المسلمين | ١٠٢ |
| **الفصل الخامس**<br>**حقوق أهل الذمة في دولة المماليك.** | |
| **المبحث الأول:** الحقوق السياسة. | ١٠٨ |
| **المبحث الثاني:** الحقوق الاقتصادية | ١١٤ |
| **المبحث الثالث:** الحقوق الاجتماعية. | ١١٨ |
| **الفصل السادس**<br>**حقوق الاسري والمسجونين في دولة المماليك.** | |
| **المبحث الأول:** حقوق السجناء الجنائيين. | ١٢٧ |
| **المبحث الثاني:** حقوق السجناء السياسيين | ١٣٦ |
| **المبحث الثالث:** حقوق أسري العدو | ١٤٤ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| **المبحث الرابع:** حقوق أسري المسلمين عند العدو. | ١٤٩ |
| الخاتمة | ١٥٣ |
| أولاً: أهم النتائج | ١٥٣ |
| ثانياً: التوصيات | ١٥٤ |
| المصادر والمراجع | ١٥٥ |
| الملاحق | ١٨٦ |
| ملخص الدراسة | ٢٠٦ |

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

لقد منَّ الله على عباده بدينٍ متينٍ يُخاطِبُ العقلَ والقلبَ، ويُؤصِّلُ القواعدَ والأحكام، شاملٌ للكليات والجزئيات، والاعتقادات والعبادات، والسلوك والآداب، وقرَّر أصول التعامل مع البسطاء والعُظماء، وأهل البطالة والأثرياء، والفقراء والأغنياء، قال جل شأنُه: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٣٨].

ومن أُسس هذا الدين:حقوق الانسان لكل فردٍ وإن علا، قال صلى الله عليه وسلم: "**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**". رواه مسلم.

وقد سلك السلفُ الصالحُ السبيلَ الأقومَ في توضيح حقوق الانسان للحاكم على ما جاء به الكتابُ والسنة، وإذا اجتمعت القلوب على الحق قوِيَت في العبادة، وحسُنَت بينهم المُعاملة، وحفِظَ الله المجتمعَ من الشرور، وكانت يدُ الله معهم، قال عليه الصلاة والسلام: "يدُ الله مع الجماعة". رواه الترمذي.

ومن أوائل أعمال النبي صلى الله عليه وسلم حين قدِم المدينة: مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار، وتوحيد صفِّه لتقوَى شوكةُ المسلمين ويعيش الجميعُ في أمنٍ واستقرار.

واستطاعت الدولة الإسلامية منذ تأسيسها أن تجعل من تطبيق مبادئ حقوق الإنسان أنموذجًا علي جميع الأصعدة وشملت جميع النواحي الحياتية في الدولة وكفلت حق أهل الذمة قبل حق المسلم وحفظت حقوق العبيد والموالي وحقوق المرأة، والأسري، وكفلت الرعاية الصحية للجميع منذ عهد الرسول الكريم وصولاً إلي دولة المماليك موضوع الدراسة الأمر الذي يبين للجميع أن الدولة الاسلامية سبقت الجميع في هذا المجال وأن ما اقدمت عليه من تطبيق هذه الحقوق فاق ما يتغنى به دعاة حقوق الإنسان في وقتنا الحاضر.

### اهمية الموضوع:

١- ندرة الدراسات العلمية الجادة التي تناولت الموضوع بالرغم من أهميته.

٢- تقييم مستوي اداء دولة المماليك في كفالتها لحقوق الانسان في دلك العصر.

٣- الكشف عن سبقُ وتميز الدولة الاسلامية في مجال حقوق الانسان.

٤- حاجة الامة الاسلامية اليوم الى دراسات تظهِر أسباب قوة المسلمين في العصور الماضية وتدفع أبناءها الى الاقتداء بعلمائها وقادتها.

## منهج الدراسة:

اتبع الباحث في دراسته المنهج التاريخي التحليلي الوصفي.

## تقسيمات الدراسة:

تم تقسيم الدراسة الى مقدمة وست فصول وخاتمة، أما المقدمة فاحتوت على نبذة مختصرة عن الموضوع وأهميته والمنهج المتبع في الدارسة.

أما الفصل الأول فقد بحث دوافع المماليك للاهتمام بحقوق الانسان.

أما الفصل الثاني فقد عالج الحقوق الإجتماعية في دولة المماليك.

أما الفصل الثالث فقد تناول الحقوق الاقتصادية في دولة المماليك.

وأما الفصل الرابع فقد بحث في الحقوق السياسية في دولة المماليك.

ودرس الفصل الخامس حقوق أهل الدمة في دولة المماليك.

وتحدث الفصل السادس عن حقوق السجناء والأسري في دولة المماليك.

وأما الخاتمة فقد احتوت على أهم نتائج الدارسة.

ولقد واجهت الباحث بعض المشكلات كان أبرزها قلة وجود دراسات تحدثت في التطبيق العملي لحقوق الانسان في دولة المماليك يستطيع الباحث الاهتداء بها، مما كلف الباحث جهداً مضاعفاً.

# الفصل الاول
# دوافع دولة المماليك للاهتمام بحقوق الانسان.

**ويشتمل على أربعة مباحث:**

**المبحث الأول: الدوافع الشرعية.**

**المبحث الثاني: الدوافع السياسية.**

**المبحث الثالث: الدوافع الاقتصادية.**

**المبحث الرابع: الدوافع الانسانية.**

المماليك هو اسم اصطلح على أولئك الرقيق الذين كان غالبيتهم من أصحاب اللون الأبيض الذين اشتراهم الحكام المسلمون من أقطار مختلفة، وكانوا يربونهم تربية خاصة ليكوَّنوا بهم جيوشهم ويصنعوا منهم محاربين أقوياء واستطاع هؤلاء المماليك حكم مصر والشام ما يقارب ثلاثة قرون من عام(٦٤٨هـ-٩٢٩هـ/١٢٥٠م-١٥١٧م) [١]

وكلمة مملوك تعني في اللغة: الرقيق الأبيض وهي اسم مفعول من الفعل ملك واسم الفاعل مالك أي يكون المملوك هو ملك لسيده ورق له[٢]. وأسس المماليك دولة لهم في مصر والشام على مرحلتين من الحكم؛ الفترة الأولى دولة المماليك البحرية الأتراك وحكمت من سنة(٧٨٤هـ/١٣٨٢م) حتى بداية دولة الجراكسة والتي يطلق عليها دولة المماليك البرجية واستمرت حتى سقوط دولة المماليك سنة(٩٢٣هـ/١٥١٧م) [٣]

ويعد أحمد بن طولون[٤] أول من جلب المماليك الترك للديار المصرية، وتزايد عدد المماليك إما بشرائهم أو عن طريق الهدايا المقدمة للسلاطين والخلفاء في مجموعات كبيرة بعد أسرهم في المعارك وخاصة الأطفال منهم، وكان يأخذ منهم خدماً وحاشية وجنوداً في الجيش أيضاً[٥] واستخدم الإخشيد في مصر المماليك في حراسة السلطان وهو نائم[٦]، ويذكر على إن أصل المماليك من الأكراد والتركمان[٧]، ومنهم الأتراك والجركس والروم وبعض العرب[٨]، ومعظم سلاطين المماليك كانوا من الجنس التركي والجركسي وسلاطين البحرية هم من الجنس التركي[٩]، ومنهم من هو من أصل ماغولي مثل السلطان كتبغا والذي من أفضل سلاطين المماليك سيرة ومسيرة[١٠].

(١) المنصوري: التحفة المملوكية، ص٢٥؛ العسقلاني، شافع: الفضل المأثور، ص٢٥،٢٦.
(٢) ابن منظور: لسان العرب، ج١٠، ص١٢٤.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٨٤؛ المكي: صمت النجوم، ج٣، ص٥٣٢.
(٤) وهو الأمير أبو العباس صاحب الديار المصرية والشامية والثغور وقد ولاه الخليفة العباسي المعتز مصراً فاستولى هو على باقي الشام، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص١٧٣.
(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٧، ص٢٤٧؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص١٠٥.
(٦) أبو الفضل: تكملة تاريخ الطبري، ج١، ص١٥٣.
(٧) المنصوري: مختار الأخبار، ص٢٧.
(٨) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٢١٥.
(٩) العسقلاني: الفضل المأثور: ص٢٥.
(١٠) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٣٣٩.

وكان يتم تربيتهم تربية إسلامية خاصة، تعتمد على العسكرية، حيث كانوا يوضعوا بمجتمعات خاصة بهم في أواخر العهد الأيوبي[١]، وخاصة خلال فترة حكم السلطان الصالح نجم الدين أيوب، حيث كان السلطان قد جمع العديد من المماليك الأتراك لأنه أحب، المماليك من الجنس التركي[٢]، فحظي المماليك برعاية السلطان الصالح نجم الدين أيوب وتم توفير الرعاية والمسكن والمأكل ورواتب خاصة بهم، حيث أصبح المملوك من الطبقة الأميرية بالبلاد، وأسكنهم الصالح نجم الدين أيوب جزيرة الروضة[٣] واختارهم ليبني منهم جيشاً جديداً يسمع ويطيع ولا يحمل في معتقداته مصطلحات الإنقلاب أو الخيانة أو الإنحياز إلى جهة غير جهة السلطان[٤]، وكان الصالح نجم الدين أيوب لا يتهاون مع مماليكه ويعاملهم بكل حزم وقوة ويفرض أقسى العقوبات على من يظهر منه خلل[٥]، وكان للمماليك في عهد الصالح نجم الدين أيوب دور كبير في القضاء على الأخطار المحدقة بالإسلام مثل الصليبيين والمغول حيث تمكن المماليك بعد ذلك من صد أكبر قوة موجودة في ذلك الوقت وهم المغول ويرجع لهم الفضل في إنهاء الوجود الصليبي سنة(٦٨٨هـ/١٢٩١م) من بلاد الشام[٦].

## تعريف الحقوق:

فالحق في اللغة يعني اليقين بلا شك[٧].

ولكلمة حق معان عدة، في اللغة العربية منها الثبوت[٨] والوجوب واللزوم، ونقيض الباطل[٩].

"الحق: خلاف الباطل، والحق: واحد الحقوق، والحَقة أخص منه، يقال: هذه حقتي أي: حقي[١٠]

وقال الفيروزآبادي: "الحق: من أسماء الله تعالى أو من صفاته، وذكر في القرآن، الحق ضدد الباطل، والأمر المقضي، وتنفيد العدل، في الإسلام، وفي المال، وفي الملك، وفي الموجود

(١) المكي: صمت النجوم العوالى، ج٣، ص٥٢٩.
(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٤١.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٢١.
(٤) قاسم، علي: الأيوبيين المماليك، ص١٢٦.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٣١.
(٦) المكي: صمت النجوم، ج٤، ص١٧.
(٧) الرازي: مختار الصحاح، ج١، ص٦٢؛ ابن منظور: لسان العرب، ج١٠، ص ٤٩_ ٥٢.
(٨) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٨٧٤.
(٩) ابن منظور: لسان العرب، ج١٠، ص ٤٩_ ٥٨.
(١٠) الرازي : مختار الصحاح :ج٤، ص١٤٦٠.

الثابت، وفي الصدق، والموت، والحزم، ووحد الحقوق[١]

وجاءت كلمة الحق في معان كثيرة في القران الكريم مثل قوله تعالى ﴿**وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [٢]وجاءت هنا بمعنى نقض الباطل.

وبمعني الثابت في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ** ﴾ [٣] وجاءت بمعني الحصة والنصيب في قوله تعالى: ﴿ **وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾ [٤]

وقال المنأوي: "الحق لغة: الثابت الذي لا يسوغ إنكاره"[٥]

وكان للسنة النبوية دور في توضيح حقوق الإنسان حيث قال رسول الله ﷺ (إن الله قد أعطي كل ذي حق حقه ) [٦]

## تعريف الحقوق اصطلاحاً:

**أولاً: تكون بمعنى:** مجموعة القواعد والنصوص التشريعية التي تنظم على سبيل الإلزام علائق الناس من حيث الأشخاص والأموال، فهي بهذا المفهوم قريبة من مفهوم خطاب الشارع المرادف لمعنى (الحكم) في اصطلاح علماء الأصول، أو لمعنى (القانون) في اصطلاح علماء القانون، وهذا المعنى هو المراد عندما نقول مثلاً: الحقوق المدنية، أو القانون المدني [٧]

**ثانياً:** الحق بمعنى السلطة المشروعة، أو بمعنى المطلب الذي يحق لأحد على غيره، وهذا هو المراد في مثل قولنا: إن للمغصوب منه حق استرداد عين ماله لو قائماً، وأخذ قيمته أو مثله لو هالكاً، وإن للمشتري حق الرد بالعيب، وإن التصرف على الصغير هو حق لوليه أو وصيه ونحو ذلك، ويمكن تعريف الحق بمعناه العام بأن يقال: الحق هو اختصاص يقرر به الشرع سلطة أو تكليفاً[٨]

---

(١) الفيروز آبادي : القاموس المحيط، ج٣، ص٢٢١.

(٢) {سورة البقرة: آية ٤٢}.

(٣) {سورة القصص: آية ٦٣ }.

(٤) {سورة يس: آية ٧}.

(٥) المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف، ص ٢٨٧.

(٦) أبو داود: السنن، ج٣، ص٤٥٥؛ الترمذي: السنن، ج٣، ص ٦٢١.

(٧) الزرقا، مصطفى أحمد: المدخل الفقهي العام، ج١، ص٥.

(٨) المرجع نفسه : المدخل الفقهي العام، ج٣، ص٩ ،١٠.

ومركب من كلمتين هما حقوق وإنسان لإن الحكم على الشيء فرع عن تصوره [١]

ويرى البعض في تعريفه إنه فرع من العلوم الإجتماعية خاص بعلاقة الناس من ناحية الكرامة والإنسانية وذلك من خلال الحقوق والرخص اللازمة لازدهار الشخصية الإنسانية [٢]

وفي **تعريف التسخيري:** "إن حقوق الإنسان هي الحالات الطبيعية التي يحتاجها الإنسان بطبيعته ونظرته لكي يطوي مسيرة تكامله الفطري[٣]

وتعرف حقوق الإنسان هي تلك الحقوق الواجبة له، وتلك المفترض أن تكون له كإنسان ويحتاجها في حياته، فتحفظ حياته وكرامته وأمنه، وخصوصيته، بحيث لا تتعارض مع الصالح العام ومقررات الشرع الإسلامي [٤]

أما علماء الشريعة الإسلامية فقد عرَّفوها بإنها مجموعة من القواعد التي شرعها الله تعالى لعباده لتنظيم صلاتهم به جل شإنه، وتنظيم علاقاتهم ببعضهم اقتصادياً، وسياسياً ودولياً، وأخلاقياً [٥]. وبعد هذه التعريفات نصل إلى تعريف حقوق الإنسان من خلال مقولة عمر بن الخطاب ﷺ. [٦] "إذا كان الناس يعرفون حقوقهم ويخشون الله سبحإنه وتعالى فلماذا اقضي بينهم"[٧]

(١) بن بيه، عبد الله: حوار عن بعد عن حقوق الإنسان في الإسلام، ص ١٩، ٢٠.
(٢) ليا ليفين: حقوق الإنسان أسئلة وإجابات، ص ١٤٠.
(٣) علوان، عبد الكريم: الوسيط في القانون الدولي العام، ص ١٠.
(٤) وشاح، غسان: حقوق الإنسان في الدولة الاسلامية، ص ٦.
(٥) علوان، عبد الكريم: الوسيط في القانون الدولي العام، ص ١٠.
(٦) الحصري: الدولة وسياسة الحكم ،ج٢، ص٥.
(٧) شبارو، عصام: الدولة العربية الإسلامية الأولى (١-٤١ هـ / ٦٢٣-٦٦١ م)، ط٣، ص٢٧٩.
(٨) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٩، ص ٣٧٦.

# المبحـث الأول
# الدوافع الشرعية

ولقد ازدحم القرآن بالآيات التي تحث وتكفل بل وتحمي حقوق الانسان وتعلي من شأن ومرتبة المواطن أيا كان لونه أو جنسه أو دينه، والمساواة في الحقوق والواجبات، أمام القانون وأمام الله في الدنيا والأخرة، لا تفاضل إلا بجهد وعمل صالح [١] وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم مدرسة في تطبيق مفهوم حقوق الانسان من الناحية العملية وجعله واقع في الدولة الاسلامية وحرص الخلفاء الراشدين من بعده على اعطاء الرعية حقوقهم وحمايتها من التعدي عليها ومن المعلوم أن دولة المماليك، خرجت من رحم الدولة الايوبية[٢]، التي جاءت من رحم الأمة الاسلامية الممثلة بالخلافة العباسية التي كانت حريصة على تطبيق حقوق الانسان ومن قبلها الخلافة الأموية، والمماليك تربوا في محاضن إسلامية حقيقية[٣] من أجل ذلك ترعرع سلاطين المماليك، على ثقافة إسلامية، اتخذت دولتهم من الشريعة الاسلامية دستوراً للدولة، وحمت الشريعة الإسلامية وحافظت على المقدسات، ووريث للدولة الأيوبية، تحمل على عاتقها عبئ الجهاد والمقاومة، لذلك كانت الشريعة الإسلامية بمصادرها المعروفة، قال ابن كثير: "أي" حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرماً وتفضلاً"[٤]

وقال تعالى: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ**﴾ [٥] قال القرطبي: [٦] "أي: أوجب ذلك بخبره الصادق ووعده الحق" [٧].

---

(١) الطبري : تفسير الطبري ، ج 16، ص175 .

(٢) ابن كثير: البداية، ج13 ، ص98 .

(٣) ابن الوردي: تاريخ، ج2 ، ص18 ..

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص٤٤٦.

(٥) سورة الإنعام: الآية٥٤.

(٦) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الإنصاري، الخزرجي، الأندلسي، القرطبي، المالكي أبو عبد الله مفسر، توفي بمنية بني خصيب بمصر في شوال، وهو من كبار المفسرين، رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب «في شمإلى أسيوط، بمصر» وتوفي فيها (٦٧١ هـ – ١٢٧٣ م) الداودي: طبقات المفسرين، ج ٢، ص ٦٥، ٦٦؛ السيوطي: طبقات المفسرين ص٧٩؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٢، ص ١٢٢، ص ١٢٣..

(٧) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٦، ص ٤٣٥.

وقال ابن كثير: "أي: أوجبها على نفسه الكريمة تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً" [١]، ولقد كرم الإسلام الإنسان وحفظ حقوقه ولقد خلقه الله في أحسن صورة، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ [٢]، وقال ابن عباس:[٣] (في أعدل خلق) [٤]

قال ابن كثير: "إنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل، منتصب القامة، سوي الأعضاء حسنها"[٥]، ولقد نفخ الله فيه من روحه: وذلك في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ**﴾ [٦]، وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ**﴾ [٧]

قال الواحدي: [٨] [*]"وأضاف روح آدم إلية إكراماً وتشريفاً"[٩] وسخر الله له كل شيء في هذه الدنيا وأمر الملائكة بالسجود لآدم: قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ**﴾[١٠]

قال ابن كثير: "وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم، امتن بها على ذريته، حيث أمر الملائكة بالسجود لآدم"[١١] وكان التفضيل أيضاً حيث علم آدم الاسماء كلها.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ١٤٠.

(٢) سورة: التين، الآية ٤.

(٣) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي. أبو العباس، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. أمه أم الفضل بنت الحارث الهلالية، أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين. صحابي جليل القدر يلقب بحبر هذه الأمة. هو أبو الخلفاء العباسيين وإليه ينتسبون. ولد بمكة ونشأ في بدء عصر النبوة فلازم رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عنه الأحاديث الصحيحة؛ الاندلسي :الاستيعاب، ج٣، ص ٩٣٣؛ ابن حجر: الإصابة، ج٢، ص ٣٢٢؛ ابن كتير: البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٩٥، ص ٢٩٩؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج١، ص٤٠؛ ابن الأثير: ج ٣، ص ٣٨٦؛ البغدادي: تاريخ بغداد، ج١، ص ١٧٣؛ المسعودي :مروج الذهب، ج٣، ص١٠١.

(٤) الرازي: تفسير ابن أبي حاتم، ج١٠، ص ٣٤٤٨.

(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص ٥٢٧.

(٦) سورة: السجدة، آية ٩.

(٧) سورة: ص، آية ٧٢.

(٨) أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ). سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ٣٣٩.

(٩) الواحدي: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ج ٣، ص ٤٥.

(١٠) {سورة: البقرة، آية ٣٤}.

(١١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص ٨٠.

قال تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ ءادَمَ ٱلأسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـئِكَةِ فَقَالَ إنبِئُونِى بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إن كُنتُمْ صَـدِقِينَ قَالُواْ سُبْحَـنَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إنكَ إنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ**﴾(١).

قال ابن كثير: "هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم"(٢) كرم الله الإنسان بأن جعله خليفته في الأرض قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـئِكَةِ إنـي جَاعِلٌ فِى ٱلأرْضِ خَلِيفَةً**﴾ (٣) قال البغوي : (٤) "والصحيح أنه خليفة الله في أرضه؛ لإقامة أحكامه وتنفيذ وصاياه"(٥)

"وقول الله هذا موجه إلى الملائكة على وجه الإخبار؛ ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجه يزيل ما علم الله في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس"(٦) وتكريم الإنسان على كثير من المخلوقات: قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ وَحَمَلْنَـهُمْ فِى ٱلْبَرّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـهُمْ مّنَ ٱلطَّيّبَـتِ وَفَضَّلْنَـهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مّمَّنْ خَلَقْنَـا تَفْضِيلاً**﴾(٧) "أجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين أنواعه، فأفاد ذلك أن بني آدم فضلهم سبحانه على كثير من مخلوقاته... والتأكيد بقوله {تَفْضِيلاً} يدل على عظم هذا التفضيل وأنه بمكان مكين، فعلى بني آدم أن يتلقوه بالشكر ويحذروا من الكفر به "(٨) وكرم الإنسان بأن الله سخر له المخلوقات، قال تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوٰتِ وَمَا فِى ٱلأَرْضِ جَمِيعاً مّنْهُ إن فِى ذَلِكَ لآيَـتٍ لّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(٩)

---

(١) {سورة: البقرة، آية ٣١، ٣٢}.

(٢) ابن كثير: تفسير القرإن العظيم، ج١، ص ٧٨.

(٣) {سورة: البقرة، اية ٣٠}.

(٤) أبو محمّد الحسين بن مسعود بن محمّد المعروف بالفرّاء البغوي، الفقيه الشافعي المحدّث المفسّر، كان بحراً في العلوم، وأخذ الفقه عن القاضي حسين بن محمّد. وصنّف في تفسير كلام الله تعالى، وأوضح المشكلات من قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وروى الحديث، ودرّس، وكان لا يلقي الدرس إلاّ على الطهارة، وصنّف كتباً كثيرة، توفي في سنة ست عشرة وخمس مائة، ابن خلكان: وفيات الأعيإن، ج٢، ص١٣٦؛ الذهبي: تذكرة الحفّاظ، ج ٤، ص ١٢٥٧ ؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج ٧، ص ٧٥.

(٥) البغوي: معالم التنزيل، ج١، ص ٧٩.

(٦) ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، ج ١، ص ٤٠٠.

(٧) {سورة: الإسراء، آية ٧٠}.

(٨) الشوكاني: فتح القدير ج ٣، ص٢٤٤، ٢٤٥.

(٩) {سورة: الجاثية، آية ١٣ }.

"وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض ولما أودع الله فيهما من الشمس والقمر والكواكب والثوابت والسيارات وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمرات وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضروراته"(١)

إن حقوق الإنسان في الإسلام هي جزء أصيل من العقيدة، ولا بد من المحافظة عليها وصيانتها، وهي قائمة على مبدأ التوحيد حيث أن شهادة لا إله إلا الله هي أساس الحقوق والحريات؛ الله هو الواحد وهو الفرد والصمد وخلق الناس أحراراً ويأمرهم في أن يقدموا أنفسهم وأموالهم مقابل عدم سلب الحرية منهم، والحرص على الالتزام بهده الحقوق، وقد جاء الجهاد في سبيل الدفاع عنها ومنع الاعتداء عليها، وآيات القرآن جاءت كثيرة ومؤكدة على المحافظة عليها، وللإنسان في الإسلام حقوق تنبع من التكريم الإلهي لهذه الحقوق، وجاءت صريحة بالنصوص وتصوير عبودية الفرد لله وحده وفطرة الإنسان التي فطره الله عليها(٢)

"وحقوق الإنسان في الإسلام ليست منةَ أو منحة من مخلوق لمخلوق مثله، بل هي منحة من الله الخالق منحها لعباده، فلا يجوز لأحد التعدي عليها بدون أي وجه حق، فهي مقرة من الله سبحانه وتعالى للإنسان"(٣)

وحقوق الإنسان شملت جميع نواحي الحياة للإنسان المسلم سواء كانت سياسية أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو ثقافية، ولا تفرق بين جنسه، أو لونه، أو لغته، بل تحفظ حقوق جميع من هم تحت راية الدولة الإسلامية، وحقوق الإنسان في الإسلام ثابتة ولا تعرف التبديل والتعطيل، ولا الإلغاء لأنها جزء أصيل من الشريعة الإسلامية(٤) حقوق الإنسان في الإسلام تكفل كل الحقوق وتحميها، وهي ليست مطلقة، حيث أنها لا تتعارض مع مقاصد الشريعة فهي تكفل حق الفرد، والجماعة(٥)

والدين الإسلامي هو الدين الخاتم للأديان فهو شامل، وكامل لكافة الحقوق مازالت الحياة مستمرة مهما كان هناك من قوانين وضعية فهي قاصرة عن توفير كافة الحقوق للإنسان لأنها من وضع البشر(٦)

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٧٧٦.
(٢) الزحيلي، محمد: حقوق الإنسان في الإسلام، ص ١٣٢-١٣٣.
(٣) الحقيل، سليمان: حقوق الإنسان في الإسلام، ص ٥٣.
(٤) المصدر نفسه : ص ٥٣.
(٥) المصدر نفسه : ص ٥٣.
(٦) جريشة، علي محمد: حرمات لا حقوق الإنسان في ظل الإسلام، ص٣٥.

وقد جاء الشرع ليصنع أفضل صورة للبشرية بمبادئ الحرية والإخاء والمساوة والعدالة الاجتماعية، وهذه المبادئ لم توضع بشكل مجرد، بل مستوحاة من الحياة الاجتماعية للبشر في كل عصر ومصر[١].

ومن الخطأ الكبير أن نفصل بين حقوق الإنسان وبين الدوافع الشرعية لها والمثل الدينية التي توحي بهذه الحقوق، وقد حفظت الشريعة للناس خمسة أمور ووضعت عقاباً صارماً لمن يعتدي عليها، وهي: الحفاظ على الدين، والحفاظ على النفس، والحفاظ على المال، والحفاظ على العقل، والحفاظ على النسل[٢]. وابدع خلفاء المسلمين وحكامهم في تطبيق حقوق الإنسان كما حث عليها الشرع الحنيف، والشواهد على ذلك كثيرة حيث قام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمساواة بين الملوك والعامة، وفي قصة ابن الأيهم [٣] والأعرابي حيث داس الأعرابي على إزار ابن الأيهم وقام ابن الأيهم بضربه فشكى الأعرابي جبلة ابن الأيهم إلى عمر بن الخطاب فحكم عمر للأعرابي، فقال له جبلة يا أمير المؤمنين أنا ملك وهو من عامة الناس فرد عليه بقوله المشهور إن الشرع سوى بينكما[٤]

و ألزمت الشريعة الإسلامية الحكام على تأمين حقوق الإنسان، حيث جعلت الدولة مسؤولة تجاه الرعية وحماية حقوق هذه الرعية من كافة النواحي، وحرم الشرع على الدولة الإسلامية التمييز بين أفرادها والأدلة على ذلك كثيرة في الشرع الإسلامي، حيث أمر الله تعالى بالعدل فيقول عز وجل: ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ إن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾[٥]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ** ﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿ **وَإن حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ** ﴾ [٧] وقوله تعالى: ﴿ **إن اللَّهَ يَأْمُرُ**

(١) سلطان، محمود السيد: بحوث في التربية الإسلامية، ص٥٨.

(٢) الصالح، عثمان عبد الملك: حق الأمن الفردي في الإسلام ،ص ٣٥، ٣٦، ٣٧.

(٣) ملك نصارى العرب وهو جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث بن أبي شمر، واسمه المنذر بن الحارث. وهو: ابن مارية ذات القرطين، وهو: ابن ثعلبة بن عمرو بن جفنة، واسمه: كعب أبو عامر بن حارثة بن امرئ القيس، ومارية بنت أرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة، ويقال غير ذلك في نسبه، وكنيته جبلة أبو المنذر الغساني الجفني، وكان ملك غسان، وهم نصارى العرب أيام هرقل، وغسان أولاد عم الانصار أوسها وخزرجها، وكان جبلة آخر ملوك غسان، فكتب إليه رسول الله، كتاباً مع شجاع بن وهب يدعوه إلى الإسلام فأسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله ؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٥ ص٣١٥

(٤) ابن كثير: البداية، ج 8 ، ص98 .

(٥) {سورة: النساء، الآية ٥٨}.

(٦) {سورة: الشوري، الآية ١٥}.

(٧) {سورة: المائدة، الآية ٤٢}.

**بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ** ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [2]

تعد حقوق الإنسان أساساً للحكم وقاعدة شرعية ينطلق منها الحاكم في التعامل مع الرعية، وفي حال تجاوزها الحاكم فقد خرج عن تعاليم الشرع الحنيف، مما يجعل حكمه معرض للإنهيار [3].

(١) {سورة: النحل، الآية ٩٠}.

(٢) {سورة: المائدة، الآية ٨}.

(٣) الكاندهلوي: حياة الصحابة، ج٢، ص ٥٩.

## المبحث الثاني
## الدوافع السياسية

مثل عصر دولة المماليك مرحلة مهمة من التاريخ الإسلامي، وكان لها دور بارز في اعادة هيكلة الدولة الإسلامية من جديد، وكانت دولة فتية، قامت أساساً في مصر والشام واتخذت من القاهرة عاصمة لها، وامتد نفودها إلى الحجاز، وشهد العصر المملوكي تطوراً كبيراً وازدهاراً لمختلف الأنظمة فكان لابد لهذه الدولة من مراعاة حقوق الإنسان ووضعها على سلم أولوياتها ولعل من أهم العوامل التي ساعدت على ازدهار حقوق الإنسان في ذلك العصر طبيعة الحياة الدينية، فقد شهد عصر سلاطين المماليك نشاطاً دينياً كبيراً، فالقاهرة عاصمة سلطنة المماليك أصبحت قاعدة الخلافة العباسية منذ سنة( ٦٥٩هـ /١٢٦١م) [١] [٢]، وأصبح الكل يطلب ودها ويقصدها من المشرق والمغرب، مما جعل لسلطنة المماليك مكانة مرموقة في العالم الإسلامي كله، وأصبح المماليك زعماء حقيقيين للعالم الإسلامي بوصفهم حماة الخلافة الإسلامية ،ولقد لعبت الظروف التاريخية دوراً كبيراً في وصول المماليك لهذه المكانة، بعد نجاحهم في صد خطر المغول[٣] والإنتصار عليهم في معركة عين جالوت( ٦٥٨هـ /١٢٦٠ مـ) [٤]

---

(١) ينظر : المقريزي: السلوك ، ج١، ص ٥٠٠.

(٢) تم إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بعد سقوطها في بغداد على يد المغول سنة( ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م ) على يد سلطان المماليك الظاهر بيبرس الذي تولي الحكم في فترة ما بين( ٦٥٨هـ_ ٦٧٦ هـ/ ١٢٥٨م _١٢٧٧ م)، أبو المحاسن: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٣، ص ٤٤٧؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٤٤٥ ،٥٦٠ص.

(٣) المغول هم طائفة من التتار، والتتار هم شعب كبير من الأمة التركية ومنهم تفرق معظم بطونها وأفخاذها، فالتتار والمغول والترك من جنس واحد وهو جنس الترك الذي تشعب منه قبائل شتى منها السلاجقة والخوارزمية والتتار والمغول، والقفجاق، والخزر وغيرهم من الشعوب، نشأ المغول في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمإلى صحراء جوبي، وهي أراض واسعة تتعدم فيها بعض مقومات الحياة، صرامة الطبيعة جعلت من الشعب المغولي شعباً قاسياً، ينظر، الهمداني :جامع التواريخ، مج٢ ،ج٢، ص ١٦٠؛ عبد الحليم: رجب محمد، إنتشار الإسلام بين المغول، ص١٣، ١٤؛ حمدي: حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص١٢٦، ص١٢٧؛ الصياد: فؤاد عبد المعطي، المغول في التاريخ، ج١، ص٣٠- ٣٢.

(٤) معركة عين جالوت ٦٥٨هـ /١٢٦٠ مـ وقعت بين المسلمين بقيادة السلطان سيف الإسلام قطز سلطان مصر وبين المغول بقيادة كتبغا فهب المسلمون على الجيش المغولي فأبادوا الجيش وقتل كتبغا وهزم المغول شر هزيمة وإنتصر المسلمون إنتصاراً كبيراً في هذه المعركة الحاسمة في التاريخ الإسلامي، ينظر، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ج١، ص٤٧٠- ٤٧٥ ص.

والقضاء على بقايا الإمارات الصليبية في الشام، وفتح عكا، وتطهير بلاد الشام بالكامل من الصليبيين سنة( ٦٩٠هـ / ١٢٩١م). [١]

استمر المماليك في التقرب من الناس لتوطيد حكمهم وذلك ببسط نفوذهم السياسي والديني على الحجاز حيث حظيت دولة المماليك بشرف عظيم ودعامة كبرى في مشارق الأرض ومغاربها بحماة الحرمين الشريفين والدفاع عن الحجاز وأرضه الطيبة، اهتمت دولة المماليك بالحجاز اهتماماً بالغاً وعنت به عناية فائقة منذ قيام دولة [٢] وحرص المماليك على تقوية الروابط بينهم وبين الشعب من ناحية، وبين الدول الإسلامية المجاورة من ناحية أخرى من خلال تعزيز رابطة الإسلام بينهم [٣]

ومن الواضح أن سلاطين المماليك كانت سياستهم التقرب للرعية، كي يستتب الأمن وتستقر البلاد، وتكون الرعية مندمجة مع الحاكم، لتكون عوناً له في جميع الظروف، والدفاع عن الدولة، وذلك باتباع سياسة إسقاط الضرائب والغرامات والمكوس غير المنصوص عليها في الدين الحنيف وعدم تحميل الناس فوق طاقتهم والاكتفاء بما تنص عليه الشريعة من زكاة وخراج، وكان خير ما يتقرب به سلاطين المماليك إلى الله والرعية رفع ما كان على المواطن من ضرائب غير شرعية أوجدها من سبقهم من السلاطين وعمل سلاطين المماليك على تسهيل حياة الناس من تعبيد الشوارع وتسهيل حركة التجارة ونشر التعليم وإيصال المياه العذبة للمواطن [٤].

وكانت السياسة العامة عند سلاطين المماليك التقرب من الناس عن طريق عمل أوقاف خاصة بهم وإنفاقها عليهم من أجل كسب رضاهم واستصلاح الأراضي الزراعية، وخدمة المدارس ودور العبادة. [٥]

وحرص سلاطين المماليك أن يكون لهم نصيب الأسد من هذه الأوقاف من أجل الوصول

---

(١) إن الحروب الصليبية ما هي إلا فترة زمنية ولوناً خاصاً من ألوان الصراع الدائم بين الشرق والغرب، اختلف المؤرخون في تحديد أسباب الحروب الصليبية منهم من يرجعها إلى أسباب دينية، ومنهم من يذكر أنها لأسباب سياسية، ومنهم من يعزوها إلى أسباب فكرية، ومنهم من يقول أسباب عسكرية وتتمثل في معركة ملاذكرد ١٠٧١م التي إنهزم فيها البيزنطيون أمام المسلمين السلاجق ؛ ينظر : أبو الفدا: المختصر، ج4 ، ص24 ؛ المطوي: محمد العروس، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص٢٧.؛ عاشور، سعيد: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص١٨٤.

(٢) الذهبي: تاريخ، ج33 ، ص 207 ؛ أمين، محمد محمد: ازدهار الأوقاف، ص ٤، ٥.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١١٧، ١١٨.

(٤) ينظر : ابن كثير: البداية، ج 13 ص351

(٥) البصري، هلال: أحكام الوقف ص٩؛ أمين، محمد : الأوقاف والحياة الاجتماعية ،ص٣٢ ،٣٣.

إلى قلوب الناس فمثلاً السلطان برسباي[١]، قام بعمل الكثير من الأوقاف لخدمة الكثير من أعمال الخير كالتعليم، والمدارس، والمساجد، والزراعة، للوصول إلى أفضل مستوي في خدمة المشاريع الخيرية المقامة في أراضي السلطنة، وضمان بقاء هذه المشاريع وتطويرها من أجل القيام بخدماتها على أكمل وجه في خدمة جمهور الرعية، والفاضل[٢] من هذه الأموال تعود للواقف نفسه للاستفادة منها ولأولاده من بعده، ولقد أظهر المماليك منذ توليهم زمام أمور السلطة في زمن تحيط به الأخطار من كل جانب تميزاً ملحوظاً في وضع أنظمة دقيقة تلبي احتياجات ذلك العصر، وأظهروا براعة سياسية في إدارة البلاد التي تتبع نفودهم مما يوحي بوجود عقلية سياسية ناضجة وصاحبة حنكة سياسية؛ ما جعلهم يقودون دولة مستقرة مترامية الأطراف. [٣]

ومن الواضح بشكل جلي اهتمام سلاطين المماليك بحقوق الناس اهتمامهم بالقضاء حيث كان السلطان يعين قاضي القضاة بنفسه من المذهب الشافعي حيث كان اغلب سلاطين المماليك يتبعون المذهب الشافعي واغلبية رعايا الدولة من اتباع المذهب الشافعي فكان للمذهب الشافعي درجة اعلي من باقي المذاهب الفقهية الأخرى [٤]

---

(١) الأشرف سيف الدين برسباي (ت. ذي الحجة ٨٤١هـ/ مايو ١٤٣٧) هو السلطان الثاني والثلاثون في ترتيب سلاطين دولة المماليك. تولِى السلطان "برسباي" عرش دولة المماليك، ١ أبريل ١٤٢٢م= ٨ ربيع الآخر ٨٢٥هـ. ويُعدّ من عظام سلاطين الدولة المملوكية، وعلى يديه فُتحت قبرص؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج٣،ص ٢٥٥.

(٢) الفاضل: المبالغ التي تتبقي من ريع العقارات الموقوفة بعد الصرف على عمارة الوقف ودفع مرتبات أرباب الوظائف؛ ابن منظور: لسان العرب، ج١٩، ص٥٠

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ١٢٠.

(٤) المذهب الشافعي: بقيام السلطنة المملوكيَّة استمر المذهب الشافعي كمذهب لقاضي القضاة، ثم كان أهم تطوّر حدث في النظام القضائي على يد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣هـ الموافقة لسنة ١٢٦٥م، الذي قام بتحريم أي مذهب، عدا المذاهب الأربعة عند أهل السنَّة والجماعة (الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشافعيَّة، والحنبليَّة). ذلك عندما تقلَّد ابن بنت الأعز الشافعي منصب قاضي قضاة مصر سنة ١٢٦١م/٦٩٥هـ اضطربت الأحوال بسبب اختلاف المذاهب، مما اضطرَّ قاضي القضاة للتوقف كثيرًا في أمور تخالف مذهب الشافعي، وتوافق غيره من المذاهب، فأشار الأمير جمال الدين على السلطان الظاهر بيبرس بأن يولي من كل مذهب قاضيًا مستقلًّا يحكم بمقتضى مذهبه، فأجابه إلى ذلك عندما تمَّ اجتماع في دار العدل يوم الاثنين ٢٢ ذي الحجة سنة ٦٦٣هـ، واستقر رأي السلطان تعيين قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة، مع بقاء الرئاسة للشافعيَّة، وأصبحت لا تُقبل شهادة أحد، ولا يُرشَّح لوظائف القضاء أو الخِطابة أو الإمارة أو التدريس، إلّا إذا كان من أتباع أحد هذه المذاهب، وسنة ٦٦٤هـ الموافقة لسنة ١٢٦٦م، حذت دمشق حذو القاهرة وأصبح لكل مذهب قاضي قضاة، ثم أصبح في كل نيابة من نيابات الشام، أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة؛ ينظر : ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣. ص ٢٤٥ و٢٤٨؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ١٦١.

حيث يكون على درجة عالية من العلم والأخلاق والدراية بأمور البلاد، بالإضافة إلى قوة الشخصية وحسن الاستماع والحكمة في القول والتصرف والتمسك بمبادئ العدل والمساواة والحق، فيساعد المظلوم ويعين المحتاج ويوصل المقطوع حتى تستقر أحوال الرعية ويطمئن الناس على حقوقهم، ويؤدوا ما عليهم، فإن الحق أمانة والعدل واجب[1].

(١) الإمام الشافعي: هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المطلبي المكي.. وُلد سنة ١٥٠هـ /٧٦٧م، بغزة، ثم حمل إلى مكة ونشأ بها وقرأ القرآن ورحل إلى مالك في المدينة وعرض عليه الموطأ بعد أن حفظه، ثم رجع إلى مكة، ورحل إلى اليمن ثم إلى العراق ١٨٤هـ / ٨٠٠ م، ثم عاد إلى مكة ثلاث مرات، ثم رحل العراق إلى مصر واستقر بها حتى توفي سنة ٢٠٤هـ/٨٢٠ م .؛ أقبل على العلم والفقه فبرع فيه حتى صار إمام المذهب الشافعي الذي ينسب إلية؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٥.

## المبحث الثالث
## الدوافع الاقتصادية

حرص سلاطين المماليك على تسهيل التجارة وبذلوا في ذلك كافة السبل لتسهيل أمور التجارة وتشجعها، وذلك من خلال إقامة الجسور، وتعبيد الطرق، وإقامة قنوات المياه، ومراقبة الحالة الاقتصادية، ومراقبة الأسعار [١]، ومحاربة غلاء الأسعار، ووضع مراقبين وعيون تخبر السلاطين بذلك أولاً بأول، للحفاظ على ثبات الأسعار، واستقرار حالة السوق[٢]، واهتموا أيضاً بالزراعة وعملوا على إنجاحها بكافة السبل[٣]، وكان السلاطين يستمعون إلى شكاوى الناس والفلاحين باستمرار والنزول عند طلباتهم في تخفيض الأسعار، وتسهيل سبل التجارة، وقام بعض السلاطين بإرجاع أموال الناس، والتجار التي استولى عليها نوابهم، وعقابهم على أخذها بغير وجه، حق ونجد أن حالات من الضرب كان يتعرض لها النواب بحضرة السلطان لتعديهم على أموال العامة وتجارتهم وأملاكهم[٤]، وكان سلاطين المماليك يبعثون بكتبهم إلى ولاتهم، ونوابهم ينصحوهم ويحضوهم على السير بالرعية بالعدل، والرحمة[٥] ،ولقد تنوعت مهام الولاة في عهد دولة المماليك، فمن المهام الأمنية التي تمثلت على استتباب الأمن والحفاظ على النظام العام وإعطاء الناس حقوقهم وأمنتهم على تجارتهم، وأموالهم، وأرواحهم، وأنفسهم [٦]، وسهل القضاء تنفيذ المشاريع الاقتصادية ،والوصول بها إلى أفضل حال من خلال حل المشكلات المالية المتعلقة بالتجار مع الحكومة من جهة أخرى، وبين التجار والناس بسرعة، وعدالة، وكان مجلس القضاء عبارة عن صورة مصغرة من مجلس السلطان، الأمر الذي شجع التجار على إقامة مشاريع تجارية كبيرة، والنهوض بالتجارة والاقتصاد بشكل كبير، وتحصيل الأموال بشكل نزيه[٧]، حيث كان بعض السلاطين ينزل إلى الولايات متخفياً ليتفقد أمور الولاية ويسأل عن سير الولاة فيها لمحاسبتهم على أي تعدي على حقوق الناس، مثلما كان يفعل السلطان بيبرس (٦٥٨هـ-٦٧٦هـ/١٢٦٠م-١٢٧٧م) [٨] وحرصت الدولة على توثيق المعاملات والعقود بين الناس ووظفت شهوداً؛ لإثبات صحة هذه المعاملات من بيع، وشراء، وإيجار، وتنازل، والتأكد من صحة الخطوط وإعطاء حجة الحكم بصحة العقد، أو

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، صفحة ٣٤٢.
(٢) القلقشندي: صبحي الأعشى، ج١١، ص٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢-٤٣٥.
(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ٤٧١.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٣٠٧.
(٥) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ط٢،ص٢١؛ الأسدي: التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار،ص١٥٠.
(٦) أبو المحاسن: منتخبات من حوادث الدهور، ج٣، ص٧١٢.
(٧) المقريزي: السلوك، ج٢، ٤٧١ص؛ طورخان، إبراهيم على: النظم الإقطاعية ، ص٣٣٤.
(٨) المقريزي: سلوك، ج١،ص٥٠٥.

عدمه، ومراقبة سجلات الخراج[١]، ويحضر الشهود العدول جميع المعلومات المتعلقة بالأرض، والفلاحين في ولاياتهم [٢]، ثم يكسبونها الصفة الشرعية وشهادتهم لها عند القاضي في حال خرج أحد الولاة عن الطريق الصحيح في جمع الخراج[٣]، وإثبات قطع الأراضي في القرية إن كانت باقية أو أصابها الفيضان[٤]، وكافة الأمور التي تحتاج إلى شهود، وإثبات وتصرف لهم رواتب من بيت المال مقابل شهاداتهم على هذه العقود لحفظ حقوق الناس من الضياع، مع أن هؤلاء الشهود كان لهم أعمال أخرى يتكسبون منها [٥]، وعينت الدولة أيضاً حراساً لحماية الحقول، والحفاظ على الزرع[٦]، وتحديداً في الأوقات العصيبة، والمجاعات[٧] وحماية الحقول من السارقين، والمجرمين، وقطاع الطرق[٨]، ولقد شجعت الدولة المواطنين على امتلاك الأراضي حيث امتلك كثير من فئات الشعب والأمراء الكثير من الأراضي.[٩] لدرجة أن أهل الذمة[١٠] امتلكوا الأراضي الزراعية[١١].

وشجع المماليك الحرف اليدوية التي يعتمد عليها الفلاح لتوفير احتياجاته الأساسية، وبيع الفائض منها[١٢]، وشجعوا الصناعات الأولية مثل الصناعة القائمة على قصب السكر، والعسل

(١) الخراج في الشريعة الإسلامية نوع من الضريبة. تدفع على الأرض وتدفع سنوياً بمقدار معين من محاصيلهم الزراعية أو من أموالهم، وهذا المقدار يسمى خراجاً ؛ أبو عبيد: كتاب الأموال، ص٩٢– ٩٣؛ الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٣٩؛ أبو المحاسن: من حوادث الدهور، ج٣، ص ٦٩٠؛.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ٩٤٦

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٥٩٠.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٨٦.

(٥) النويري: نهاية الأرب، ج٨، ص٢٤٩.

(٦) المقريزي: السلوك، ج٤، ٤٣٠،٤٢٩.

(٧) المصدر نفسه: ج٤، ص٤٣١.

(٨) الأسدي: التيسير والاعتبار، ص٧٤.

(٩) السخاوي: التبر المسبوت، ص١٣٩.

(١٠) وهم الذين رضُوا بالعيش والاستقرار معنا في بلاد المسلمين، ورضوا بالشريعةِ والإسلام حاكِمًا وسيِّدًا، ومِن ثَمَّ دانوا لحُكمه على أن يَدْفعوا الجزيةَ كاملةً، ولا يتعرَّضوا لأحد من أهل الإسلام بسوءٍ أو إيذاء أو قتْل، أو التطاول ببناء الكنائس والمعابد في بلاد الإسلام، وإلا بطلت ذِمَّتُهم، وهؤلاء قد يُسمَّوْن في زماننا هذا بالمواطنين، وهؤلاء غالبهم اليوم يعيشون في البلادِ الإسلامية؛ ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج٣، ص١٢٥.

(١١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٣١؛الأدفوي: الطالع السعيد، ص٤٦٦.

(١٢) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٦٩٢.

الأسود، والحلويات[١]، وإنتشرت كذلك صناعة المنسوجات، نظرا لوجود الكتان بكميات كبيرة حيث كانت تعتمد عليه صناعة المنسوجات بشكل كبير[٢]، وشجع المماليك التبادل التجاري بين ولايات الدولة، ونظموا الأسواق بشكل كبير[٣]، وانتشرت الأسواق في كل أنحاء البلاد حسب التجمعات السكانية حيث يستطيع المواطن شراء كل شيء من السوق في أي وقت دون شراء ما يزيد عن حاجته لتوفر ما يلزمه في الأسواق[٤]، وشجع سلاطين الممالك التجارة بشكل كبير، وقاموا بتنشيط حركة التجارة مع أغلب الدول، والإمارات، والشعوب القائمة في ذلك الوقت، وحرصوا على سمعة بلادهم التجارية عند ملوك الفرنج وتجارهم، وكانت بينهم علاقات تجارية ضخمة وأهتموا بتقدير التجار واحترامهم وخاصة الكبار منهم، وذلك تقديراً لدورهم في نمو الحركة التجارية حتى وصلت تجارتهم إلى الهند والحبشة واليمن، ولم يقتصر تقدير الدولة المملوكية على رعاية التجار الذين كانوا من رعاياها، بل قامت سياستها الاقتصادية على استجلاب التجار، واستقدامهم، من كل الأمم والأجناس والإحسان إليهم، وعقد المماليك المعاهدات، والمراسيم، والأمانات التجارية مع الجمهوريات الإيطالية، والممالك الأوروبية المختلفة، وخاقانات التتار، وسلاطين الهند وأغلب الكينات السياسية المعاصرة لهم مانحة لهذه الدول امتيازات كبيرة، ما أدى إلى إقبال هذه الدول على المتاجرة مع المماليك وإرسال تجارها إلى أراضي الدولة المملوكية [٥].

وتعزيزاً لمكانة القناصل المعتمدين عند الدولة؛ فقد أعطيت لهم صلاحيات تجارية وقضائية فيما يتعلق بطائفته، وأمنت أفرادها وحاجياتهم وممتلكاتهم ما أدى إلى ازدهار التجارة بشكل كبير في دولة المماليك، الأمر الذي أدى إلى إعطاء العامة حقهم الاقتصادي في المشاركة في الحياة التجارية والصناعية، والزراعة، والحرف؛ ما أدى إلى ازدهار الاقتصاد في تلك الفترة وتلبية الحاجيات الاقتصادية، وإحداث حالة اطمئنان، واستقرار في البلاد، وتفرغ السلاطين لإدارة البلاد بشكل ميسر ومريح[٦].

(١) النابلسي: تاريخ الفيوم، ص٣١-٤٠.
(٢) النويري: نهاية الأرب، ج٨، ص٢٩٨.
(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٦، ص٢٦١.
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٨٢-٨٣.
(٥) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٤٦٢.
(٦) أبو المحاسن: النجوم، ج ٨، ص ١٤٩؛ ظوخان: إبراهيم علي: الإقطاع في الإسلام أصوله وتطوره، ج٦، ص٦٦.

## المبحث الرابع
## الدوافع الإنسانية

حرص المماليك على حماية ورعاية الإنسان داخل حدود دولتهم والحفاظ على حقوقه؛ فاستقبلوا العلماء، والفقهاء، والمفكرين، وبنوا المراكز العلمية، والمدارس، والمعاهد، والمكتبات في القاهرة، ودمشق، والقدس، وأغلب مدن مصر، والشام، بل وكان سلاطين المماليك يحضرون مجالس العلم، والتعليم بأنفسهم، وبعثوا مماليكهم، وأولادهم، ونساءهم للتعليم، والتفقه في الدين[١]، ولقد عمل المماليك على ترجمة ذلك إلى واقع ملموس، وظهر ذلك جلياً في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكانوا يؤدون الفرائض كاملة ويحجون البيت حيث كان يسابق السلاطين العلماء، وينافسوهم في مجالس العلم مثل السلطان قنصوه الغوري[٢]

واهتم المماليك بالعلماء، ووضعوهم في مكانة سامية بالمجتمع؛ لينالوا بذلك احترام السلاطين، والمجتمع المملوكي، واسترضاء العلماء تقديراً؛ لدورهم المميز في خدمة المجتمع، وتثبيت معالم الحكم[٣]، وكانت الحياة الدينية التي يعيشها المماليك تتركز غالباً حول العلماء فهم المتحدثون الرسميون في كافة الشؤون القانونية، والاجتماعية، والمدافعين عن حقوق الناس خاصة، وكان للفقهاء حضور جماهيري كبير[٤] واهتم المماليك بتقوية الجبهة الداخلية، والحفاظ على الإنسان من الرذائل، والغش، والفساد، ومخالفة الشرع، وذلك بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ومراقبة الآداب العامة وتطبيق الشرع في المجتمع، ومنع شرب الخمر، ومحاربة الفساد[٥]، ومنع

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٤؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٢١٢.

(٢) هو قنصوه بن عبد الله الشّركسي، السلطان الأشرف المشهور بالغَوْري، من مماليك السلطان الأشرف قايت باي (٨٧٢ – ٩٠١هـ) أعتقه وولاه عددًا من الأعمال، ثم جعله سنة (٨٨٦هـ- ١٤٨١م) كاشفًا (موظف لمراقبة الأطيان – الأراضي الزراعية وجمع الضرائب من أصحابها) للوجه القبلي، وظل يتقلب في المناصب حتى تولى الوزارة سنة (٩٠٦هـ – ١٥٠١م) وفي أيام طومان باي، وعندما زاد الاضطراب، أجمع القواد والأعيان على تولية الغوري لما يبدو عليه من دلائل الشَّجاعة والحزم والمقدرة برغم ممانعته، وكانت أيامه أيام استقرار وعمران مهتمًّا بالعلم والفن والأدب، وقد عاش في عصره علماء كبار كجلال الدّين السّيوطي والسخاوي والقسطلاني وزكريا الانصاري وفخري الدّين عثمان ، ونور الدّين الأشموني ومحمد بن النَّار الدّمياطي وابن إياس الحنفي، كذلك عرفت مصر في عهده عددًا لا بأس به من المهندسين والأطباء والمشاهير والصُّناع، وكان مهتمًّا بأنشأء الأبراج والمعامل وسفن الأسطول وقد أقام سلطانا خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يومًا، ينظر ؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٨، ص١١٣.

(٣) لبيدوس: مدن الشام، ص١٧٣؛علي: القدس، ص١٧٣.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٥٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٣، ص١٠٨.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٢، ص٥٩.

الاحتكار، والتضييق على الفقراء، ومنع اللعب بالموازين، ورفع الأسعار[١]، وكانت رغبة المماليك في التقرب إلى الشعب من الأمور المهمة لدعم النواحي الإنسانية، لذلك حرصوا على التقرب للناس بكافة أطيافهم فأقاموا المساجد للعبادة، ولأهل الفقه والمدارس لطلاب العلم، والأربطة، والزوايا للفقراء، والمحتاجين، والزهاد[٢]، وهذا قمة الاهتمام بإنسانية الإنسان، وأسهم السلطان المنصور قلاوون[٣] في كثير من أعمال البر في الشام حيث جهاده العظيم، وتحريره للقلاع، والمدن الشامية التي كانت بيد الصليبيين، وإعماره للمشافي، والمساجد، وغيرها من المؤسسات، وإبطاله لكثير من العادات السيئة، والمغارم التي لحقت بالمواطن من القوانين الظالمة، والتي تخدش إنسانية المواطن[٤]، وانفق سلاطين المماليك الأموال لخدمة الإنسان، وضمان حقوقه، وذلك ببناء المساجد بكثرة لقناعتهم بأهمية المسجد، ودوره في صقل الإنسان، وتأسيسه على المنهج القويم[٥]، وبنى المماليك مكاتب السبيل لأيتام المسلمين، وحرصوا على الإشراف عليهم بأنفسهم من أجل ضمان تربية كريمة لهم، وصالحة كسباً للأجر من الله[٦]، وأدرك سلاطين المماليك أن من أهم الدوافع الإنسانية أنشاء العديد من المؤسسات، وتوفير مصادر دخل لها؛ لتحفظ الأمة من الإنحراف

(١)القلقشندي: صبح الأعشى: ج١٢، ص٦٥.

(٢) شافع بن علي : الفضل المأثور، ص١٧١.

(٣) السلطان سيف الدين قلاوون أحد المماليك البحرية، وأصله من قبيلة أوغلي القوقازية، جلب صغيرًا لبلاد الشام، واشتراه الأمير علاء الدين العادلي بألف دينار، فعُرف قلاوون بالألفي، ولما توفي الأمير علاء الدين إنتقل إلى خدمة الملك الصالح أيوب، ثم أهّلته مواهبه وملكاته كي يبرز على الساحة في الفترة التي خرجت فيها دولة المماليك البحرية إلى الوجود، وقد زامل قلاوون الظاهر بيبرس البندقداري في حرب الصليبيين في المنصورة وفارسكور أثناء الحملة الصليبية السابعة، كما رافق بيبرس في الهرب إلى الشام بعد مقتل أستاذهم فارس الدين أقطاي أيام عز الدين أيبك، ثم عاد واشترك في قتال المغول في عين جالوت، ولما تولى السلطان الظاهر بيبرس سلطنة المماليك صار قلاوون أكبر أمرائه، فقد أولاه ثقته؛ لرجاحة عقله وشجاعته، وتصاهرا، حيث تزوج بركة خان بن السلطان بيبرس من ابنة قلاوون؛ تأكيدًا على روح المحبة والصداقة بينهما ولما ساءت سلطنة بركة خان وفشل في القيام بأعباء الحكم لخفته ورعونته وسوء تصرفه أجبره الأمراء على خلع نفسه من الحكم، وكان لقلاوون يد ظاهرة في هذا الخلع، وأقيم مقامه أخوه بدر الدين سلامش، ولقب الملك العادل، وعمره سبع سنين، وجعل أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي، وتطلع إلى الحكم وهو به جدير، لكنه انتظر الفرصة المناسبة ليثب على الحكم دون أن ينازعه أحد، فلما وافته الفرصة اقتنصها وعزل السلطان الصغير، وتولى هو الحكم في (رجب ٦٧٨هـ= نوفمبر ١٢٧٩م) وبايعه الأمراء وأرباب الدولة؛ ليكون هو سابع سلاطين الدولة المملوكية، وتلقب بالملك المنصور؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢، ص ٣٨٦.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٣٦٣.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٠٩؛ ابن خلدون: مقدمة، ص٢١٩-٢٢٠، ص٣٤٩- ٣٥٠.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٩٣؛ أمين: الأوقاف، ص٢٤٢-٢٦٣.

وتصحيح العقائد من التيارات الفكرية المنحرفة، حيث كان عصرهم تكثر فيه المحن؛ لذلك أنشأوا جيلاً متسلحاً بالإيمان، والجهاد[١]، وأدى اهتمام المماليك بالعلم، والأدب إلى نهضة علمية، وعمرانية ضخمة في المجتمع [٢]، وكان الوازع الديني المحرك الأساس لسلاطين المماليك، وذلك بإنفاذ أوامر الشرع الحنيف، والعمل به وتزويد مؤسساته بالأموال، والعمران فقد قام العادل كتبغا[٣] (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) بإعمار قبة الصخرة في المسجد الأقصى، وأوقف على المسجد الأقصى حوانيت، وضياع[٤]، واهتم الناصر محمد[٥]، ٦٩٢هـ/١٢٩٣ بالحرم المكي، وقام بكنسه بنفسه ودخل المدينة ليلاً ماشياً وحافياً[٦]، وقام بمسامحة أهل الشام من جميع الضرائب؛ وذلك تكريماً لهم لجهادهم الصليبين، حيث كانت الدولة في أشد الحاجة إلى تلك الضرائب[٧].

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٣٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٠٤.

(٢) فرغلى: الحركة، ص٦١.

(٣) الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصورى التركى المغلى (ولد ح ١٢٤٥ – توفى بحماة عام ١٣٠٢). عاشر سلاطين الدولة المملوكية، تولى الحكم ١٢٩٤ – ١٢٩٦. كان مغولي الأصل، كان كتبغا جندياً في جيش مغول فارس الخانات) عندما أخذه الجيش المملوكى أسيراً أثناء معركة حمص الأولى في ديسمبر عام ١٢٦٠ ) فاشتراه الأمير قلاوون الألفي وجعله من مماليكه، ثم لما صار سلطاناً عتقه وأنعم عليه بالامارة فأصبح أميراً بعد وفاة السلطان قلاوون قبض ابنه السلطان الأشرف خليل عليه وأودعه السجن، ثم أفرج عنه، ولما أغتيل السلطان خليل في عام ١٢٩٣م. ونصب أخيه الصغير الناصر محمد سلطاناً على البلاد تقلد كتبغا منصب نائب السلطنة ومدبر الدولة؛ ؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة؛ المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٣٨٨؛ المقريزى: السلوك، ٢ج، ص٢١٨ ،٢٢٢، ٢٤٩.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٢٧.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٤٥٠.

(٦) ناصر الدين محمد بن قلاوون، (ولد بالقاهرة في ٦٨٤ هـ/١٢٨٥ م– توفي بالقاهرة في ٧٤١ هـ/١٣٤١م). أصغر أبناء السلطان المنصور قلاوون، والأخ الأصغر للسلطان الأشرف خليل. ولد بقلعة الجبل بالقاهرة بعد اغتيال السلطان الأشرف خليل في ديسمبر ١٢٩٣ م، اتفق الأمراء على تنصيب أخيه الصغير ناصر الدين محمد، تاسع سلاطين المماليك البحرية. لقب بأبي المعالى وبأبي الفتح، جلس على عرش السلطنة ثلاث مرات، من ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م إلى ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤م، ومن ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩م؛ أبو المعالي: الوفيات ج١ ص٣٨٨،ص ٢٢.

(٧) القلقشندي: صبحي الأعشى، ج٥، ص٣٤٢.

# الفصل الثاني
# الحقوق الاجتماعية في دولة المماليك

**ويشتمل على أربعة مباحث:**

**المبحث الأول: الحق في اقامة العدل.**

**المبحث الثاني: الحق في الرعاية الصحية والتكافل والتعليم.**

**المبحث الثالث: الحق في الإقامة والتنقل.**

**المبحث الرابع: حقوق المرأة والعبيد والموالي.**

# المبحث الأول
# إقامة العدل

حرص سلاطين المماليك لتثبيت حكمهم، وتقوية سلطانهم عن طريق إقامة العدل بين الرعية؛ وذلك لضمان استقرار الأوضاع، وتحقيق النتائج المرجوة في إدارة البلاد، حيث بدأ سلاطين المماليك بعمل مجالس شورى يتم اتخاذ القرارات فيها(١).

ويعد نظام الشورى من أهم مقومات الحكم العادل، والوصول إلى القرار بشكل شوري جماعي ما يضمن عدم التفرد بالحكم(٢)، وكان سلاطين المماليك يحرصون باستمرار على النزول إلى الولايات، والاستماع إلى مشكلات الناس، وحل الخلافات(٣)، وما يؤكد على اهتمام سلاطين المماليك بإقامة العدل، والاهتمام بأمور الرعية حرصهم على تأسيس جهاز قضاء قوي قادر على إرجاع الحقوق، ونصرة المظلوم، وردع الظالم، ويحاسب القوي كما يحاسب الضعيف، وقيام سلاطين المماليك بناءً على ذلك بتعيين قضاة للولايات حسب مذهب أهل الولاية، فبعض الولايات تتبع للمذهب الشافعي، والبعض الآخر يتبع المذهب الحنفي، وبعضهم حنبلي المذهب، وآخر مالكي المذهب(٤).

وقد حرص سلاطين المماليك على حفظ هذه التوازنات فقد قام السلطان الظاهر بيبرس بوضع أربع قضاة كل قاضٍ حسب مذهبه(٥) وقد وضع المماليك نظاماً إدارياً خاصاً بالقضاء يأتي على رأس الجهاز القضائي منصب قاضي القضاة حيث كان لكل مذهب قاضي قضاة(٦) يختص بالأحكام الشرعية، وقضاياها، والأوامر الشرعية، وفض الخصومات، وبإمكانه تعين بعض النواب له، وهي تعد من أعلى المراتب في الدولة(٧)، فلا يتم تنصيبه إلا بقرار من السلطان شخصيا بمرسوم رسمي(٨).

وكان سلاطين المماليك شديدي الحرص في اختيار الشخص الذي يقوم على منصب قاضي القضاة، ويجب توافر شروط تجعله مؤهلاً؛ ليشغل هذا المنصب، لديه فهم عميق بالأحكام،

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٦٦.
(٢) الحجي، حياة ناصر: صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، ص٦٨.
(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٦٦؛ الأبدوس، إيرا: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص٣٧.
(٤) القلقشندي: صبحي الأعشى، ج١، ص٤١٩.
(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٦٦-١٦٥.
(٦) القلقشندي :صبحي الأعشى، ج٤، ص٣٤-٣٦.
(٧) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٤-٣٥.
(٨) المصدر نفسه، ج١١، ص١٧٥.

والقضايا الفقهية، وصاحب أخلاق عالية، ونفس عفيفة لا تقبل الهدايا، وأن يكون صاحب نظرة ثاقبة، وصاحب عقل راجح ينطلق حكمه منطلق من قواعد الدين الإسلامي، ويكون جاهراً بالحق رافضاً للباطل، ولا يخشى إلا الله عز وجل[١] فاهماً باللغة، ومدلولات ألفاظها، ويعرف لغة العامة، بحيث يكون قادراً على التعاون معهم.[٢]

وكان للقاضي مساعدون؛ لمساعدته في أمور القضاء منهم حاجب القاضي[٣] ، ومن اختصاصه رفع الحاجات، والأمور للقاضي[٤]، وكان للقاضي أمناء يتحفظون على أموال الأيتام، والغائبين، وينفذون أوامر القاضي بصرف زكاة اليتيم على من يستحقها بعد اكتمال الحول من الأيتام[٥]، وكان للقضاة وكلاء؛ لاستخلاص حقوق الناس بحيث يقومون بإبراز الحق، ومعرفة القضية بكامل تفاصيلها، وتحديد صاحب الحق، وإيقاع العقوبة على من يستحق، ويتوجب على الوكيل أن يبرز الحق، ولو كان هو الخصم فمهمته هي إحقاق الحق، وإلغاء الباطل، كما يجب عليه أن يكون حريصاً، وحذراً في استماعه للشهود ليميز الحق من الباطل، والصدق من الزور، ويعرف هدف الشاهد من الشهادة حتى لا تكون له مصلحة من وراء شهادته، ويتأكد من عمليات البيع والمبادلات التجارية، والشراء، وخاصة بأموال الأرامل، والأيتام، وإعطاء كل ذي حق حقه، ولا بد لقاضي القضاة أن يكون عالماً بحقوقه مؤدياً لواجباته[٦].

ولم يكتفِ سلاطين المماليك بهذا القدر للحفاظ على العدل، وحقوق الناس، فعلى سبيل المثال: كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون يحرص على حضور مجالس القضاء، ويداوم في

(١) السبكي، معيد النعم، ص٥٥-٦٠.
(٢) المصدر نفسه : ص٦٠-٦١.
(٣) حاجب القاضي: هي عبارة عن وظيفة في العهد المملوكي يقوم بموجبها بإدخال الناس على القاضي حسب دورهم ولا يسمح لهم بمخالفة النظم المتبعة داخل مجلس القضاء؛ القلقشندي: صبحي الأعشى، ج٩، ص١٥٠؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣٠٤.
(٤) ابن حبيب، تذكرة، ص١٠١؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص٣٧٦.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣٠٤.
(٦) القلقشندي: صبحي الأعشى، ج١١، ص١٩٦-١٩٨.

دار العدل[١] كل يوم اثنين من كل اسبوع، وينظر في مظالم الرعية، وكان يداوم أيضاً في كل يوم خميس على مدار العام باستثناء شهر رمضان [٢]

ولم يقتصر منصب القضاء على أهل البلد دون غيرهم من الوافدين له، بشرط أن تكون متوفرة فيهم المؤهلات، والقدرات لتولي القضاء، وشهد العصر المملوكي توسعاً كبيراً في هذا المجال، وكان له السبق في تطوير القضاء، وتطوير مبدأ العدالة، والنزاهة، حيث أعُطيٍ للقاضي صلاحيات بفصل موظفي الدولة الذين تثبت عليهم إدانات[٣] ومن الواضح أن وصول القضاء إلى هذه المرتبة الكبيرة، والنظر في القضايا المتنازع عليها إنما يدل على حرص المماليك، وسلاطينهم على استقلال القضاء، وإظهاره بمظهر لائق[٤] أما مقر رئيس القضاء فكان في المدارس، حيث يقوم القاضي بواجباته هناك، والنظر في دعاوي المتخاصمين، ومحاكمة المتهمين، فكان مقر القاضي في الشام المدرسة العادلية[٥]، للقاضي الشافعي، والمدرسة الجوزية[٦] مقر لعمل القاضي الحنبلي، والمدرسة الصمصامية[٧] مقر لعمل القاضي الحنفي[٨]، وتؤكد شهادة المؤرج الأجنبي السير موير في انصاف دولة المماليك، في مجال كفالتها لحقوق أهل الذمة، وحقوق أفراد الأقليات

(١) دار العدل: قيام السلطنة المملوكيَّة استمر المذهب الشافعي كمذهب لقاضي القضاة، ثم كان أهم تطوّر حدث في النظام القضائي على يد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣هـ الموافقة لسنة ١٢٦٥م، الذي قام بتحريم أي مذهب، عدا المذاهب الأربعة عند أهل السنَّة والجماعة (الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشافعيَّة، والحنبليَّة). ذلك إنه عندما تقلَّد ابن بنت الأعز الشافعي منصب قاضي قضاة مصر سنة ١٢٦١م، اضطربت الأحوال بسبب اختلاف المذاهب مما اضطرَّ قاضي القضاة للتوقف كثيرًا في أمور تخالف مذهب الشافعي، وتوافق غيره من المذاهب. فأشار الأمير جمال الدين أيد غدي العزيزي على السلطان الظاهر بيبرس بإن يولي من كل مذهب قاضيًا مستقلًّا يحكم بمقتضى مذهبه، فأجابه إلى ذلك عندما تمَّ اجتماع في دار العدل يوم الإثنين ٢٢ ذي الحجة سنة ٦٦٣هـ، حيث اقتضى رأي السلطان تعيين قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة، مع بقاء الرئاسة للشافعيَّة؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣ ص ٢٤٥-٢٤٨.

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص٦١؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص١٠٣.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشي ،ج ٢، ص٣٤.

(٤) ابن الفرات: تاريخ الدولة والملوك، ج١، ص١٧.

(٥) المدرسة العادلية: تقع هذه المدرسة داخل دمش شمإلى الجامع الأموي، أنشأها نور الدين محمود بن زنكي سنة (٥٦٨هـ) ثم بنا بعضها الملك العادل سيف الدين الأيوبي سنة(٦١٢هـ) ثم أتمها ابنه الملك المعظم عيسى سنة(٦٢٠هـ). عبد القادر: الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١٤٩.

(٦) المدرسة الجوزية: مدرسة من مدارس الحنابلة موجودة بسوق القمح بالقرب من الجامع أنشأئها محيي الدين بن الشيخ جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي سنة(٦٢٣هـ) وتعتبر من أفضل المدارس؛ المصدر نفسة: ج١، ص٢٩٧.

(٧) المدرسة الصمصامية: مدرسة مالكية تقع في الشام كان ابن تيمية يَحضر دروسه فيها؛ المصدر نفسه: ج١، ص٢٨٧.

(٨) سيادة، الحسبة، ص٦٤.

داخل حدود دولة المماليك، حيث اورد أنه لم يكن العدل يقتصر على الرعايا المسلمين فقط بل كان يطال رعايا الدولة من أهل الذمة، وغير المسلمين حيث كان السلاطين يحرصون على علاقات طيبة مع الحكومات المجاورة من المغول، والهند، والمدن الصليبية حيث كان يعامل السلطان الناصر محمد رعايا النصارى برفق؛ فكان يحفظ حقوقهم مقابل معاملة المسلمين في تلك الدول بالمعاملة نفسها، وكان الناصر يعمل كل ما بوسعه لإنصاف أهل الذمة، وإقامة العدل فيهم، والحفاظ على حقوقهم، وأملاكهم حيث كان يعاقب من يعتدي عليهم بدون أي وجه حق؛ وذلك لأنهم مستأمنون في الدولة الإسلامية، وكان الناصر ينتصر لحقهم، ولا يظلمهم كونهم غير مسلمين بل يراعي فيهم الذمة، ويحميهم، ويؤمنهم في ديار المسلمين، وكان لا يتردد في إيقاع العقاب على من تثبت إدانته من المسلمين بالإعتداء على أهل الذمة [١]

ومن الروايات التي تدلل على ذلك، عندما استعار النصارى من أحد المساجد بساطاً ومصابيح، فقام أحد المسلمين وهاجمهم، وهم يتعبدون وخرب كنيستهم، فلما علم السلطان بذلك غضب جداً على هذا الشخص، وعاقبه على ذلك؛ لأنه اعتدى عليهم بدون أي وجه حق[٢].

وكان سلاطين المماليك حريصين على حل القضايا التي يعجز عن حلها القضاء بحيث يكون معهم قاضي القضاة، ووكيل بيت المال[٣]، وناظر الحسبة[٤]، وكاتب السر[٥]، وناظر الجيش[٦]، وجماعة الموقعين[١] بحيث يكون الجميع موجود لحل هذه الإشكاليات التي لا تحل إلا

(١) موير، السير وليام: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص٩٣-٩٤.
(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ص٢٠٦؛ موير، السير وليام: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص٩٤-٩٥.
(٣) ووكيل بيت المال: اسم يطلق على موظف الذي من حقه ألا يبيع من أملاك بيت المال ما دامت المصلحة في بقائه ولا يبيع إلا عند الحاجة؛ القلقشندي: صبحى الأعشى، ج١١، ص٩٧.
(٤) وناظر الحسبة أو المحتسب: هو موظف في الدولة مهمته النظر في القوت وكشف غمة المسلمين في ما تدعو إلية حاجته والاحتراز في المشروب، فيراقب عدم بيع الخمور في الأسواق وعدم بيع المحرم والمضر من الأطعمة الفاسدة ويراقب الأسعار ويحافظ على السعر الأصلي للمواد الغذائية في الأسواق ومن يتلاعب في هذه الأمور يعرض نفسه للعقاب ويلاحظ أنواع الغش وأنواع البضائع المعروضة وصحة الأوزان وقانونية المبادلات التجارية ويراقب حالة السوق بشكل عام. السبكي: معيد النعم، ص٦٥؛ القلقشندي: صبحي الأعشى، ج١١، ص٩٦.
(٥) كاتب السر: هو موظف في الدولة وظيفته التوقيع عن السلطان والاطلاع على أسراره الذي يكاتب بها وهو من يصدر كتب الولايات والعزل، ومن واجبه عرض القصص على السلطان وشرحها له ليضع السلطان فيها رأيه ويحكم فيها بالعدل؛ القلقشندي :صبحي الأعشى، ج٤، ص٣٠.
(٦) ناظر الجيش: موظف في الدولة ينظر في حال الجند ويجند من يرى فيه المصلحة والقدرة والكفاءة، وعليه توزيع التجريدات على حسب مصلحة المسلمين؛ المصدر نفسه : ج٤، ص٣٠.

بوجود السلطان نفسه؛ وذلك لتحقيق العدالة، وأخذ رأي جميع الأجهزة المسئولة في الدولة في القضية المتعسرة، وكانت العلاقة بين السلاطين، والقضاة علاقة احترام متبادلة بحيث لا يتعدى طرف على صلاحيات الطرف الآخر(٢)، ولم يكتفِ سلاطين المماليك بإرساء العدل بين أفراد الرعية بل كانوا يصفحوا عن المتمردين، وعمل السلطان الظاهر بيبرس على ترسيخ العدل، من خلال وضع ولاة على دراية بأهل الولاية وأعرفهم بما يصلح بلده وولايته، ففعل ذلك مع أمراء المسلمين حين جاءوه من فجاج الشام وفعل ذلك أيضاً مع أمراء الفرنجة حين التمسوا المثول بين يديه، وترتب على ذلك إن أمنت السبل، وكثرت الأجلاب، وكثرت التجارة، وسلك السفار واندفعت عن أهل السواحل المضار وليس كالعدل أساس للرخاء، والأمن، والاستقرار(٣)

و من مظاهر عدل السلطان الناصر محمد ،استتباب الأمن والسلام في بلاده فلا يعتدي أحد، على أحد ولا يظلم أحد أحداً لأنهم على علم بعدل السلطان وأن الظالم سوف يعاقب ويقتص منه(٤)، وشمل أيضاً عدل الناصر وإحسانه الجميع المحسن والمسيء، فلم يكن يقبض بقبضة من حديد بل كان يحاول استخدام اللين في بعض المواقف، فعندما خرج الأمراء في اليمن عن طوع حاكمهم أرسل السلطان تجريدة لمساعدته وإعادة الأمن وإعادة أمرائه لحكمه، وأرسل معهم كتاباً يطلب فيه من حاكم اليمن معاملة أمرائه بالعدل والإحسان والعفو عنهم،" فإن العفو من شيم الملوك"(٥)، مع أن سلاطين المماليك كانوا حريصين على العدل وإنصاف الرعية وإصلاح القضاء، كان من الواضح أن مستوى اداء الدولة في كفالتها لحق العدل وحمايته بجهاز القضاء لم يستمر بنفس المستوى، فقد استغل بعض سلاطين المماليك وبعض الأمراء تعدد منصب قاضي القضاة في آخر عصرهم، كي يتدخلوا في شؤون القضاء واحكام الأمر، من خلال وضع قضاة يميلون لهم من كل مذهب وتعزيز الخلاف بين القضاة، ما أدى الى إنحطاط منزلة القضاة وأصبحوا عجينة وأداة في أيدي ولاة الأمر، لا يخالفونهم إلا فيما نظر، واذا خالف القاضي أمر السلطان أو أحد أمرائهم يتعرض للضرب والإهانة ويلزم بمال كثير، وفي بعض الأحيان يُحبس وإن لم ينصاع لرغباتهم يعزل عن القضاء، والأمثلة على ذلك كثيرة، مثال القاضي محمد بن عبدالله بن سعد بن

---

(١) جماعة الموقعين: موظفون في الدولة مهمتهم كتابة الرسائل والمكاتبات السلطانية والرفق بالرعية فيما يكتبونه، وعليه إن يكون حسن العبارة مفهوم الكلمات بسيط التعبير. السبكي، معيد النعم، ص٣١.

(٢) ينظر: ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ص٢٠٨ ؛ الحجي، الحياة ناصر: صور من الحضارة ، ص٧٨-٨١.

(٣) ينظر: الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص ١٠٩؛ شلبي، محمود: حياة الملك الظاهر بيبرس، ص١٤٦-١٤٧.

(٤) الحلي صفي الدين: ديوان، ص١٠٦.

(٥) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٤٢٩-٤٣٠.

الديري(توفى سنة ٨٢٧هـ-١٤٢٣م) [١] عندما حكمهم على وكيل السلطان ورفض شفاعة السلطان فعزله السلطان ومنعه من الفتوى[٢]، ومن الواضح إن مثل هذه الأعمال خارجة عن تعاليم الإسلام وأسسه الثابتة التي تحول دون تدخل الحكام في القضاء لحسم القضية لصالح جهة ما، وهذا منافٍ للعدل وهذا ما ندد به الإسلام فلا يحق لأي سلطان أن يمنع القاضي من الحكم بالعدل، وقد نجم عن انتهاك استقلال القضاة وتدخل الحاكم فيه أن ضعف القضاة وأصبحوا لا يحظون بتقدير الناس واحترامهم لكثرة ظلمهم للناس نتيجة خضوعهم لأهواء الأمراء وقبولهم الرشوة على الأحكام التي يصدرونها، ومن الواضح أن فساد بعض القضاة سببه الاختيار الخاطئ لسلاطين المماليك وكذلك تدخل الفقهاء عند السلطان ليعينوا في هذه المناصب، الأمر الذي جعل وصول بعض القضاة إلى المنصب وهم لا يستحقون ذلك ما أدى إلا ضرب القضاء[٣] والواقع أنه كلما أنتظم القضاء وابتعد السلاطين عنه كان قضاءً عادلاً جيداً يسعى لإحقاق الحق وإبطال الباطل ويكون على رأسه قضاة أمناء عارفون بأمور دينهم وملمين بأمور دنياهم فنصل إلى قضاء عادل، ولكن إذا تدخلت أهواء وميول السلاطين والرشوة والجاه والسلطان في اختيار القضاة فإننا نتجه إلى ظلمٍ واعتداء على حقوق الرعية بكافة جوانبها، الأمر الذي يؤدي إلى امتهان القضاء في عيون الناس واحتقارهم له مما يفقده قوته[٤].

(١) محمد بن عبد الله بن سعد الديري الشيخ الشافعي الزاهد له الكثير من المصنفات توفي (٨٢٧هـ-١٤٢٣م)؛ الداودي : طبقات المفسرين ،ج١،ص٢٥٦.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ص٨٩.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص١٦٥.

(٤) ينظر: المقريزي: السلوك، ج٢، ص١٢.

# المبحث الثاني
# الحق في الرعاية الصحية والتكافل والتعليم

## الرعاية الصحية:

اهتم سلاطين المماليك بالصحة وحق المواطن بالرعاية الصحية؛ لذلك اهتموا بالأطباء وأنزلوهم أحسن المنازل، وحازوا على ثقة واهتمام السلاطين، وكانوا يستشيرونهم في كل الأمور الصحية الخاصة بهم وبأفراد أسرهم(١)، وكان للأطباء في دولة المماليك مراتب عظيمة بسبب أهمية عملهم ودورهم في خدمة ورعاية المواطن، ما جعل السلاطين يقربون الأطباء منهم(٢)، وقد وصل الطب في العصر المملوكي الى مراحل متقدمة جداً وكان الأطباء في العصر المملوكي يجيدون التخصص وتعمقوا في الطب (٣)، فمنهم المتخصصون في علاج الأمراض الباطنية(٤) يشخصون المرض ويصفون العلاج المناسب لهُ من أغذية وأشربة وحقن(٥)، ومنهم الجراحون، أطباء الجراحة حيث كانوا يقومون بعمليات جراحية مختلفة ثم يتابعون المريض بالعلاج والمراهم والمساحيق(٦) (٧) ، وقد اهتم المماليك بطب العيون وكيفية تشريح العين وعلاجها وعملوا كثير من التجارب على عيون الحيوانات(٨)، وأقبل العلماء على دارسة ذلك العلم بشكل كبير؛ وذلك لاهتمام الدولة بهذا التخصص، وتشجيع السلاطين للأطباء بالمنح والعطايا وتقريبهم خصوصاً أن دولة المماليك كانت بحاجة ماسة للأطباء لمكافحة الأمراض التي تظهر أحياناً بسبب تقلبات المناخ، بل كانت تعمل الدولة جاهدة، لتوفير الحق في الرعاية والعلاج الصحي لجميع مواطني الدولة، غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم، الطفل والشيخ، الرجل والمرآة (٩).

---

(١) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٦٩.

(٢) العمري، مسالك، ج٩، ص٦١٩.

(٣) ابن أبي أصبيعة: عيون، ص٦٣٧.

(٤) الأسيوطي، جواهر، ص٢٧٨.

(٥) المصدر نفسه: ص٢٧٨.

(٦) المراهم والمساحيق، طلاء لين يطلى به الجرح، أو يدلك به الجلد، أو تكحل به العين؛ ابن منظور :لسان العرب، ج١٠، ص١٥٣.

(٧) خليفة، كشف، ج١، ص٥٨١.

(٨) العمري، تعريف، ص١٣٩، أمين، الأوقاف، ص١٧٧.

(٩) ابن النفيس: المهذب،ج١، ص١٤.

ولقد اهتم السلاطين المماليك بالمرضى النفسيين واصحاب الإعاقات العقلية وكان لهم أقسام خاصة داخل البيمارستان[١] [٢]، وعامل الأطباء في العصر المملوكي المريض النفسي على أنه إنسان ولكنه ناقص الأهلية، في حين كان ينظر إلية في أوروبا على أنه مجرم يعامل معاملة المجرمين ويُسجن[٣] و[٤]أنفقت دولة المماليك أموال كبيرة على الرعاية الصحية، وبنت المستشفيات وأماكن الرعاية الصحية وأوقفت عليها أوقافاً كثيرة لتغطي نفقاتها[٤]، ولقد ذكر المقريزي أن السلطان قلاوون أوقف بديار مصر وغيرها ما يعادل ألف درهم سنوياً على الرعاية الصحية[٥]

وفي وصف أبي المحاسن البيمارستان المنصوري[٦] "لا نعلم في الإسلام وقفاً على وجه البر أعظم منه ولا أكثر مصروفاً ولا أحسن شرطاً"[٧]، وكانت الأوقاف التى أوقفها السلطان قلاوون على البيمارستان ضخمة وكان يستقبل البيمارستان المرضى من كل فئات المجتمع، حيث كانت تلك الأوقاف تدر ريعاً سنوياً كبيراً ما سهل للبيمارستان من أداء مهامه، وأوقفت كذلك الحوانيت

(١) بيمارستان: هي كلمة تعني مستشفى أصلها فارسي ومعناها "محل المريض" واستخدمت في اللغة العربية كاسم لأول مستشفى في الإسلام. وكانت البيمارستانات مستشفيات عامة تعالج فيها الأمراض الباطنية والرمدية والعقلية وتمارس فيها العمليات الجراحية، ويعتبر البيمارستان هو الأساس الحقيقي للمستشفيات المعاصرة، أول بيمارستان كان في مدينة جندي سابور خلال عصر الدولة الساسانية بإيران. وأنشأ الخليفة الوليد بن عبد الملك في عصر الدولة الأموية أول بيمارستان في دمشق عام ٧٠٦ م، ٩٠ هـ، وهو أول بيمارستان في تاريخ الإسلام، وأجرى الأرزاق للمرضى وأمر بعلاج وحجز المجذومين لكي لا يخرجوا وقدم المعونة والعلاج بالمجان، وأحضر الأطباء والمعالجين وأجزل لهم العطاء.

من أشهر المستشفيات في البلاد الإسلامية هو البيمارستان النوري الذي أنشأه نور الدين زنكي حيث عمل به مشاهير العلاج والأطباء وكانت في البيمارستان النوري أقسام عديدة لمختلف إنواع الأمراض والحالات وعيادة خاصة أو (صيدلية) تقدم الأدوية والعلاج للمرضى. ابن أبي أصيبعة: عيون الإنباء في طبقات الأطباء، ص ٥٦٠.

(٢) ابن حبيب: تذكرة، ج١، ص٣٦٦.

(٣) باشا: التراث، ص١٨٢.

(٤) ابن حبيب: تذكرة، ج١، ٣٦٦.

(٥) المقريزي:المواعظ والاعتبار ، م٤، ص٦٩٦.

(٦) بيمارستان المنصوري في القاهرة كان أعظم بيمارستان وكلية طبية في تاريخ مصر خلال العصور الوسطى، فقد كلف السلطان المملوكي قلاوون العالم والطبيب ابن النفيس بمهمة أنشأء البيمارستإن المنصوري (٦٨٠هـ.١٢٨١م) وعينه رئيساً لهذا البيمارستان؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ص٤٢٠.

المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج١،ص١٥٥.

(٧) المورد، م٢، ص٣٩.

والفنادق والضياع وأنفق ريعها على البيمارستان[١]، والجدير بالذكر أن الدولة المملوكية أوقفت للبيمارستان أوقافاً كثيرة؛ وذلك لإفادة الناس كافة، وجعلها سلاطين المماليك صدقة جارية وأوقافاً خيرية [٢]، وقد خصص المماليك في الدولة مجموعة من المؤسسات هدفها خدمة أهل الولايات التي تحت حكمهم في مصر والشام للنواحي الصحية والطبية، وقد كان لهذه المؤسسات الطبية الأثر الكبير في تخريج العديد من الأطباء الذين بدورهم عالجوا الناس من الأمراض، وفي إطار تصدي دولة المماليك للأمراض التي كانت تنتشر داخل حدودها، وجرحى حروبها اهتمت الدولة، ورجالها بالأطباء وبمدارس تعليم الطب والبيمارستانات وأنفقت عليها بسخاء[٣]، وقد استفاد المماليك من كل مؤسسات الدولة في خدمة الرعاية الصحية فقد كانت تستخدم المساجد والجوامع في تعليم الطب[٤]، وقد حفلت مناطق الدولة المملوكية بعدد كبير من البيمارستانات حيث كان منها ما هو قديم من العهد الأيوبي فاهتموا بهذه البيمارستانات اهتماماً كبيراً واستخدموها وانشؤوا بيمارستانات عديدة، وقد أنشأ سلاطين المماليك منشأت صحية تحمل أسماءهم مثل السلطان المنصور قلاوون وسماه البيمارستان المنصوري' حيث كان أعظم بيمارستان وكلية طبية في تاريخ مصر خلال العصور الوسطى، فقد كلف السلطان المملوكي قلاوون العالم والطبيب ابن النفيس بمهمة أنشاء البيمارستان المنصوري(٦٨٠هـ.١٢٨١م) وعينه رئيساً لهذا البيمارستان، وقد جُعل البيمارستان للجندي، والأمير، والكبير، والصغير، والحر، والعبد، والذكور، والإناث، ورتب فيه الأطباء والأدوية، وجعل فيه عدداً من الرجال والنساء لخدمة المرضى، وأفُرد لكل طائفة من المرضى موضعاً، فقاعة للبرص وقاعة لمرضى الحميات وقاعة لأمراض المعدة، وينقسم إلى قسمين: قسم للرجال وآخر للنساء، وجعل المياه تجري فيه، وأفرد مكاناً لخزن الأدوية، ومكاناً لرئيس الأطباء لإلقاء دروس الطب[٥].

فمن الواضح أن دولة المماليك كانت تعمل تحت شعار لا يصح الاهتمام بالأديان وإهمال الأبدان، وكان من أوجب مسئوليات الدولة هو كفالة حق المواطن في الرعاية الصحية والسلطان مؤتمن على صحة وأبدان رعيته ويجب إن يحفظ حق المواطن في الرعاية الصحية وصحة نفوسهم[٦] ، وشيد سلاطين المماليك تلك البيمارستانات وحملت أسماءهم تقرباً الى الله عز وجل

(١) ابن الفرات: تاريخ، م٨، ص٩.
(٢) المقريزي: خطط، ج٤، ص٢٥٦.
(٣) الإنطافي: تذكرة، ص٨.
(٤) معروف: أصالة، ص٤٧٠.
(٥) ينظر : الذهبي: تاريخ، ج٥١، ص٣٨٤، أبو المحاسن النجوم الزاهرة، ج٤، ص٤٧.
(٦) القلقشندي: صبح، ج١١، ص٢٥٣، ٢٥٤.

وتكفيراً عن خطاياهم[١]، ولكن الحقيقة أن سلاطين المماليك كانوا على دين حيث تم تربيتهم على تعاليم الإسلام الحنيف فعملوا على تطبيق تعاليمه وبنوا تلك البيمارستانات صدقة جارية عن أرواح آبائهم وخدمة للرعية والتقرب إليهم وإعطائهم حقهم في الحصول على رعاية صحية[٢]، ولم يقف اهتمام سلاطين المماليك بالرعاية الصحية عند هذا الحد بل أنشأوا المحطات العلاجية المتنقلة التي كانت تصحب في الغالب السلاطين في أسفارهم والجيوش في حروبهم وقوافل التجار والحجيج وتتنقل في البلاد والمناطق النائية التي لا يوجد بها بيمارستانات[٣][٤]، حيث كانوا يصطحبوا معهم الأطباء بتخصصاتهم المختلفة والأدوية التي يحتاجونها[٥]، وقد حرص المماليك على توفير الرعاية الصحية للجيش لأنه جزء مهم من المجتمع ويقدم الخدمة للناس عامة وأنشأوا كذلك البيمارستانات التي عرفت باسم (السبيل) التي كانت مجهزة بكافة الاحتياجات الطبية؛ وذلك لتقديم الخدمة الصحية والعلاج للقوافل والبعثات ولعلاج الأفراد الذين يطول بهم السفر[٦]، وقد كانت الدولة المملوكية لا تدخر وسعاً في إنشاء البيمارستانات العلاجية في كافة المدن وإرسال البيمارستانات المتنقلة للبلاد البعيدة وغير المأهولة بشكل كبير وكان هناك أطباء يعالجون الفقراء في منازلهم ويعطونهم الأدوية بدون ثمن[٧] ، ولقد أنشأت الدولة الحمامات العامة لخدمة الرعية في الإحتياجات العلاجية حيث كانت تستخدم في غالب الأحيان للنظافة والاستشفاء من الأمراض[٨] ، ولم يقف اهتمام سلاطين المماليك وأمرائهم على بناء هذه الحمامات فقط بل ألحقوها بالمنشآت الصحية كالبيمارستانات وغيرها[٩] ؛ من أجل توفير وسائل النظافة والطهارة للمقيمين بهذه البيمارستانات.

واستخدمت تلك الحمامات لعلاج كثير من الأمراض الجلدية والمزمنة، إضافة لأمراض الرئة[١٠] ، ولم يكتفِ سلاطين المماليك ببناء البيمارستانات وإيجاد الأطباء وتعليمهم وتوفير الرعاية الصحية للرعية، بل أوجدوا إدارة تدير هذه المنشآت تهتم بأحوال البيمارستانات والمرضى، وعينت

(١) ابن إياس: بدائع، ج١، ص٣٥٤.
(٢) المقريزي: خطط، ج٤، ص٦٩٢-٧٠٣.
(٣) أحمد: تطور، ص٧١.
(٤) عبدالدايم: الرعاية، ص١٧٤.
(٥) محسن: الجيش، ص١٦٣.
(٦) المقريزي: خطط، ج٢، ص٨٦.
(٧) محمد: مقدمة، ص٢٥٣.
(٨) زيارة: الحمامات، م١، ص٧٨.
(٩) المقريزي: خطط، ج٢، ص٨٥، ٣٥٤، ٣٨٣، ٤٠٥.
(١٠) المقريزي: خطط، ج٤، ص١٨٢.

الدولة إداريين أكفاء لتلك البيمارستانات[١] ، وتعين موظفين لصناعة الأدوية على درجة عالية من الخبرة والدقة ومشهوداً لهم بالشفافية والدقة والإتقان ، ولا يعطون المريض إلا حاجته من الدواء[٢]، واهتم المماليك بالرعاية الصحية وفرضوا رقابة شديدة على المنشآت الصحية، وذلك من خلال نظام الحسبة[٣]، الذي كان له صلاحيات الرقابة على جميع ما يخص المنشآت الصحية فراقبوا أصحاب المهن الطبية وكل ما له علاقة بها من قريب أوبعيد كالأدوات المستخدمة والأدوية المصروفة والأطعمة والأشربة[٤] ، وقد حرصت الدولة على وضع شروط يجب توفرها في الطبيب كي يمنح شهادة مزاولة المهنة فيجب أن يكون الطبيب ذا أخلاق حميدة وحسن السيرة لا يُفشي أسرار مرضاه ومحباً لعلاج الفقراء عفيف النظر فضلاً عن الكفاءة والقدرة في التخصص. [٥]

ولقد عملت الدولة المملوكية على إحكام الرقابة والإشراف على كل ما يتعلق بالجوانب الصحية وهو ما إنعكس إيجاباً على حال الرعية، ولكن في أواخر العهد المملوكي أصبح هناك ضعف في الرعاية الصحية وانتشار للأمراض والأوبئة وكثرة الحروب وزاد الإنفاق عليها؛ ما أدى إلى استنزاف خزينة الدولة نتج عنه إهمال كبير في جانب الرعاية الصحية، ووكلت وظيفة المحتسب إلى غير أصحاب الكفاءة عن طريق الرشوة والواسطة، وتولى إدارة المنشآت الصحية أصحاب السيرة والسمعة السيئة وصرفت الأموال الموقوفة للبيمارستانات على غيرها بدلاً من صرفها على البيمارستانات[٦] ، وأهملت البيمارستانات الى حد كبير في عهد السلطان قنصوة

(١) ابن حبيب: تذكرة، ج١، ص٣٩٢، ٣٩٣.

(٢) النويري: نهاية، ج٢٩، ص٢٨٢؛ المقريزي: خطط، ج٤، ص٢٦٠.

(٣) نشأت وظيفة الحسبة إلى جانب وظيفة القاضي؛ نتيجة تضخُّم ظروف الحياة في الخلافة الإسلامية، وهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يُعَيِّنُ لذلك مَنْ يراه أهلاً له، فيتعيَّن فَرْضُه عليه بحُكْمِ الولاية، وإن كان على غيره من فروض الكفاية، وفي تطوُّرها فقد تَعَدَّتِ الحسبة هذا المعنى الديني في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى واجبات عملية مادِّيَّة تتَّفق مع المصالح العامَّة للمسلمين؛ فقد تناولت أمورًا اجتماعية متعدِّدة؛ مثل: المحافظة على النظافة في الطرق، والرأفة بالحيوان بأن لا يُحَمَّل ما لا يطيق، ورعاية الصحَّة بتغطية الروايا، ومنع معلِّمِي الصبيان من ضرب الأطفال ضربًا مبرحًا، ومراقبة الحانات وشاربي الخمر، وتبرُّج النساء، وبعبارة عامَّة كل ما يَتَعَلَّق بالمجتمع وأخلاقه، والظهور فيه بالمظهر اللائق، كما تناولت أمورًا اقتصادية؛ وذلك لتضخُّم المدن الإسلامية بأرباب الحرف والتجار، فكان عمل المحتسب الأساسي منع الغش في الصناعة والمعاملات، وبخاصة الإشراف على الموازين والمكاييل وصحَّتها ونسبه؛ الطبري: نهاية الرتبة، ج١ ،ص٣٣؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ،ج١، ص٢٢٥.

(٤) حسين: الموجز، ص٢٤٠.

(٥) ينظر: ابن أبي أصبيعة: عيون، ص٤٥.

(٦) ينظر: السخاوي: التبر، ض٣٣٦.

الغوري عندما أخذت الأموال الموقوفة على البيمارستانات وأنفقت على أمور أخرى[١] ، واتجهت الأمور منحنى سيئاً عندما أصبحت وظيفة المحتسب وظيفة مبتذلة يمكن الوصول إليها بالرشوة، الأمر الذي أدى إلى ضعف الرقابة على دور الرعاية الصحية، ما أدى إلى تدهور الرعاية الصحية بشكل كبير وانتشار الأمراض والأوبئة وغلاء الأدوية والغش فيها. [٢]

## الحق في التكافل والضمان الاجتماعي:

اهتم سلاطين المماليك بالحقوق العامة، ومنها حق التكافل والضمان الاجتماعي، وبما أن دولة المماليك نشأت على الإقطاع فكانت الزارعة أهم مواردها، والفلاحون هم الطبقة الأكبر من سكان المجتمع، وقُسمت الأراضي الزراعية في دولتهم إلى عدة أقسام نتيجة لقيمة المحصول[٣]، ومن هذه الأقسام (الباق) وهو خير الأراضي وأعلاها قيمة وأفضلها سعراً لأنها تصلح لزارعة الكتان؛ والقمح، وكذلك (البرائب) وسعرها دون الباق لضعف الأرض وتصلح لزراعة القرط والمقاطي، و(البرش )وهي عبارة عن أرض خربت من أثر ما زرع فيه وباقي الأراضي الأخرى ،اعتنت دولة المماليك بالأراضي الزراعية، ومرافق الزراعة، وما يلزمها من أنشاء جسور، وشق ترع، واستخدام مقاييس خاصة بالنيل وإصلاح الجسور وخصصت الدولة ميزانية ضخمة لتلك المشاريع ،ما أدي إلي نهضة وازدهار اقتصادي. [٤] وحرصت الدولة على حق التكافل الاجتماعي وضمانه للرعية والعامة، وعينت موظفين لمراقبة الأحوال المعيشية وأمور الناس وأحوالهم والأخذ على يد من يتعدى على هذه الحقوق[٥]، ومراقبة الأسعار والحد من ارتفاعها وتسعير السلع في أوقات معينة عند الحاجة، والإشراف على حركة الأسواق وسلامة الأوزان[٦]، والاهتمام بالفقراء ومتابعة أمورهم وأخذ الزكاة من أرباب الأعمال وتوزيعها في أوجه صرفها المختلفة[٧]، ومراقبة حركة النقل وضمان سلامة الركاب ومنع الحمولة الزائدة ومتابعة الحمالين الذين يستخدمون البهائم في حملهم وعدم إنهاكها بالأعمال الزائدة[٨]، وتنافس الأمراء على فعل الخير، وضمانه، فبنوا

(١) الباشا: الفنون، ج٣، ص٦٠٦.
(٢) قاسم: الأسواق، ص١٣٧.
(٣) سرور، محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر، ص٢٩٢.
(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ص٨٤٢.
(٥) ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٧.
(٦) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٩٢؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، خ٣٠٧؛ ابن حجر، أبناء القمر، ج٣، ص٢١٥.
(٧) المقريزي، المواعظ والاعتبار ، ج٣، ص٥٧٤.
(٨) المصدر نفسه ، ج١، ص٤٦٤.

الزوايا التي كانت تهتم بكثير من الفقراء وأهل العلم وأهل الأدب والتصوف وعينت من يقوم على خدمتهم وتوفير الطعام لهم وصرف كسوة شتاء وكسوة صيف ومرتب شهري، ولهم نصيب من المؤونة بل كانت الدولة تقوم بحفر الآبار، وصناعة الثياب لهذه الفئات[١] بل ذهبت دولة المماليك في هذا الحق إلي أبعد من ذلك فقد تمتع بحق الضمان، فئة التجار الذين من داخل الدولة أو من خارجها، فتجد الدولة تحافظ على أموال الناس وتجارتهم وضمنت للتجار حقوقهم وأمنوا الطرق التجارية والتودد إلى التجار وترغيبهم بزيادة تجارتهم وتكفلت الدولة بحماية التجارة، ورسخت العدالة في جباية الأموال من التجار بحيث لا يأخذون من التجار سوى الحقوق السلطانية[٢]

وقدمت دولة المماليك كل التسهيلات اللازمة لتحقيق أكبر قدر من التجارة الوافدة وأمنت التجار الوافدين إلى الدولة وعاملتهم معاملة جيدة وعدل بينهم ورعت مصالحهم وسلامة انفسهم وأموالهم، وبنت الدولة الأسواق وحمتها ووضعت موقعها في وسط المدينة لتسهيل الوصول اليها، ويكون تخطيطها ملائماً لدخول البضائع وخروجها، وخضعت الأسواق بشكل مباشر للدولة من خلال مراقبتها والضرائب المفروضة عليها والاهتمام بها من جميع النواحي، فكان يتعين على جميع الباعة الذهاب إلى دار العيار[٣] بموازينهم ومكيالهم كي يتم تحري الدقة في هذه الموازين بواسطة المحتسب، وإذا كانت هذه الموازين غير دقيقة وغير مضبوطة تصادر ويُلزم صاحبها بشراء غيرها من دار العيار[٤]، وكانت الأسواق منتشرة بشكل كبير حيث لا يُسمح ببيع الفاسد من المنتوجات، ومن يوجد عنده سلع فاسدة أو مواد أو طيور أو حيوانات أو أطعمة أو كل ما يتعلق بالصحة العامة تُعدم الكمية الفاسدة المضبوطة[٥]، وعُنى المماليك بالنقابات فكان أفراد كل حرفة يكوِّنون نقابة خاصة بهم، لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم فيما بينهم ويضبط علاقتهم بالجمهور، ويضبط وينظم العلاقة بينهم وبين الحكومة، ولكل نقابة من هذه النقابات رئيس أو شيخ يرأسهم، يفض مشاكل أفراد النقابة ويرجعون له في كل أمورهم، ولا يسمح لأي فرد الدخول الى أي مهنة ألا عن طريق نقابة هذه المهنة ، ولا يسمحون لأي شخص في مشاركتهم إلا إن يكون قد

(١) ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٤٤.

(٢) عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص٢٨٦.

(٣) دار العيار: هي الدار التي كانت تبيع الموازين والصنج والأكيال، تضبط فيها وفقاً لأمثلة قياسية كانت بها، ولم يكن مسموحاً باتياع الموازين والأكيال المستخدمة في أسواق البلاد إلى في هذه الدار؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج١، ص٤٦٢-٤٦٣.

(٤) السخاوي: النبر المسبول، ص٢٦١.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٩٦.

أتى ليحل محل أحدهم، وفي هذه الحالة يقبل بشروط خاصة[١]، واهتم سلاطين المماليك بالتجار وحقوقهم وحفظت حقهم من خلال إنشاء نقابة خاصة بالتجار، وكان لهذه النقابة رئيس معترف به من قبل الدولة وأطلق عليه إسم رئيس الكارمية[٢]، ولهذه النقابة سلطة على جميع التجار حيث تحافظ على حقوقهم وتحميهم من أي تعدٍ عليهم وتحفظهم من الخسارة وتحمي أموالهم، وأصبح لها نفوذ كبير حتى أنه في بعض الأوقات كان بعض سلاطين المماليك يستدين من هذه النقابة لما تتمتع به من ثروة إذا اقتضت الظروف إلى ذلك. [٣]

حرص المماليك على التكافل في أوقات الأزمات وفي وقت عدم فيضان النيل، ويتدخلون في خفض الأسعار عند ارتفاعها على الناس، وفتح المخازن السلطانية للناس لتخفيض الأزمة على الناس كما حدث في عهدي السطان الظاهر بيبرس، والناصر محمد بن قلاوون [٤].

وكان من أهم أنواع الضمان والتكافل الاجتماعي نظام الوقف الذي راج وساد وانتشر في سلطنة المماليك بشكل كبير، حيث أوقف للأيتام وللمرضى وللفقراء ولأهل السبيل وطلبة العلم[٥]، وصار من البديهي أن يُنشئ السلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة المؤسسات الخيرية وأوقفوا عليها الأوقاف[٦] ونظراً لتشجيع الدولة بكل مؤسساتها، وكذلك تشجيع العلماء وحثهم للمواطنين تقديم أموالهم وعقاراتهم في سبيل الوقف، أصبحت الأوقاف تشمل كل أوجه الخير، كالأراضي الزراعية والمباني والفنادق ومعاصر الزيت والقصب والحمامات وأشياء أخرى كثيرة ما أحدث نهضة في مجال التكافل والضمان المجتمعي في دولة المماليك، وأصبح المواطن يتلقى الخدمات المجانية في كل شئون حياته [٧].

واهتم سلاطين المماليك بموسم الحج والحجاج وسخَّروا كل السبل لتسهيل الأمور على الحجاج وتوفير المياه الكافية لهم ووسائل الراحة، وتوفير كل الاحتياجات اللازمة من مأكل ومشرب

---

(١) ينظر : المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٩٨.

(٢) النقابة الكارمية: وهو لفظ يطلق على تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي واستخدمت أيضاً بمعنى السلع والبضائع التي يتاجر بها أولئك التجار، فالكارمية هي فئة التجار التي كانت بيدهم تجارة البهار الواردة إلى مصر إلى الهند والشرق والاقصى عن طريق ثغور إلىمن دون غيرها من الدولة تم اطلقت المهنة الشرقية عموما والتوابل خصوصا في مصر؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج١، ص٤٧٠.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٨٢.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٥١٠.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٤٠١.

(٦) أبو المحاسن: حوادث الدهور، ص١٤٣.

(٧) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٤١٠.

وملبس والأطباء والأدوية والعقاقير اللازمة لهم[١]، حيث كان يشرف على الموسم أمير الحج الذي كان بدوره يتلقى أوامره من السلطان مباشرة للسير بطرق آمنة وبشكل بطيء رحمة بالضعفاء والعجائز وكانت توجيهات الدولة لأمير الحج تقضي أيضاً بضرورة اعتماد الطرق السهلية قليلة الوعورة، والتي يتوفر فيها الماء، بل كانت الدولة تخصص أجهزة أمنية وعسكرية خاصة مهمتها توفير الأمن لقوافل الحج ذهاباً وإياباً وعلى طول الطريق الى الحجاز [٢]، وقد عم حق التكافل جميع أنحاء دولة المماليك فعندما أصاب القحط أرض الحجاز ذهب شريفهم إلى مصر فشكى للسلطان غلاء الأسعار وقلة الطعام فقام السلطان بإرسال القمح بكميات كبيرة وتصدق بها إلى أهل مكة والحرمين[٣]، وكلما ارتفعت الأسعار في بلاد الحرمين ترسل لها الأطعمة والحنطة[٤]، ففي سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م حدث قحط في مكة فأرسل السلطان برقوق ثلاثة آلاف إردب قمح توزع على أهل الحرمين[٥].

وفي سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م أرسل السلطان الظاهر برقوق إلى بلاد الحرمين الخيول والقمح والشعير والفول توزع على أهل الحرمين ومكة[٦]، وعلى الرغم مما ساد في عصر المماليك من تكافل اجتماعي إلا أنه كان هناك بعض السلوكيات السيئة والتي أثرت على مستوي اداء الدولة في تطبيق حقوق الإنسان فأحياناً ، كانت تؤخذ الأموال بغير وجه حق من المواطن بسبب الفساد وتردي القيمة الاجتماعية وتدهور الاقتصاد[٧]، وأحياناً كانت تحصل الضرائب العالية من المواطن والمكوس بغير وجه حق [٨]، وعدم توفير متطلبات المواطن ومواجهة الغلاء، فكان هدف السلاطين والأمراء في أواخر عهد دولة المماليك فقط اشباع رغبتهم من المال وتوفير متطلباتهم من السلع التجارية الأمر الذي أدى إلى فقدان الناس ثقتهم في الدولة وإجراءاتها، ما أدى إلى انتشار الإشاعات وكثرت الأقوال التي أدت إلى رفع الأسعار، وتدني مستوى معيشة المواطن، ووصل الأمر في بعض السنوات إلى مجاعة[٩]، وزاد التدهور الداخلي لعدم قدرة السلاطين على إدارة

(١)المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٤١٠ ؛الجزيري: درر الفرائد، ج١، ص٢٢٧.
(٢)الجزيري: درر الفرائد، ج١، ص٢٢٧.
(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٢٣٨.
(٤) الحضراوي: مختصر حسن الصفا والابتهاج، ص٥٥.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٠٩.
(٦) ابن الصيرفي: نزهة النفوس ، ج١، ص٢٤٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٥٣١.
(٧) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٦٧٨.
(٨) الأسدي، التيسير، ص٩٧.
(٩) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، ص٢٦.

الدولة ما أدى إلى الشغب والإضطراب وحوادث نهب الأسواق ودب الفزع في النفوس وتوقف حركة البيع والشراء وغلق الأسواق، وأدى تصارع السلاطين على الحكم إلى نزاعات بينهم بشكل كبير، ما أدى إلى إيقاف الحياة العامة وإنتهاك الحقوق العامة للمواطنين وتعطيل حياتهم بشكل تام(١)، وعبث المماليك المتقاتلون مع بعضهم بمقدَّرات المواطنين وأمنهم ما أدى إلى ارتفاع الأسعار في مختلف السلع من المأكل والملبس وأعلاف الحيوانات(٢)، وكان تدهور الأحوال المادية في أواخر عصر المماليك وتأخر رواتب المماليك الأجلاب(٣) الذين تمردوا على السلطان قنصوة الغوري فهددوه واستولوا على أموال المواطنين قصراً وأخذوا من أصحاب الأملاك من السكان الأجرة مسبقاً ومقدمة لشهور عدة، وفرضت الضرائب على الغني والفقير على حدٍ سواء(٤). ولم ينتهِ الأمر عند ذلك بل في سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٣م عندما عجز السلطان الغوري عن دفع المرتبات نزل المماليك إلى الشوارع والأسواق سرقوها ونهبوها ونهبوا سوق جامع بن طولون وباقي الأسواق الأخرى حتى كادت أن تنهار الدولة بكاملها ذلك اليوم(٥)

## الحق في التعليم:

اهتم سلاطين المماليك في الحياة العلمية وحق التعلم حيث أصبحت مناطق نفوذهم مقصداً للعلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار، وأصبحت محوراً للنشاط العام الكبير في مختلف العلوم والفنون، الأمر الذي جعل دولة المماليك محوراً للنشاط العلمي بسبب ما أصاب بغداد حاضرة الخلافة العباسية من كوارث على أيدي المغول وبلاد الأندلس على أيدي المسيحيين، فهاجر كثير من العلماء من جميع الأقطار إلى دولة المماليك وأصبحت محلاً لنشاطهم العلمي، ما زاد النشاط العلمي إحياء الخلافة العباسية في مصر (٦٥٩هـ-١٢٦٠م) ما جعل القاهرة مركز النشاط العلمي والديني في العالم الإسلامي(٦)، وعجت القاهرة في عصر المماليك بالمدارس التي أنشأها سلاطين المماليك والتي كانت منارة للعلم والتعليم، ولم يقتصر الأمر على المدارس فحسب

(١) المقريزي: ج٢، ص٢٨٠.
(٢) بردي، ابن تغري: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص٩٨.
(٣) مجموعة من المماليك ثم شرائهم وهم كبار السن وديانتهم مختلفة؛ القلقشندي: صبح الأعشى ،ج٤، ص٤٥٩.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٨، ص١٦.
(٥) المصدر نفسه: بدائع الزهور، ج٨، ص١٦.
(٦) عاشور، سعيد: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٤١.

بل كانت المساجد والكتاتيب[١] تقوم بوظائف المدرسة[٢]، وأصبحت مصر في دولة المماليك ميداناً لنشاط علمي واسع ما أنتج تراثاً علمياً ضخماً من موسوعات أدبية وكتب تاريخية ومؤلفات في العلوم الدينية[٣]، ولم يكن لهذا النشاط العلمي أن يزدهر في دولة المماليك لولا تشجيع بعض سلاطين المماليك للعلم والعلماء، فكان الظاهر بيبرس يميل إلى التاريخ ويحب سماعه وقراءته وكان يصف التاريخ أعظم التجارب[٤]

واستعاد الجامع الأزهر في عهد السطان الظاهر بيبرس عهده السابق وقصده طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وظهر في ذلك العصر علماء في الأدب والتاريخ منهم: محيي الدين بن عبد الظاهر[٥] وابن خلكان[٦][٧]، وكان السلطان الغوري حريصاً على عقد المجالس

(١) الكتاتيب: كتّاب هو المرحلة الأولى والتمهيدية التي يجب على الطالب اجتيازها في مراحل التعليم القديم في جبل عامل، حيث يجب عليه إتقان قراءة القرآن بالإضافة إلى تمكّنه من القراءة بشكل عام والكتابة، بالإضافة إلى المامه بمبادئ الحساب. فإذا أتمّ الطالب هذه المرحلة واجتازها، اجتمع أهله وأصدقاؤه وأقاموا له حفلاً، يقدّمون لشيخه في الختام هدية وغالباً ما تكون عبارة عما تيسّر من المؤونة أو الزبيب أو التمر أو التين واتمام هذه المرحلة كانت تخوّل النابهين من الطلاب الالتحاق بالمدارس الدينية للتعمّق بدراسة العلوم القرأنية والفقه وعلوم اللغة والنحو والصرف والمنطق وغيرها من العلوم. وإذا كانت الكتاتيب منتشرة في كل أرجاء الدولة، فإن المدارس الدينية كانت معدودة ويرتبط وجودها وسيرورتها بوجود عالم دين مجتهد مشهود له بالعلم؛ الحنقي: كشف الظنون ،ج٢ ،ص١٤٧٢.

(٢) عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص٣٣٠-٣٣١.

(٣) المغربي: البلوى، ص٥٤.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٨٢.

(٥) محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر السعدي المصري ( ولد بالقاهرة في عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م – توفى بالقاهرة في عام ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م ). قاضي مصري وصاحب ديوان الأنشاء. بالدولة المملوكية، عاش في عهد السلطان الظاهر بيبرس، وألف كتابه الشهير " الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر " عن حياة وأعمال السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، فأعطى معلومات تاريخية متكاملة عن عهد الظاهر بيبرس. بعد تولي بيبرس الحكم في سنة ١٢٦٠م كانت أولى أهم خدماته له كتابة رسالة على لسانه إلى بركة خان ملك القبيلة الذهبية المغولية، الذي إعتنق الإسلام، (القلقشندي: صبحي الاعشي، ج ١، ص ١٢٤).

(٦) ابن خلكان (٦٠٨ – ٦٨١ هـ / ١٢١١ – ١٢٨٢ م) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، أبو العباس: المؤرخ الحجة، والأديب الماهر، صاحب (وفيات الأعيإن وإنباء أبناء الزمان) وهو أشهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطا وإحكاما.ولد في إربل (بالقرب من الموصل على شاطئ دجلة الشرقي) وإنتقل إلى مصر فأقام فيها مدة، وتولى نيابة قضائها.وسافر إلى دمشق، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام. وعزل بعد عشر سنين. فعاد إلى مصر فأقام سبع سنين، ورد إلى قضاء الشام، ثم عزل عنه بعد مدة. وولي التدريس في كثير من مدارس دمشق، وتوفي فيها فدفن في سفح قاسيون. يتصل نسبه بالبرامكة.( الوافي بالوفيات، ج ٧، ص٣٠٨).

(٧) سرور، محمد جمال الدين: دولة الظاهرة بيبرس، ص١٥٥.

العلمية بالقلعة كل اسبوع مرتين، ويبحث في هذه المجالس المسائل والمشاركات العلمية ويتناقش فيها مع الحاضرين من كبار العلماء والفقهاء[١] وقد انشغل بعض الأمراء والمماليك وأبناؤهم بالعلوم التاريخية والفقه والحديث واللغة العربية، بل تصدى بعضهم لتعليم وتدريس الطلبة[٢]، وتنافس السلاطين في أنشاء المدارس والإنفاق عليها والتي لم تكن تحصى[٣]، وقد زخر عصر دولة المماليك بنهضة علمية وفكرية حتى عُرف هذا العصر بعصر المصنفات والتاريخ[٤]، وكان تأسيس المدارس ورصد الأوقاف عليهم والعناية باختيار شيوخها وبذل المعونات لطلابها وإجراء الأرزاق عليهم من أهم أسباب اتساع حركة التعليم واقبال الشيوخ والطلاب عليها، ما جعل التعليم مهنة راقية، ووفد الطلاب إلى المساجد من كل مكان في البلاد الإسلامية للتعلم بها وقد روي أن عدداً كبيراً من الفقراء كانوا منقطعين لطلب العلم وموجودين في الجامع الأزهر يتلقون العلم ويتلون القرآن ويدرسون الحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر، وكان ينفق عليهم من تبرعات أهل البر من الذهب والفضة[٥]

واعطى سلاطين المماليك اهتمام بالغ بالقرآن الكريم وعلومه، وضم ذلك علم التفسير وعلم القراءات والإعجاز والناسخ والمنسوخ وكل ما يختص بالقرآن وعلومه[٦]، وقد ظهر في دولة المماليك عدد من كبار المفسرين وعلماء القرآن الكريم والإحاطة في كل علوم القرآن [٧]، وأولي المماليك عناية بعلم الحديث وشجعوا عليه وكَثُرَ المحدثون في عصرهم [٨]، ولم تقتصر دولة المماليك على هذا النحو فقط بل اهتمت ببناء المدارس وأوقفت لها الأوقاف حيث كانت تنفق عليها سنوياً لضمان استمرار العمل بها، وتدفع منها مرتبات أرباب الوظائف بالمدرسة والطلبة حسب شروط الوقف[٩]، ولم يقتصر الإنفاق على التعليم فقط بل شمل الأمر كافة جوانب العملية التعليمية حيث كان كتاب الوقف وثيقة وهو عبارة عن لائحة أساسية للمؤسسة التعليمة وتضم الأسس التربوية للتعليم والشروط التي يجب إن تتوافر فالقائمين على العملية التدريسية وأوقات الدراسة وما يلزمهم من تنظيمات إدارية ومالية[١٠]، وساهم بعض سلاطين المماليك فالنشاط العلمي وذلك بحرصهم على أنشاء كثير من المدارس والمؤسسات الأخرى التي تقوم بنفس وظيفة المدرسة، ومن

(١) عزام، عبد الوهاب: مجالس الفورى، ص٤٩.
(٢) السخاوي: التبر المسبول، ص٢٢١.
(٣) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج١، ص٧٠.
(٤) عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص٣٣٢.
(٥) سليم، محمود رزق: الأدب العربي وتاريخه، ص١٤.
(٦) الزرقاني، محمد عبد العظيم: ضاهل العرفان في علوم القرآن، ج١، ص١٦.
(٧) ابن القيم: التبيان في أقسام القرآن، ص ١٨-١٩؛ خليفة، حاجي: كشف الظنون، ج٦، ص١٥٨.
(٨) السيوطي: تدريب الراوي، ج١، ص٤٣-٥٢.
(٩) أمين، محمد محمد: الأوقاف والحياة الإجتماعية في مصر، ص٢٤٠.
(١٠) المصدر نفسه: ص٢٤٠.

هذه المدارس المدرسة الظاهرية نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس(١٢٦١م /٦٥٩هـ) والمدرسة الناصرية التي شيدها السلطان الناصر محمد بن قلاوون(١٣٠٣م /٧٠٢ هـ) ومدرسة السلطان برقوق(١٣٨٦م / ٧٨٨هـ)، وقد أنشأ المماليك مدارس في الريف والقرى مثل مدرسة سيراقوس الذي أنشأها السلطان برسباي بل وأقام المماليك المدارس في جميع أنحاء مملكتهم الواسعة [١]

أنشأت مدارس عديدة في مصر والشام والحجاز وقام السلطان الغوري بأنشأء مدرسة في مكة واجتهد سلاطين المماليك في بناء المدارس من أشهرها مدرسة الجمالية[٢] سنة١٤٨٠ م /٨٨٥هـ بناها الأمير جلال الدين محمود وهو أحد أمراء السلطان فرج بن برقوق [٣]، وكانت وظيفة التدريس وظيفة جليلة القدر يقوم السلطان بتنصيب صاحبها ويكتب له توقيعاً في ديوان الإنشاء ويقوم السلطان بتقديم النصح للمدرس بأن يعطي الطلاب كل علمه ويُقبل على الدرس وهو مبتسم منشرح الصدر ليستميل إليه الطلبة ويربيهم كما يربي الأب ابنه[٤]، ويطلب من المدرس إن ينظر لطلبته ويحثهم كل وقت على الاشتغال[٥]، يتم تعيين معيد للمدرس ليشرح للطلاب ما شرحه المدرس ليفهموه ويحفظوه كما يوضح ما يحتاج إلى الشرح[٦]، وللطلبة حرية اختيار المواد التي

---

(١) السلطان قايتباي ولد سنة ١٤٢١ فى بلاد القبجاق وهى بلاد من أقالم نهر القولجا فى روسيا الإن وهي كانت من أهم أسواق العبيد الذين يباعون ومن ثم يكونوا مماليك فى الدوله العباسيه. واشتراه سلطان مصر حينها الملك [الأشرف برسباى] وأصبح مملوكاً وأرسله ليتعلم ويتدرب مع باقى المماليك، وبعد وفاة الأشرف برسباى وصل [ الظاهر جقمق ] عن طريق الشراء وعين (جمدار ) ثم ( خاصكى ) ثم أصبح ( دوادار ) وفى آخر الأمر أعتقه وتركه فى الجيش وأخذ في الترقي الى إن وصل ( أتابك ) – (قائد) الجيش فى عهد السلطان الظاهر تمربغا الذي عينه فى هذاالمنصب بعد تنصيبه سلطان مصر؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٩٠.

(٢) المدرسة الجمالية: عهد المماليك البرجيه بنى في الحى مدرسة الجمالية سنة ١٤٠٩م، وكانت من أعظم مدارس القاهرة.. يحدها من الشرق جبل المقطم الذي كان فوقه قلعة الجبل مقر إقامة وحكم السلاطين، ومن الشمال حى الحسينية والظاهر، ومن الغرب أحياء باب الشعرية والموسكى، ومن الجنوب حى الدرب الأحمر؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ،ج٤، ص ٣٨٦.

(٣) فرج بن برقوق: عهد المماليك البرجيه بنى في الحى مدرسة الجمالية سنة ١٤٠٩م وكانت من أعظم مدارس القاهرة.. يحدها من الشرق جبل المقطم الذي كان فوقه قلعة الجبل مقر إقامة وحكم سلاطين مصر، ومن الشمال حى الحسينية والظاهر، ومن الغرب احياء باب الشعرية والموسكى، ومن الجنوب حى الدرب الأحمر، بذكر. الناصر فرج بن برقوق هو السلطان السادس والعشرين، والجركسي الثالث، بين سلاطين المماليك. وكانت أمه من الأتراك وتدعى "خوند" شيرين. وقد ولد قبيل عزل والده وسجنه في الكرك؛ ولهذا اعتبر مصدر نحس وسمي بلفاك. ولكن السلطان أعيد للحكم فيما بعد، فسماه فرج. وعين سلطانا يوم وفاة والده في عام ٨٠١ هـ (١٣٩٩م)؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٣٩٥-٣٩٧.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٢٤٦-٢٤٧.

(٥) النويري: نهاية الآدب، ج٣٠، ص٣٤١.

(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ص٧٠٠.

يدرسونها حيث يستطيع كل طالب أن يختار ما يريد من أنواع العلوم الشرعية[١] عملت دولة المماليك بنظام البعثات العلمية، فكان يحق للطالب السفر إلي البلد الذي يرغب بهدف التعلم على أيدي علماء ذلك البلد وله حق اختيار التخصص الذي يريد وله الحق في اختيار المشرف عليه من العلماء [٢]

ولقد وجد عدة أنواع للتعليم في هذا العصر فمنها العسكري مقصور على طائفة المماليك الجدد والمستوعبين في صفوف الجيش، بحيث يتم تعليمهم تعليماً عسكرياً خاصاً يؤهلهم لخوض غمار الحروب والحفاظ على الدولة، ومن ينبغ منهم يعتق ويمنح إقطاعاً ويعطى لقب من ألقاب الإمارة، وكذلك عُرف( التعليم الشعبي ) وهو لكافة طبقات الشعب مجاناً ومكانه المدارس والمساجد وكان تعليماً حراً غير مقيد، وكان الطالب له كامل الحرية في تنظيم جدول دروسه واختيار شيوخه، وتعتبر الدراسة في المساجد من مراحل التدريس المتقدمة تسبقها مرحلة الكتاتيب ومرحلة حفظ الكتب[٣]، وقد كان من أهم أقسام المدرسة الأساسية : المكتبة، وقد اشتهرت مكتبات ذلك العصر إحتوائها على أمهات الكتب في الفقه والحديث واللغة والأدب والفلك والمنطق والطب وقد وجد في المدرسة العمرية مكتبة وصفها ابن كنان[٤][٥] بخزائن الكتب ويصف ابن طولون[٦]

---

(١) النويري: نهاية الأدب، ج٣٠، ص١٥.

(٢) عاشور، سعيد: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٤٥.

(٣) سليم، محمود رزق: الأدب العربي وتاريخه، ص١٥.

(٤) ابن كَنَّان(١٠٧٤ – ١١٥٣ هـ، ١٦٦٣ – ١٧٤٠ م) محمد بن عيسى بن محمود بن كنان: مؤرخ، حنبلي من علماء دمشق. يقال له: ابن زين النقاة. له كتب، منها (الحوادث اليومية) أرخ به ٢٣ سنة، و(المروج السندسية) في تاريخ الصالحية (بدمشق) و(حدائق الياسمين) في أخلاق الملوك والخلفاء، و(الاكتفاء في مصطلح الملوك والخلفاء) و(المواكب الإسلامية) في وصف الشام، و(تاريخ معاهد العلم في دمشق) و(مختصر حياة الحيوان) و(تلخيص كتاب الملاحة) و(مجموع) فيه خمس رسائل له، أولها (الرسالة المفردة في أربعين حديثا مسندة) و(الدرر المنضد في أصحاب الإمام أحمد في ٣٠٠ ورقة) ؛ ابو الفضل : سلك الدرر ،ج٤، ص٨٥.

(٥) ابن كنان: المروج السندسية الفسيحة في تلخيص تاريخ الصالحية، ص١٥٩.

(٦) ابن طولون (٨٨٠ – ٩٥٣ هـ = ١٤٧٥ – ١٥٤٦ م) محمد بن علي بن أحمد (المدعو محمد) ابن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي الحنفي، شمس الدين: مؤرخ، عالم بالتراجم والفقه. من أهل الصالحية بدمشق، ونسبته إليها. قال الغزي: كانت أوقاته معمورة كلها بالعلم والعبادة، وله مشاركة في سائر العلوم حتى في التعبير والطب. وله نظم، وليس بشاعر. كتب بخطه كثيراً من الكتب وعلق ستين جزءاً سماها (التعليقات) أكثرها من جمعه وبعضها لغيره. ولم يتزوج ولم يعقب. من كتبه (الغرف العلية في تراجم متأخري الحنفية – خ) و(ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر) قطع منه، بخطه، والتراجم، و(ضرب الحوطة على جميع الغوطة) (القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية – ط) و(قضاة دمشق – ط) وأصل اسمه (الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام؛ الزركلي: الأعلام للزركلي، ج٥، ص ٢٣٤.

مكتبة المدرسة الضيائية[١] في دمشق بقوله : " وبهذه المدرسة كتب أنه كان فيها التواره والإنجيل، وكان بها كتاب الخلاف غير موجود في غيرها" [٢]، وكانت نتيجة اهتمام السلاطين بالمكتبات العامة أن امتلأت المكتبات بالكتب لاعتماد السلاطين سياسة تزويد المكتبات بالكتب من حين لأخر [٣] ولم يقتصر التعليم في ذلك الوقت على التعليم الديني فقط بل كان هنالك مدارس للطب وأخرى للهندسة وكانت مدارس لعلوم اللغة من نحو وبلاغة وعروض وأصول لغة[٤]، والعلوم الرياضية من حساب وجبر ومقابلة وعلم الميقات والهندسة والخرائط إلى جانب علم الفلك والتاريخ والمنطق وعلم الكلام[٥]، وعلى الرغم من ذلك، إلا أن هناك من اعتبر أن عصر المماليك هو عصر انحطاط فكري على الحضارة العربية الإسلامية ويدعون إن هذا العصر لم يكن عصر الأصالة والإبداع في العلوم العامة، كما ولم يكن المؤرخون والأطباء والفلاسفة والشعراء والفلكيون والأطباء والمحدثون والفقهاء في ذلك العصر يوازي أقرانهم في أول الحضارة الإسلامية، وأنه عصر انهيار فكري وعصر خالٍ من الإبداع، وأنه عصر يعتمد على المختصرات والشروح لا إبداع فيه ولا ابتكار[٦]، ولكن في الحقيقة إن هذا العصر شهد انتعاشاً فكرياً عظيماً يوازي في كثير من تفاصيله عصور النهضة الإسلامية الأولى وزخر بالمئات من المؤلفات ومئات العلماء الذين ملأوا ذلك العصر بإنجازاتهم ومؤلفاتهم وإبداعاتهم التي تملأ مكتبات العالم في الشرق والغرب، ووصلنا من ذلك العصر موسوعات ضخمة في التاريخ والجغرافيا والتراجم والعلوم بشقيها النظري والتطبيقي والأدب والفنون[٧]، ويعد العصر المملوكي من أفضل العصور العربية الإسلامية في حقل الكتابة والتاريخ ويشهد لذلك العصر وعلمائه إنهم أعادوا للحضارة العربية الإسلامية مجدها بزمن قصير جمع ما خسرناه في الحروب مع المغول الذي تعرض للنهب والإحراق والإتلاف والإغراق واستمروا في مسيرة التأليف والإبداع فكانت نهضة كبيرة في الحضارة العربية الإسلامية[٨] والباحث يعارض ذلك لأنه، يعد تجني على دولة المماليك ولا يوصف واقع الحال في دولة المماليك، فلقد أوردت المصادر التاريخية التي عاصرت حكم المماليك الاهتمام الكبير بالعلم وتحقيق النهضة العلمية ويذهب أخرون لما ذهب له الباحث ويدعموا رأي الباحث.

---

(١) المدرسة الضيائية: بانيها الفقيه ضياء الدين محمد اشتهرت هذه المدرسة باسم ((الضيائية) ) كما هو على الكثير من مخطوطاتها، ابن طولون :القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، ج١ ،ص١٣٠

(٢) ابن طولون: القلائد الجوهرية بتاريخ الصالحية، ص١٣٨.

(٣) الحسني: المدرسة الأسردية، م٣٣، ص٤ج، ص٩٣.

(٤) ظاهر: التعليم في مدارس بيت المقدس الإسلامي في العصر الأيوبي، ص١١٠-١١١.

(٥) المصدر نفسه، ص١١١.

(٦) سهيل، محمد: تاريخ المماليك في مصر والشام، ص٩.

(٧) العمري، ابن فضل الله: مسالك والأبصار في ممالك الأمصار، ص٣٧١.

(٨) النهار، عمار محمد: الدراسات النظرية الجديدة في عصر دولة المماليك البحرية، ص٢٤٧

# المبحث الثالث
# حق الإقامة والتنقل

عند الحديث وعن حق الإقامة والتنقل في دولة المماليك لا بد أن نذكر أن دولة المماليك هي دولة إقطاعية أي أنها تعتمد على الإنسان والرعية بدرجة أساسية في بناء اقتصادها وزارعة أرضها وتأمين تجارتها وحماية حقوقها وأنها دولة فتية أغلب جنودها من المماليك الذين تم الإتيان بهم من خارج الديار التي يحكمونها كان لا بد منهم الاهتمام بحق الإقامة، وتأمين المماليك المقيمين على أموالهم، وعرضهم، وانفسهم، وعائلاتهم في حلهم، وترحالهم فلذلك قامت الدولة بتوزيع الأراضي، والإقطاعيات بداية من السلطان نفسه، وأمرائه، وقضاته، وقادة جنده، وجنده ،والفلاحين، والتجار[١] وورث المماليك نظام الإقطاع عن الأيوبيين وكان نظام الرك الناصري[٢] القاضي بإعادة توزيع الإقطاعيات بين السلطان والأمراء والجنود والعامة ومسح الأراضي وتوزيعها من جديد وأدت الإجراءات التي صدرت إبان نظام الرك الناصري الجديد إلى الغاء بعض الضرائب المفروضة[٣] وحرصت الدولة على تدعيم السكان في أراضيهم فقامت بتيسير عملية الزراعة وأقامة الجسور[٤] على الترع لتنظيم الري وحماية المدن من الغرق أثناء الفيضان[٥] واهتمت الدولة بتأمين الطرق وتعبيدها للناس وأصلحوا الموانئ لترسوا بها السفن المارة في البحر وعمل سلاطين المماليك للحفاظ على حق التنقل بتأمين الطرق، بطريقة سريعة وبشكل مستمر كي يستطيع المواطن التنقل بأمن وسلام ودون عناء، بل تكفلت الدولة بحماية أموال وممتلكات الغائبين بل كانت تسير الجيوش من أجل كفالة وحماية حقوق الغائبين [٦]

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٥٠.

(٢) نظام الرك الناصري: الروك مصطلح مصرى قبطى معناه عملية قياس الأراضى وحصرها وتسجيلها وتثمنيها، تقدير درجة خصوبة تربتها، وعلى هذه الأسس يتحدد خراجها وضريبة الدوله المفروضه عليها. وهو مصدر الفعل الثلاثي راك ومعناه في الأراضي الزاعية في بلد من البلدان لتقدير الخراج المستحقة عليه لبيت المال وقد استعملت للقيام بعملية قياس الأرض وحصرها في سجلات وتقدير درجة خصوبة تربتها وتقدير الخراج عليها؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٨٤١؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص٩٠.

(٣) ابن ابيك: الدر الفاخر، ص٢٨٦.

(٤) الجسور: هي الطرق المرتفعة على جانب النيل وفروعه لحفظ البلاد من خطر الفيضان وكانت نوعان: جسور عامة وجسور سلطانية تقوم الدولة باصلاحها قبل بداية الموسم؛ القلقشندي: صبحي الأعشى، ج٣، ص٤٤٨؛ المقريزي: إغاثة الأمة، ص٤٦.

(٥) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص٢٠٦.

(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠٦.

كما فعل السلطان بيبرس حيث اصدر أوامره إلى واليه بإرسال حملة عسكرية الى جزيرة دهلك للحفاظ على حرية التنقل وفي سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٤م[١] ولقد إنتهج المماليك للحفاظ على تجارهم مصالح رعاياهم، ولتوفير قسط كبير من حرية التنقل للمواطن وأصحاب رؤوس الأموال بين أقاليم الدولة، دون التعرض لمنافسة الأجانب، فقد انتهجت سياسة خاصة في تأمين الطرق التجارية والموانئ حيث يمنع دخول أي سفن أو تجار أجانب غير المسلمين بحيث حرص المماليك على ألا يعرف هؤلاء الأجانب طرق التجارة المارة في بلاده[٢] ما أدى إلى ازدهار التجارة في البحر الأحمر ووصل التجار إلى السودان الغربي والأوسط والنوبا وإلى بلاد الحبشة والدول الإسلامية على ساحل البحر الأحمر[٣] ومن أوجه اهتمام المماليك بحق التنقل هو حرصهم على حرية التنقل فقد حرصوا على إصلاح الطرق فقام السلطان الناصر قلاوون بإصلاح طريق الحج وذلك بإزالة الصخور منها ليتمكن سالكوها من عبورها بدون مشقة[٤] ووسع السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرض العقبة حيث اصطحب معه مائة رجل من الحجارين وأصلحوا الطريق ووسعوها وأزالوا صخورها ما أدى إلى سهولة صعودها[٥] فضلاً عن اهتمام الدولة بطريق الحج وتكفل بحمايته من كل الأخطار المحتملة والعمل على توفير المياه وتوفير الأسواق وإقامة إصلاحات في الحرمين المكي والمدني وتخصيص الأوقاف لها للإنفاق على صيانتها وعلى موظفيها[٦] حيث كان يخرج الحجاج باحتفال كبير يهز مشاعر الحجاج ويوقظ فيهم روحانية الأراضي المقدسة فيزدادوا شوقا لأداء فريضة الحج وكان موكب الحج يحمل معه كسوة الكعبة المشرفة[٧] ونتيجة للحروب والنزاعات التي كانت تسود أغلب الدول الإسلامية وانهيار الخلافة الإسلامية في بغداد وانهيار الدولة الإسلامية في الأندلس والإشكاليات في بلاد المغرب العربي كل ذلك أدى ذلك كله إلى هجرة وافدة إلى سلطنة المماليك لما تتمتع به من أمن واستقرار في تلك الحقبة[٨] واستقبل سلاطين المماليك هذه الوفود القادمة إليهم من بلاد المغرب العربي استقبال الأخوة واختصوهم بمساعدات كبيرة وقام بعض السلاطين بتأمين إقامتهم في السلطنة وأوقفت

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٥٠.
(٢) عطية، سليمان: سياسة المماليك، ص٥٦-٥٧-٥٨.
(٣) عمار، حامد: علاقات مصر المملوكة، ص١٩٩.
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٦٠.
(٥) المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٦٠.
(٦) بكر: سيد عبد المجيد: الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، ص٩٢-٩٨.
(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٧٥.
(٨) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٤٠١.

باسمهم الأوقاف العظيمة وجعلت للإنفاق عليهم[١] فضلاً على أن المهاجرين المغاربة كانوا ينظرون إلى دولة المماليك وسلاطينها نظرة الفاتح والحامي للإسلام والمسلمين حيث كانوا يلقبونهم بحماة الإسلام ويطلبون منهم النصرة والنجدة[٢]

وعين السلطان الناصر كاتباً يسعى إلى التعرف على القادمين من بلاد الأندلس والمغرب، ويؤَّمن إقامة كل من يجده منهم ويحسن ضيافته، واذا كان من أهل العلم يأمر بملازمته[٣]، وقدم إلى الدولة الكثير من الرحالة جاءوا بطلب العلم أو التجارة أو السياحة أو استكشاف تلك الأرض، فأمنت لهم الدولة أماكن الإقامة والأطعمة والأشربة وأكرمتهم، ما نم عن أخلاق وطباع سلاطين المماليك، واهتم الرحالة بوصف تلك البلدان التي زاروها في عهد سلاطين المماليك، وبيَّن ما بها من إنجازات علمية وأدبية وطبية وطرقها وحصونها وقلاعها وجبالها وصحاريها وبحارها ومجتمعاتها وأخلاقها وطباعها[٤]، ووفد إلى مصر بعد التحالف بين السلطان الظاهر بيبرس والخاقان بركة خان[٥] عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م، الكثير من المغول وخاصة مغول القبجاق المسلمين بعائلاتها إلى سلطنة المماليك[٦] ورحب بهم السلطان الظاهر بيبرس وأكرمهم وأمَّن لهم إقامة آمنة في حدود الدولة وأطلقت على هذه الفئة اللاجئة اسم الوافدين[٧]، ولقد كان الرخاء الاقتصادي والاستقرار السياسي وأنظمة الدولة التي تحمي وتصون الحق في الإقامة والتنقل لمواطنيها والوافدين كل ذلك كان من عوامل جذب وتشجيع المغول الهجرة إلى دولة المماليك جماعات وأفراد، واستفاد منهم سلاطين المماليك لأنهم أصحاب براعة عسكرية وعارفين بأساليب القتال والفروسية حيث كان لهم بأس شديد في القتال، وكان لخبرتهم دورٌ في إحراز النصر مع تمام قاماتهم وحسن صورهم[٨].

---

(١) ابن حجر: إنباء القمر بأبناء العصر، ج١، ص١٤٤.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٣، ص١٢٤.

(٣) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص١٠٥.

(٤) البلوي: تاج المفرق عن مقدمة المحقق، ج١، ص٨٩.

(٥) هو السلطان بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان، وهو ابن عم هولاكو، وكان بركة خان هو زعيم القبيلة الذهبية، أو مغول الشمال، وابن عم هولاكو،أعلن بركة خان اعتناقه الإسلام في ١٢٥٢م، ثم تولى الحكم سنة ١٢٥٧ بعد وفاة سرتق بن باتو خان حيث كان يدين بالولاء لخان المغول الأعظم مثل أخيه باتو، تحالف مع الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام، أحد سلاطين دولة المماليك البحرية؛ المقريزي: السلوك ج،١ ص٤٧٩؛ ابن كتير: البداية والنهاية ،ج١٣، ص٢٣٤، العريني ،السيد الباز: المغول، ص٢٨٢.

(٦) ابن عبد الظاهر: الوض الزاهر، ص١٧٨.

(٧) المصدر نفسه: ص١٣٥

(٨) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٤٥٨.

وتروي المصادر أن علاقات دبلوماسية قامت بين السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وسلطان المغول الأمر الذي أدى إلى تأمين الطريق إلى حجاج المغول [١]، بل وصل الأمر في دولة المماليك أن أصدرت قوانين تسمح للمنوعين من دخول الدولة زيارة أقاربهم، بل ومن حقهم الإقامة في أراضي دولة المماليك [٢].

وكان سلاطين المماليك حريصين على حفظ حق الإقامة لأهل الذمة، فسُمح لهم بالإقامة في البلاد، وسمح لهم بلبس عمامة بيضاء إن أرادوا ذلك، وسمح لهم بحقهم في الأعمال العامة وإحياء شعائرهم الدينية وحماية كنائسهم وإنصافهم في حال اعتدى عليهم أحد من المسلمين[٣].

ومع أن المماليك أمنوا إقامة كريمة لرعياهم في مملكتهم وأمنوا لهم حركاتهم وأصلحوا لهم الطرق وحموا تجارتهم وحفظوا بيوتهم وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم، إلا أن هذا لا يمنع وجود بعض الحوادث التي تؤكد متابعة الدولة لكل من بتجاوز قوانين الدولة ويعتدي على حقوق الأخرين فكانت الدولة تقوم بنفي بعض المتهمين عندما تثبت ادانتهم وتورطهم في أعمال مخلة بالنظام العام أو جرائم او جنح، إلى النفي من البلاد ولقد كان النفي نوعين نفي في داخل البلد وخارجها وأهم المنافي الداخلية دمياط[٤]، وكان المنفيون إليها ينقسمون إلى قسمين؛ الأول: المنفيون السياسيون، والقسم الثاني: المنفيون الذين يتم نفيهم بعد إخراجهم من السجن[٥]. وقام المماليك لنفي السلاطين وأبناء السلاطين إلى خارج أراضي السلطنة[٦] ومنهم من نفي إلى القسطنطينية[٧] مثل أبناء الظاهر

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٤٩٦.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ص٩، ص٣٠٩.

(٣) موير، السير وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص٩٤.

(٤) دمياط هي بأقصى شمال مصر، وبعدها بـ ١٥ كم، يصب فرع دمياط من النيل في البحر الأبيض المتوسط عند رأس البر. يفصلها شريط ضيق عن بحيرة المنزلة، وإلى الجنوب الغربي تمتد مزارع وجه بحري (دلتا النيل) وسهولها. وهي من أجمل مدن مصر حيث تتميز بسواحلها الطويلة المطلة على النهر والبحر وهوائها العذب وطقسها المعتدل الذي ينعكس على تصرفات شعبها، فسمات الدمايطة النشاط والجدية والإتقان في العمل وكثرة الإنتاج. ويعتبرميناء دمياط أحد أهم موانئ مصر فينشط استقبالاً للسفن وتتكثف فيه حركة البضائع. استخدمها المماليك منفى داخلي لبعض الأمراء الخارجيين وبعض أصحاب الآراء السياسية المغايرة للحاكم؛ ابن إياس: بدائع الزهور ،ج١ ،ق٢ ،ص٤٩١.

(٥) المصدر نفسه : ج١، ق٢، ص٤٩١.

(٦) ابن حجر: أنباء الغمر، ج١، ص٢٣٦.

(٧) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٤١١.

بيبرس بدر الدين سلامش[١] وإخوته[٢]، وذلك بأمر من الأشرف خليل وقد تم إخراجهم ليلاً من البلاد[٣]وظهر تقصير سلاطين المماليك في أواخر عصرهم أدى إلى هروب الكثير من سكان البلاد بسبب الأوبئة والجفاف[٤]، وأضف إليها المظالم الاقتصادية التي أمر بها بعض سلاطين المماليك والتي أثقلت كاهل الرعية والضيافة التي كان على الفلاحين تقديمها كهدايا من منتجات ريفهم لأمراء الإقطاع عندما ينزلون عليهم بإحدى إقطاعهم وأرهقت هذه الضيافة الفلاحين وظهر ذلك واضحاً سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م، زمن السلطان جقمق العلائي الظاهري[٥] [٦] حيث سوء الأحوال إلى احتجاجات ضد الحكومة وأُغلقت المحال التجارية والأسواق لتتطور في بعض الأحيان إلى مواجهات بين التجار الأوربيين والمسلمين بسبب منافستهم التجار المسلمين[٧] وكانت النفقات العالية لسلاطين المماليك وخاصة في عهد برسباي والذي كان مولعاً بالظهور، ما استلزم نفقات كثيرة، فقد بلغت حلة واحدة للسلطان ثلاثين ألف دينار، وازدادت إنتهاكات المماليك لحقوق الرعية فقد كان يقبض على النساء بغير حياء ولم تقف الأمور عند ذلك الحد بل اعتقل الصبيان أيضاً فاحتبس الناس في بيوتهم، وتجنبوا الخروج في الشوارع بل طال أيضاً تجاوزهم اليهود والنصارى وفرضوا عليهم ضرائب جديدة[٨]، ولكن في المجمل يمكن القول أن المماليك حفظوا الحقوق وحموها بالرغم مما ساد من مشاكل في آخر عهدهم، وهذا أمر بديهي في جميع الممالك عندما ينصرف الحكام إلى نزواتهم الشخصية وجباية الأموال وعدم الاهتمام بأمور العامة فتكثر المفاسد ويسود الجشع والظلم ولا يأمن الناس على حاجاتهم وأرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم[٩]

---

(١) الملك العادل بدر الدين سُلامش. (ولد في القاهرة سنة ١٢٧٢ م/٦٧١هـ – توفى في القسطنطينية سنة ١٢٩١م/٦٩٠هـ) ابن السلطان بيبرس. لقب بابن البدوية ونصب سلطاناً في عام ١٢٧٩م/٦٧٨هـ وهو في السابعة من عمره، بعد أخيه الملك السعيد نفسه، ليصبح سادس سلاطين الدولة المملوكية حكم لمدة مائة يوم؛ بن شداد، عز الدين: تاريخ الملك الظاهر، ص٢٣٣؛ بن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص٩٤.

(٢) العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٣٥٠؛ بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص١١٦.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٧٥.

(٤) المقريزي: إغاثة الأمة، ص٢٩، ٤٧.

(٥) الظاهر سيف الدين جقمق شركسي الأصل، اشتراه (الأشرف سيف الدين إينال العلائي) وقدمه إلى الملك الظاهر برقوق، فأعتقه واستخدمه. عاش نيفاً وثمانين سنة، وخلع بولده المنصور، برغبة منه إلية، لشدة مرضه. ومات بعد خلعه باثني عشر يوماً. وحبس في أيام الملك الناصر فرج، ثم أطلق وولي أعمال في دولتي الملك المؤيد شيخ، والظاهر قطز، إلى إن كان (أتابك) العساكر في دولة الأشرف برسباي. ولما مات الأشرف وولي ابنه العزيز يوسف استمر جقمق أتابك ومدبرا للدولة. وقام بعض المماليك فخلعوا العزيز، وولوه السلطنة، فانتظم له الأمر إلى إن توفي بالقاهرة، كان الظاهر جقمق ملكاً عظيماً جليلاً ديناً متواضعاً كريماً، وكان فصيحاً بالعربية، متفقهاً؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ،ص٢٥٥).

(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص١٢١٩.

(٧) لابدوس، إيرا: مدن اسلامية في عهد المماليك، ص٢٥٦.

(٨) موير، السير وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص١٥٥.

(٩) المصدر نفسه: ص٢٢٠.

# المبحث الرابع
# حقوق المرأة والعبيد والموالي

## حقوق المرأة:

شهد عصر المماليك تقدماً في حقوق المرأة، وكان لها دوراً بارزاً فيه ، فكان للنساء مشاركة في الحياة السياسية والعلمية والاجتماعية، وظهر في ذلك العصر العديد من النساء اللاتي برزن في السياسة والعلم والإحسان والأدب والفن والبر والدين والصلاح، واهتم سلاطين المماليك بحقوق المرأة، الأمر الذي أوصلها في بعض الأحيان إلى سدة الحكم، وهذا لا يمنع إنه في بعض المراحل المتأخرة من دولة المماليك امتهنت وأصبح دورها محدود في المجتمع، والجدير ذكره في دولة المماليك أن المؤرخين ذكروا أن أول سلطان كان يقف على سلطنة المماليك هي السلطانة شجر الدر[١]، وكانت زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب[٢] الذي توفى سنة (٦٤٧هـ-١٢٤٩م) أثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة الويس التاسع ملك فرنسا[٣]

ويرجع نسب السلطانة شجر الدر إلى أرمينيا وكانت صاحبة جمال ودهاء أهداها الخليفة العباسي المستعصم بالله[٤] (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٥٨م) إلى الملك الصالح في عهد والده السلطان

---

(١) الحريري: الأخبار السنية، ص٢٥١.

(٢) تولت عرش مصر لمدة ثمانين يوماً بمبايعة من المماليك وأعيان الدولة بعد وفاة السلطان الصالح أيوب، ثم تنازلت عن العرش لزوجها المعز أيبك التركماني سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م). المقريزى: السلوك، ج١، ٤٥٩.

(٣) الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب لقب بـ أبي الفتوح، (ولد بالقاهرة ١٢٠٥م / ٦٠٣ هـ – توفى بالمنصورة ٢٢ نوفمبر ١٢٤٩م / ٦٤٧ هـ). سابع سلاطين بني أيوب بمصر، حكم من ١٢٤٠م إلى ١٢٤٩م. أنشأ المماليك البحرية بمصر، ودخل في صراعات مع الملوك الأيوبيين في الشام، وفي آخر سنة من حكمه تعرضت مصر لحملة صليبية ضخمة عرفت بالحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا. توفي الصالح أيوب أثناء احتلال الفرنج لدمياط وخلفته أرملته شجرة الدر التي تحملت بجسارة عبء الدفاع عن مصر؛ المقريزى، السلوك، ١ج، ص٤٠٢، ص٢٦٩١.

(٤) المستعصم بالله: المستعصم بالله أمير المؤمنين وكان عمره يومئذ ستاً وأربعين سنة وأربعة أشهر، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله خمس وعشرون سنة، ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن، وله ثلاث وعشرون سنة، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم، وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب١٠٠٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٣٦.

الكامل[١] [٢]، وقامت شجرالدر بدور عظيم في حماية مصر حيث أخفت خبر موت زوجها السلطان الصالح لإبقاء الروح المعنوية للجند والشعب عالية في المعركة[٣]، ودارت الأمور في ديار السلطنة في فترة مرض وموت زوجها على أحسن وجه[٤]، وأصبحت سلطانة لمصر إلا أن اعتراض الخليفة العباسي المستعصم بالله أدى إلى تعيين سلطان غيرها، وذلك بعد زواجها من عز الدين أيبك[٥] من أمراء المماليك، وعين سلطاناً سنة(٦٤٨هـ-١٢٥٠م) [٦]

وجنبت شجر الدر بزواجها من عز الدين أيبك البلاد الحرب والاقتتال الداخلي، ولكن لم يدم هذا الزواج بسبب اختلاف شجر الدر مع زوجها في هجر زوجته الأولى، ورغبته الزواج بزوجة أخرى ابنة الملك الرحيم لؤلؤ [٧] صاحب الموصل، فتآمرت مع مماليك البحرية على قتله سنة

(١) الملك الكامل كان مولده في سنة ست وسبعين وخمسمائة، وكان أكبر أولاد العادل بعد مودود، وإليه أوصى العادل لعلمه بشأنه وكمال عقله، وتوفر معرفته، وقد كان جيد الفهم يحب العلماء، ويسألهم أسئلة مشكلة، وله كلام جيد على صحيح مسلم وكان ذكياً مهيباً ذا بأس شديد، عادل منصف له حرمة وافرة، وسطوة قوية، ملك مصر ثلاثين سنة، وكانت الطرقات في زمانه آمنة، والرعايا متناصفة، لا يتجاسر أحد إن يظلم أحداً شنق جماعة من الأجناد أخذوا شعيراً لبعض الفلاحين بأرض آمد، واشتكى إلىه بعض الركبدارية، إن أستاذه استعمله ستة أشهر بلا أجرة فأحضر الجندي وألبسه قباب الركبدارية، وألبس الركبداري ثياب الجندي، وأمر الجندي إن يخدم الركبدار ستة أشهر على هذه الهيئة، ويحضر الركبدار الموكب والخدمة حتى ينقضي الأجل فتأدب الناس بذلك غاية الأدب، وكانت له اليد البيضاء في رد ثغر دمياط إلى المسلمين بعد أن استحوذ عليه الفرنج لعنهم الله، فرابطهم أربع سنين حتى استنقذه منهم؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص،١٧٤.

(٢) اليافعي: مرآت الجنان، ج٤، ص١٣٧.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢،ص٣٠.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٧٣.

(٥) الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني الصالحى النجمي (توفى بالقاهرة عام ١٢٥٧). أول سلاطين الدولة المملوكية. نصب سلطانا على مصر في عام ١٢٥٠ بعد إن تزوجته وتنازلت له عن العرش شجر الدر سلطانة مصر وأرملة السلطان الأيوبى الصالح أيوب، وبقي سلطاناً على مصر إلى أن اغتيل بقلعة الجبل؛ المقريزى، السلوك، ج١، ص٤٦٣.

(٦) موير: تاريخ دولة المماليك، ص٤٣.

(٧) البدر لؤلؤ صاحب الموصل الملقب بالملك الرحيم كانت وفاته في شعبان من هذه سنة كم مائة سنة، وقد ملك الموصل نحواً من خمسين سنة، وكان ذا عقل ودهاء ومكر، لم يزل يعمل على أولاد أستاذه حتى أبادهم، وزالت الدولة الأتابكية عن الموصل، ولما أنفصل هولاكو قان عن بغداد بعد الوقعة الفظيعة العظيمة، سار إلى خدمته متاقيا له، ومعه الهدايا والتحف، فأكرمه واحترمه، ورجع من عنده، فمكث بالموصل أياماً يسيرة، ثم مات، ودفن بمدرسته البدرية، وتأسف الناس عليه لحسن سيرته وجودة معاملته، وقد جمع له الشيخ عز الدين بن الأثير كتابه المسمى بالكامل في التاريخ فأجازه عليه، وأحسن إلية، وكان يعطي لبعض الشعراء ألف دينار ونحوها، وقد قام في الملك بعده ولده الصالح إسماعيل؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص، ٣٨٣.

(٦٥٥هـ-١٢٥٧م) فدبرت قتله بعد أن حكم ما يعادل سبع سنوات[١]، ولم تدم الأمور لشجرة الدر كما خططت فألقى القبض عليها من قبل المماليك وسجنت في قلعة الجبل وكانت نهاية شجرة الدر القتل على يد زوجة السلطان عز الدين أيبك الأولى(أم علي)، وجواريها[٢]، وكان سلاطين المماليك يهتمون بحق بالمرأة، ويحترمونها، ويعطونها حقوقها، وكان السلطان عندما يتزوج ينعم على الرعية بشكل كبير وعظيم[٣]، واظهر سلاطين المماليك احتراماً للمرأة، وقدراً من التعظيم فكان السلطان الناصر محمد عندما يكاتب زوجاته وبناته يكاتبهم بأفضل كلمات التعظيم، والاحترام[٤] ونذكر هنا مشهد عودة زوجة الناصر محمد طغاي المعروفة (بأم إنوك) من الحج ومراسم استقبلها، في موكب عظيم بالقاهرة، وكان في استقبالها الأمراء مشاة[٥] حتى، وصلت إلى القلعة[٦]، وكان يختار لبناته الأزواج المناسبين، وكان يتابع شؤون نسائه وبيوته بنفسه[٧]، وكان للمرأة في مصر وبلاد الشام في الدولة دوراً بارزاً في الحياة العملية، والحضارة وخاصة في العلوم الدينية كالقرآن الكريم والحديث وأصبحت تلك النساء من مشاهير العلماء، والمفكرين في الدولة في مصر والشام، ولقد اشتهرت(ست الوزراء) [٨] وسمعت من والدها جزأين، وحدثت بدمشق، ومصر، وكانت آخر من حدثت بالمسند بالسماع، وقد حدث عدد من العلماء عنها، توفيت سنة(٧١٦هـ-١٣١٦م) وهناك عدد لا بأس به من النساء اللاتي ساهمن في إثراء الحياة العلمية، وكان للمرأة دور في الحياة الاجتماعية، ولعبت دورا مهماً في تقديم البر والإحسان والعبادة فضلاً عن العلم والحضارة، والزهد، والورع، وقد تركت آثاراً على الصعيد العلمي، والعمراني، والاجتماع، ونذكر من هذه النساء على سبيل التوضيح(أسماء بنت إبراهيم ) وهي من ربات العبادة، والزهد والصلاح، ولدت سنة (٦٤٦هـ-١٢٤٨م)، عملت بتلقين النسوة القرآن وتعلمهن العلم وتجتهد في ما يقربها إلى الله توفيت سنة(٧٠٨هـ-١٣٠٨) [٩] وأعطى سلاطين المماليك لبناتهم وزوجاتهم دور مهم في أعمال البر، والإحسان فكانت بنت السلطان الظاهر بيبرس تذكار بأي خاتون تُشرف على أعمال البر في

(١) المقريزي: ج١، ص٤٠٤.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٧٥.
(٣) المقريزي: السلوك،ج١، ص٩١٧.
(٤) القلقشندي: صبحي الأعشى،ج٧، ص١٨٢.
(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ح١، ص٤٥٢.
(٦) المصدر نفسه : ح١، ص٤٥٢.
(٧) الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص٦٨-٦٩.
(٨) بنت عمر بن أسعد التنوخي الدمشقي في علم الحديث ولدت سنة (٦٢٤هـ-١٢٢٦) الزركلي: الأعلام ، ج٣، ص٦٠.
(٩) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص١٢٩.

الدولة [١]، وكان للمرأة، وجود لافت في الفن، والأدب وكان عدد من النساء موهوبات في الفن وضرب العود والأدب والانفتاح على العلوم الأخرى مثل الغناء، ومن النساء الشهيرات في الغناء، والعود خوبي العوادة وكانت جارية للأمير بكتمر الساقي[٢][٣]، وازدخر ذلك العصر بعدد لابأس به من المغنيات أمثال (أردي كين بنت نوكاي بنت قطفان المغنية) وكانت معروفة بالغناء في زمن السلطان أشرف خليل[٤] وتزوجها[٥]

ومن الواضح أن الدولة في عهد المماليك منحت المرأة الكثير من حقوقها، وشاركت في الحياة العامة بكافة أشكالها وكافة علومها، الأمر الذي أدى إلى ظهور عدد كبير من النساء اللاتي أصبحن أعلاماً في تلك الحقبة، وما يدل على تمتع المرأة بنوع من التقدير والاحترام في تلك الفترة التاريخية أنها لقبت بألقاب عدة، ما يعكس تلك المكانة التي وصلت إليها المرأة، ومن هذه الألقاب(ست الفقهاء، وست الوزراء، وست العلماء، وست الشام، وست الخلق) من باب الفخر والتزكية[٦]، ولم يقتصر دور المرأة على تلقي التعليم في مكان قريب بل كانت المرأة تقصد البلاد البعيدة وترحل في طلب العلم، واكتشاف المعرفة على يدي كبار العلماء، والمحدثين، ونتيجة لطبيعة المجتمع، والحياة السائدة في ذلك الوقت كانت ترتحل بصحبة الأب أو الزوج أو غيرهما من

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٦٠.

(٢) بكتمر الساقي: هي بكتمر بن عبد الله الركني الساقي الناصري كان من مماليك المظفر بيبرس الجاشنكير ثم انتقل إلى الملك محمد بن ناصر بن قلاوون فحضيى عنده وجعله ساقياً وعظمت مكانته عند السلطان وكان لا يقترقان، وعظم ذكره عند الناس فإذا أهدى الناس إلى السلطان شيئا كان مثله لبكتمر فعظمت أمواله، قتل على يد السلطان الناصر سنة (٧٣٢هـ-١٣٣١م)؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٣، ص٣٩٠-٣٩١؛ العريس: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص٢٥٧.

(٣) أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٣، ص٣٩٠.

(٤) الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي (وُلد في القاهرة في عام ٦٦٦ هـ/١٢٦٧ م – توفى في تروجة قرب الإسكندرية في ١٢ محرم ٦٩٣هـ / ٣١ ديسمبر ١٢٩٣م)، هو ثامن سلاطين الدولة المملوكية البحرية.تولّى شؤون الحكم إلى جانب والده لفترة قصيرة من الزمن، وبعد وفاة الأخير نُصب خليل سلطانا في عام ١٢٩٠م وبقي حتى اغتياله في ديسمبر ١٢٩٣م، يُعتبر من أبرز سلاطين الأسرة القلاوونية والدولة المملوكية. أشهر إنجازاته فتح عكا والقضاء على آخر معاقل الصليبيين في الشام، بعد إن استمر وجودهم فيها مائة وستة وتسعين سنة. انجب السلطان المنصور قلاوون أربعة أولاد من الذكور وابنتين. الأبناء الذكور هم علاء الدين أبو الفتح علي، وكان أكبرهم، والأشرف صلاح الدين خليل، والأمير أحمد، وناصر الدين محمد، وكان أصغرهم. وكانت والدة الأشرف خليل هي "الست الخاتون قطقطية"؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢١٧؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ، ص٧١).

(٥) ابن حجر، الدرر الكامنة: ج١، ص٣٤٧.

(٦) ابن حجر، الدرر الكامنة: ج١، ص٢٢٧.

المحارم[١]، والأمر الذي دل على المكانة الرفيعة التي حصلت عليها المرأة في ذلك الوقت استدعاء الأمراء لها من أماكن عدة لتحدثهم بصحيح البخاري كما حصل مع ست الوزراء بنت عمر التي كانت تحدث بصحيح البخاري في بلد لم يقدر على شرحه والتحدث به كبار أئمتها وذلك لعلو سندها في روايته ، وللمرأة جهد واضح في التأليف فكان لها مؤلفات كثيرة كحال الرجال، ومنهن المحدثة فاطمة بنت محمد بنت أحمد السمرقندي قد صنفت وألفت مؤلفات عديدة في الحديث والفقه[٢]، ولم يقتصر دور المرأة على العلم والفقه فقط، فبرعت في مجال الشعر حتى فاق بعضهن الرجال، وكان لهن دواوين في الشعر[٣]، لم يقتصر دور المرأة في بناء المعرفة بل ساهمت في إنشاء المؤسسات والمراكز العلمية والدينية فكثرت المدارس والمساجد للعمل على نشر المعرفة والعلم من خلال الأوقاف[٤]، وكانت بعض النساء صاحبات المال يبنين المساجد، والمدارس وينفقن عليها بشكل كبير، ويوقفنها لأعمال الخير من خلال الصدقة الجارية، وتطهير الأموال[٥]، وكان للمرأة مكاناً كبيراً في المجتمع، وكتب الرحالة الذين مروا ببلاد الشام ومصر أن المرأة في تلك الفترة تمتعت بقسط وافر من التقدير والتكريم، والكل يحرص على صيانة شرفها والدفاع عنه، ومعاملتها معاملة حسنة، وفق تعاليم الإسلام[٦]

وحصلت المرأة في زمن دولة المماليك على قدر من حقوقها، واحترامها، ولا بد من ذكر أن تلك الفترة كانت فترة صراعات، وحروب فكثرت فيها الجواري، فشاع فكرة أن المرأة مخلوقة للمتعة والاستغلال فقط، وقد شغف الأمراء والحكام باقتناء الجواري ودفع الأموال الطائلة في شرائهن حتى أصبحن كأي سلعة تباع وتشترى بشكل يومي بين الحكام والأهالى وعامة الناس، وكانت تباع في أسواق الرقيق كما تباع المواشي، وكان الدلال يجيد عرض البضاعة بإظهار محاسنها من جمال، وصوت عذب، وأشكال الفتنة، والإغراء[٧]، وجرت العادة أن تُمتهن الجواري وتستخدم للإغراءات الجنسية، واللذة، والغناء، والطرب[٨]، وأعطى امتهان الجواري الحق المطلق لصاحبها التصرف بها إما يبيعها، أو يبقيها، أو يتزوجها، ويضمها إلى حريمه ما أدى الى فتور

(١) حميد، عفاف عبد الغفور: جهود المرأة، ص٢٥٢.
(٢) كحالة، عمر رضا: أعلام النساء، ج٢، ص٤٧.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٨٦؛ كحالة، عمر رضا: أعلام النساء، ج١، ص١٧٤.
(٤) ابن جبير: الرحلة، ج١، ص١٠٤.
(٥) أبو المجد، زينب: أوقاف النساء، ص٢٠.
(٦) عبد الرازق: المرأة، ص١٥.
(٧) الأصفهاني: الأغاني، ج٥،ص٨٠.
(٨) رمضان: المتجمع، ص٩١-٢٧٧.

العلاقة بين الرجل والمرأة الحرة برغبة الرجال، وكبار الدولة الزواج من الجواري[١]، وقد زاد زهد الرجل في العصر المملوكي في المرأة الحرة بسبب ما يقدمنه الجواري من إغراء ومتعة جسدية[٢]، الذي أدى إلى قيام مجتمعات نسائية قائمة بذاتها، ولا شك أن مكانة المرأة الحرة في المجتمع المملوكي تأثرت بشكل كبير بسبب الجواري[٣] وأدى اختلاط الجواري بالنساء إلى ظهور عادات سيئة مثل تعاطي الحشيش داخل المجتمعات النسائية، ومع كثرة الفتوحات في مصر والشام ساد الجنسين التركي، والمغولي على ذوق رجال ذلك العصر حيث أصبح الجمال العربي درجة ثانية[٤]، وكان للإمارات الصليبية دور كبير في تدهور سمعة المرأة في ذلك الوقت بما فيها من فواحش وانحلال أخلاقي داخل تلك الإمارات [٥]

## حقوق العبيد والموالى:

عجت الدولة في العصر المملوكي بالعبيد، والموالي، ، حيث تألف الجيش المملوكي من فئات عدة منهم المماليك السلطانية، وهم مماليك السلطان نفسه هم أعلى طبقة في الأمراء، وهنالك المماليك الأجلاب الذين تم شرائهم من سوق العبيد أو من عدة بلدان[٦]، وجماعات المماليك الذين ينتقلون إلى خدمة السلطان بعد وفاة سادتهم من الأمراء، أو بعد عزل الأمراء، ومصادرتهم، وهناك فئة أخرى من المماليك هم أصحاب الإقطاعات وأرباب الوظائف في الدولة ويعرفون باسم أجناد الأمراء، وفئة ثالثة وهم مجموعة مختلفة من أصناف المماليك لهم بعض الأعمال الخاصة[٧]، وهناك فئة رابعة تضم أبناء الأمراء كان لهم امتيازات في الدولة وأطلق عليهم اسم(أولاد الناس) [٨]، وكانت عناصر الجيش المملوكي خليطة من الأجناس فمنهم من الترك ومنهم من بلاد القبجاق وموطنهم الأصلي حوض نهر أرتش (نهر ارتش في روسيا، الذي يبلغ طلوله ٢٧٥٨ ميل)، ومنهم من الجنس الخوارزمي والتتاري [٩]، وفي تلك الفترة نشطت حركة جلب الرقيق من العناصر التترية على يد التجار وأقبل الملوك والأمراء الأيوبيون على شراء عدد كبير من الرقيق، لإدخالهم في

(١) الصلابي: المغول بين الإنتشار والإنكسار، ج١، ص٥٩.
(٢) بهيم: المرأة في حضارة العرب، ص١٠١.
(٣) أمين: المجتمع المصري، ص٣٥٢-٣٥٣.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٠٩.
(٥) برأور: عالم الصليبين، ص٢٢.
(٦) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١١٦.
(٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٨٦.
(٨) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٩٠-١٤٠.
(٩) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٤٧٠-٤٧٤.

الجيش، ولخدمة مصالحهم والمحاربة من أجلهم، وكان السلطان الصالح أيوب ابن السلطان الكامل قد قام بشراء عدد كبير من المماليك واعتمد عليهم بدلاً من العنصر الخوارزمي وذلك ليحفظ لنفسه الحكم، وجعلهم من خيرة جنوده(١)، ولذلك فإن معظم سلاطين المماليك هم أساساً عبيد اشُتروا في غالبيتهم من بلاد القبجاق كحال السلطان عز الدين أيبك والسلطان قطز وبيبرس وقلاوون(٢) وكان يعتمد سلاطين المماليك على أجناسهم في أعداد الجيش المملوكي كي يحافظوا على جنسهم لذلك كثر شراء العبيد، وسبيهم في دولة المماليك، فعلى سبيل المثال لم يكتفِ السلطان الظاهر بيبرس بما كان يسبيهم من الحروب من بلاد القبجاق أثناء حروبه مع المغول والسلاجقة(٣)

واشترى أعداداً كبيرة من العبيد المغول وصار الكثير من مماليك المغول على هذه السياسة، فكان شراء المماليك سياسة عند أغلب سلاطين المماليك في تلك الحقبة(٤)، ومع كثرة الحروب بين المماليك والمغول والصليبيين عجت أسواق الشرق بالعبيد، والرقيق من كثرة السبي من النساء والصبيان وبيعوا في أسواق مصر والشام(٥)، وخاصة في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون(٦)، فشهدت تجارة الرقيق في ذلك الوقت رواجاً كبيراً فجاءها التجار من كل حدب وصوب(٧) كما أن الحروب في تلك الفترة نجم عنها الكثير من الرقيق والعبيد بل أدى الى أكثر من ذلك فكانت أقوام من عدة أجناس تقوم بالهجرة إلى بلاد الشام ومصر في عهد المماليك بما تنعم به من أمن وأمان وازدهار اقتصادي وما وصلهم من أخبار عن إحسان سلاطين المماليك للوفود القادمة وإكرامها(٨)، واعتنى سلاطين المماليك بالعبيد والرقيق، وأدخلوهم في الجيش، واعطوهم الإقطاعات(٩)، واهتموا بهم، وتزوجوا منهم، وتزوج الناس أيضاً من بناتهم، واندمج بعضهم في الجيش، ودخلوا الإسلام، واختلطوا بأهل البلاد(١٠)، ومع تلك المكانة التي حظي بها العبيد والرقيق في عهد المماليك إلا أنهم في أغلب الأحيان كانوا يتعرضون لعقابات شديدة في حال تمرد أحد الأمراء على السلطان فكانت تصادر كل ما تحت يد الأمير من رقيق، وجنود، وأملاك وتصل

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٤٠.
(٢) المصدر نفسه: ج١، ص٣٦٧.
(٣) العيني: عقد الجمان، ج٦، ص١١.
(٤) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج٨، ص٩٧.
(٥) بيبرس الداوادار: زبدة الفكرة، ص٢٦٨.
(٦) المصدر نفسه: ص٣٨٤.
(٧) المصدر نفسه: ص٤٥٥-٤٦٠.
(٨) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣، ص١٨٩-١٩٤.
(٩) المصدر نفسه: ج٣، ص٣٥-٣٨.
(١٠) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج٨، ص٢٠٧-٢٠٨.

الأمور في بعض الأحيان إلى قطع أيديهم وأرجلهم وألسنتهم، وسَمل العيون، وتوزيعهم على الأمراء فيما بعد[١]، وكان الأمير عندما يغضب على أحد جنوده يقوم ببيعه لأمير آخر ما أدى إلى ضياع حقوق الرقيق في بعض الأحيان[٢]، وأنفق سلاطين المماليك أموالاً كثيرة في شراء المماليك، والسخاء في الصرف عليهم في بعض الأحيان فيصل سعر المملوك إلى ألف دينار، وبعضهم وصل سعرهُ إلى مائة ألف درهم أحياناً مما شجع الآباء على بيع أبنائهم في مصر والشام[٣].

واشتري سلاطين المماليك الرقيق من بيت مال المسلمين ما جعلهم ملك للدولة، فلا يجوز لأي سلطان أن يحتفظ بمماليكه لنفسه ولا لأولاده من بعده لأنهم اشُتروا من بيت مال المسلمين[٤]، لذلك كان عند موت السلطان يتم وضع كل ما تحت يده من مماليك، وعبيد، واموال ورقيق إلى السلطان الجديد، وذلك بعد إفتاء القضاة للسلطان بجواز ضمهم إلى حاشيته، وأخذ كل ما عند السلطان المتوفى من رقيق وعبيد لأنهم ملك للدولة[٥]، وكان بعض السلاطين يقومون بمصادرة أموال المخالفين لهم، وما تقع أيديهم عليه، ففي عهد السلطان على بن شعبان[٦] قام هو ونائبه بكتمر الحنبلي بالقبض على الأمراء المتهمين بقتل والده، وقام بمصادرة موجوداتهم ونسائهم وبناتهم لصالحهم[٧]، وكثر العبيد والجواري في المجتمع المملوكي حتي أصبحتٍ الجواري تشكل نسبة كبيرة في المجتمع، وكنَ من ربات الحسن والجمال، فتزوج منهن الكثير من عامة الأهالي في المجتمع الإسلامي، وكثيراً ما كان يتم شراء العبيد والرقيق بذلك العصر من أسواق الرقيق المنتشرة

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص٤٩-٥٠.
(٢) أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٣، ص١٤٢٢.
(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣، ص٣٤٨.
(٤) أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج١، ص٣٦٨-٣٦٩.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢٥٥-٢٥٧.
(٦) السلطان شعبان الملك الأشرف زين الدين شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون الذي تولي حكم مصر سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م بعد قضائه علي الأتابك يلبغا العمري،وفي عصره راج سوق العلم والعلماء، وبسبب تآمر الأمراء عليه اغتيل في عام ٧٧٨هـ ودفن في قبة مدرسة أم السلطان شعبان بمنطقة الدرب الأحمر بجنوب القاهرة، ولد أبو المفاخر شعبان بن حسين في عام ٧٥٤هـ (١٣٥٣م)، وأصبح سلطاناً على مصر يوم الثلاثاء الخامس عشر من شهر شعبان لعام ٧٦٤هـ (١٣٦٣م)، وتمكن السلطان شعبان بن حسين من محاربة الفرنجة في طرابلس (الشام)، ومن حماية أراضيه من تقدمهم؛ وقتل ألفاً من جنودهم. وأصبح السلطة الوحيدة في البلاد، وحكم بدون الرجوع إلى الأمراء للمشورة؛ وكان محبوباً من رعاياه ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٣٠٢؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٣٤.
(٧) أبو المحاسن: الدليل الشافي على المنهل الصافي، ص١٦٤؛ المشريبني، البيومي إسماعيل: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية، ج١، ص٧٣

في مصر وبلاد الشام[١]، ولقد وصلت بعض الجواري إلى أماكن كبيرة في قصور سلاطين المماليك[٢]، ومع ذلك لاقت فئة العبيد من النساء معاملة سيئة في كثير من الأحيان، حيث يحق لمالكها بيعها، أو إهدائها، أو إكراهها على أن تفعل ما لا تريد، وتجبَّر السادة على عبيدهم، وأذاقوهم أصنافاً وألواناً من العذاب، والقهر، والعزل، والحبس، والحرمان[٣]، وساد في ذلك العصر الزواج من الجواري لقلة تكاليفهن، وكثرة عددهن[٤]

ولقد اهتم المماليك في أول عصرهم بالرقيق فكانوا يشترونهم صغاراً ويكفلون بتربيتهم تربية دينة إسلامية تتناسب مع طبيعة المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه، ولكن مع امتداد فترة حكم المماليك بدأت الدولة تهتم بشراء الرقيق كبار السن وذلك لرخص أثمانهم، ما أدى إلى عدم السيطرة عليهم وأصبحوا مصدر قلق للدولة وللسلاطين أنفسهم لأنهم لم يتلقوا التدريب والتعليم الديني المناسب ولتغلغل المعتقدات التي كبروا، وتربوا عليها، فضاق سلاطين المماليك بهم ذرعاً ومن تصرفاتهم وهددوا باعتزال المنصب مثلما فعل السلطان قيتباي الذي هدد المماليك الجلبان بترك المنصب والذهاب الى مكة[٥]، وكذلك فعل السلطان قنصوه الغوري ولم يكتفوا عند هذا الحد، بل كانوا يؤثرون المال على الصالح العام فكثرت المصادرات من أجل إرضائهم وسداد حاجاتهم ودفع رواتبهم[٦]، واهتم المماليك بالرقيق اهتماماً كبيراً حيث حرص السلطان بيبرس على استقدامهم بشكل كبير وفعل كل ما بوسعة لتأمين، وصولهم لدولة المماليك، حيث عقد السلطان بيبرس المعاهدات مع البلدان المصدرة للرقيق، والبلدان التي تمر من خلالها قوافل الرقيق إلى مصر، وهي بلاد القبجاق، والإمبراطورية البيزنطية، وسلطنة سلاجقة الروم فعقد اتفاقاً مع بركة خان زعيم القبيلة الذهبية في القبجاق لتأمين الأعداد اللازمة من الرقيق على اعتبار أن مدينة سراي التي بنيت في عهده أضحت سوقاً عظيماً لتجارة الرقيق الأبيض رقيق الترك والشراكسة والروس والمجريون، كما عقد اتفاقاً مع الإمبراطور البيزنطي ميخائل الثامن باليولوغوس[٧] بحيث سمح له بمرور سفينتين مصريتين مشحونتين للمماليك عبر المضائق من البحر الأسود إلي البحر الأبيض ذهاباً، وايابا مرة

(١) عاشور، نظم الحكم، ج١، ص٣٢٢.
(٢) رمضان، المجتمع، ص٩١.
(٣) عاشور: المجتمع المصري، ص١٣٤.
(٤) على، السيد علي: الجواري، ص٣٧.
(٥) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣، ص٢٩٣.
(٦) المصدر نفسه: ج٣، ص٢٧١.
(٧) حكم كامبراطور بيزنطي ٦٧٠-٦٨١هـ ،١٢٥٩-١٢٨٢م. كان ميخائيل الثامن مؤسس الأسرة البالايولوگية التي حكمت الامبراطورية البيزنطية حتى سقوط القسطنطينية في ١٤٥٣م؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١، ص٢٧٠-٢٧٢.

في السنة، في حين عقد اتفاقاً مع عز الدين كيكاكوس[١] سلطان سلاجقة الروم لتسهيل الحصول على الرقيق من أسواق آسيا الصغرى، وتسهيل مرورهم عبر الأناضول، أو الموانئ التابعة لهذه السلطنة[٢]، وشرع السلطان الظاهر بيبرس في جلب أعداد كبيرة من الرقيق الذين كانوا ينقلون عبر الأناضول إلى موانئ آسيا الصغرى الجنوبية، والجنوبية الغربية، أو من بلاد القبجاق عبر المضايق إلى ميناء الإسكندرية ودمياط[٣]

واعتنى سلاطين المماليك برقيقهم عناية خاصة حيث ربوهم وأعدوهم وعلموهم على الجهاد وغزو الأعداء، وكان السلطان قلاوون يشرف عليهم ويحسن إليهم ويتدرب معهم ويعطيهم حقوقهم، فكان يعاملهم معاملة الأب لأبنه بل وأعز من الأبناء[٤]، وكان يهتم بأمر طعامهم، نظافته وحسن طهيه ومواعيد تقديمه لهم ويتفقد جودة اللحوم المقدمة لهم، ويختبر الطعام بنفسه في جودته أو عدمها، فإن رأى فيه عيباً، وبخ المشرف على ذلك وعاقبه [٥]، ولم يكتفِ بذلك بل حرص على تدريب مماليكه بنفسه ويشهد تدريبهم وتطوير قدراتهم القتالية[٦]، وكان يختار لهم أحسن الثياب، وأفضل الزي ليسهل عليهم الحركة، ومن الواضح أن المماليك اهتموا بالرقيق في معظم أوقاتهم وأعطوهم الكثير من حقوقهم وهذا لا يمنع أن يكون هناك في آخر عهدهم بعض التجاوزات والأعتداء على حقوق العبيد وظلمهم والأعتداء على أرواحهم، وأبنائهم، وحرياتهم، ولكن في المجمل حرص المماليك على طائفة العبيد لأنها كانت العماد الأساسي لجيشهم وقوتهم لذلك حافظوا على حقوقهم وعلى حمايتهم وتدريبهم وتطوير قدراتهم [٧]

(١) عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، أحد أمراء دولة سلاجقة الروم وهو أكبر أبناء كيخسرو الثاني. وقد كان في سن الشباب عند وفاة والده سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م، وقد شارك في حكمه أحد إخوته أو كليهما وهما: ركن الدين قليج أرسلان وعلاء الدين كيقباد الثاني؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١، ص٢٧٠-٢٧٢.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٩.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٢٨٨.

(٤) العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٣٨٥.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٢١٣.

(٦) عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص١٣٦.

(٧) السيد، حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص١٣.

# الفصل الثالث
# الحقوق الاقتصادية في دولة المماليك.

**ويشتمل على خمسة مباحث :**

**المبحث الأول: الحق في العمل.**

**المبحث الثاني: الحق في الملكية الخاصة والعامة.**

**المبحث الثالث: الحق في العدل الضريبي وفق الضوابط الشرعية.**

**المبحث الرابع: الحق في تعبيد الطرق وحفظها.**

**المبحث الخامس: الحق في حماية الأسواق والأملاك.**

# المبحث الأول
# الحق في العمل

إن الناظر إلى دولة المماليك وسلاطينها يرى كم كان سلاطين المماليك حريصين على حق العمل وعلي حقوق العمال، فكثرت في عهدهم المشاريع الإنشائية، والعمائر، وبناء المساجد، والقلاع، وكانوا محبين للعمارة وبناء الجسور وتعبيد الطرق وري المزروعات، وفلاحة الأرض، فصرف الكثير من الأموال على الأيدي العاملة من عامة الشعب، وينفق على العمارة مبالغ كبيرة ثمن الإنشاءات، وأجور الأيدي العاملة[١]، واهتمت الدولة بجميع الصناع، والعمال من كل الأقطار حتى أصبحت دولة المماليك محط أنظار الصناع المهرة، والعمال لما يتمتعون به من حقوق، ومزايا، وأجرة، وافرة، فأصبحت أراضي الدولة عامرة بالإنشاءات، والمشاريع[٢] ويصف الرحالة ابن بطوطة العمارة في مصر في عهد الناصر بن قلاوون من حيث الشكل، والفخامة، والإحكام في البناء إلى جانب الأصالة والتفنن فقال: " أما المدارس فهي كثيرة لا يقدر أحداً عدها، وأما المارستان الذي بين القصرين في تربة الملك المنصور فيعجز الواصف عن وصف محاسنه فيوجد فيه من المرافق والأدوية ما لا يعد"[٣]، وكان الجيش في الدولة من أهم أعمدتها فشملت رعاية السلاطين للجيش كافة الجوانب فكان حق العمل من أهم الحقوق التي تكفلها الدولة لعناصر الجيش لأن الجندي في الجيش يعتبر عاملاً، وموظفاً لدى الدولة، فكان سلاطين المماليك يتفقدون عناصر الجيش فمن كان قد كبر وعجز عن الخدمة، وكان له في الإسلام سابقة، وقِدم وكان له ولد صالح أنعم عليه بخبز أبيه، وتقوم الدولة بصرف راتبٍ للشيخ يقيت به نفسه وتقر به عينه، وإذا كان الجندي يستحق الزيادة في راتبه فكانت تصرف له الزيادة، ومن كان من الجنود سيرته ذميمة وأحواله غير مستقيمة قطع راتبه وإقطاعه، وأعطي من يستحقه[٤].

وراقب السلطان الناصر جنوده عن كثب وعرف الجندي الجيد من غيره والقديم من المستجد لمعرفة المستحق من غيره[٥]، وأمنت الدولة حق العمل من كل جوانبه، وأوقفت الأوقاف على المدارس، والمساجد، والتعليم، وغيرها، وحرصوا على الإكثار من وقف الحوانيت، والمزارع والطواحين، والخانات، والأموال، بحيث يتم توظيف الكثير من المدرسين، والعلماء، والنساك، فقام

(١) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص١٧.
(٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٢٦٥؛ المنتقى من درة الأسلاك: ص١٢٩.
(٣) رحلة ابن بطوطة: ص٣٧،٥١-٥٦.
(٤) الدواداري: كنز الدرر، ج٩، ص٢٣٨-٢٤٠.
(٥) المصدر نفسه: ج٩، ص٢٤٠..

السلطان الظاهر بيبرس بعمل الأوقاف، وصرف ريعها رواتب لمن يذهب إلى القدس من الدارسين والمجاورين، والمسافرين، والزهاد، وأجريت عليهم الأرزاق[١]

وعاقب سلاطين المماليك من تعدى على العمال، وحقوقهم، والفلاحين ومزروعاتهم، فعندما توجه السلطان بيبرس إلى غزة اشتكى مجموعة من الفلاحين على مجموعة من المماليك تعرضوا لمزروعاتهم وكانت يستخدم ريعها للأوقاف، فأمر بعقاب من فعل ذلك عقاباً شديداً[٢]، وقد خُصصت الرواتب للعلماء، والمدرسين حيث خصص السلطان الأشرف برسباي رواتب لشيوخ الصوفية، وخصص لكل منهم ثلاثمائة درهم وعين قراءً للقرآن ممن هم أصواتهم حسنة في داخل الزوايا الصوفية، وصرف رواتب للخدام داخل الزاوية، لتنظيف الزوايا، والمساجد، وتوزيع المصاحف على المصلين، وتعطير الجو داخل المساجد، وتوفير رواتب للمؤذنين[٣]، ونظمت الدولة حقوق العمل والعمال من خلال تقسيم فترات العمل على العاملين، ففي عهد السلطان برسباي رتب الوظائف في داخل الحرمين الشريفين بالقدس والخليل، وجعل فترات المؤذنين ثلاث مناوبات بدل من نوبتين[٤] واعتنت الدولة بالفلاحين وأجرت عليهم الرواتب في الإقطاعيات، وكانت تساعدهم عندما يقع ضرر عليهم من جراء العوامل الطبيعية فيرفعوا عنهم الضرائب، والأقساط[٥]، وكانت الدولة تقوم بالمناداة على أهل الريف الموجودين في القاهرة للعودة إلى بلادهم من أجل زراعتها والاستفادة منها[٦]، ووفرت الدولة فرص عمل للعاطلين وإقطاعهم أراضي ليعمروها، ويصلحوها، ويقوموا بزراعتها، ويستفيدوا منها[٧]، واستمرت الدولة بالحفاظ على حق العمل والمحافظة على حقوق العمال إلا أن هذا كان يمر بفترات ازدهار وفترات انحطاط، فأحياناً الاستخفاف بحقوق العمال، فعلى سبيل المثال في العصر الثاني من عهد دولة المماليك وعندما كثرت النزاعات الداخلية بين المماليك أدى إلى التجني على العمال من حيث قطع رواتبهم مثلما فُعل بالجنود من المقاتلين الأحرار وأبناء الأحرار الذين عُرفوا بمصطلح (أولاد الناس والأعراب والتركمان) حيث تم قطع إقطاعاتهم وقطع رواتبهم الشهرية في أواخر ذلك العصر[٨] ويري الباحث

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٢١.
(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٢.
(٣) الزايدي: الأثر الثقافي للوقف، ص٩٨.
(٤) الحنبلي: الأنس، ج٢، ص٣٧.
(٥) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص١٢٠.
(٦) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٦٧٢.
(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص١٠٤.
(٨) ابن الصيرفي: أنباء العصر بأنباء العصر، ص٢٤،٢٣/٤٣،٣٤،٣٣

أن الدولة هي المسئولة عن تمويل إقامة الجسور وشق الطرق وبناء القناطر[١] من الخراج أي من بيت المال والإنفاق عليها كما يجب [٢]

وكان من الواجب أن تقوم الدولة أيضاً بعمارة الجسور السلطانية من أموال الديوان السلطاني في ذلك العصر، ولكن كانت تمول هذه الأعمال في كثير من الأحيان من الرعية نفسها خاصة إذا كان هناك مشروع، لإنشاء جسر جديد، وفي بعض الأحيان كان أمراء المماليك يشيدون الجسور ويحفرون الخلجان ويبنون القناطر من مالهم الخاص، ولكن في الغالب، كان الذي يقوم بهذه الأعمال الرجال والنساء وعامة الشعب، وقام السلطان الظاهر بيبرس بتخصيص وقفاً للإنفاق على عمارة الجسور سنة( ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م)، ويدفع رواتب العمال منه دون أن يُلزم أحداً أن يدفع درهماً[٣]، وكانت الدولة تقوم بجلب العمال لإنجاز المهمات والمشروعات، وكانوا يجمعونهم من القرى والشوارع والأسواق لتسخيرهم في هذه الأعمال، وكانوا يتعرضوا لكثير من أشكال الظلم والامتهان، وكان يجري عليهم العمل بنظام العمل بالسخرة[٤] والإجاعة والإرهاق وإعطائهم أجوراً زهيدة وإجبار العمال على العمل فوق طاقتهم[٥] وفي سنة( ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) أثناء العمل في الخليج الناصري[٦] حيث تجاوز الأمر في فرض السخرة على الناس في هذه الأعمال إي أخذهم من المساجد والجوامع وقت الصباح وأخذهم من الأسواق وربطهم بالحبال وحيث يرسلوا إلى مواقع العمل فكثيراً ما كان الناس ليعتصموا في البيوت خوفاً من نظام السخرة [٧]، خصوصاً بعد وقوع بعض الحوادث فمثلاً في سنة( ٦١٧هـ/١٢٢٠م ) عندما سقط أحد الجسور في الجيزة وتم جمع ناس كثيرة لسده ما أدى إلى موت نحو ثلاثون عاملاً في تلك الحادثة وقاموا أيضاً بأخذ سبعون عاملاً من شوارع القاهرة وأنزلوهم عنوة في المراكب لسد الجسر فغرقوا جميعاً[٨]، وكان العمال يعملون بنظام السخرة مقابل قوت يومهم، فعمل العمال من أجل الطعام فقط، ولكن في المقابل كان عندما تحتاج الدولة إلى الأيدي العاملة الكثيرة كانت تقوم الدولة بصرف أجور مجزية لهم[٩].

---

(١) القناطر: وهي جسر أو سد أو خزان تستخدم للري

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ٦٣٩.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٤٨-١٤٩.

(٤) يَشتغلُ سُخرة: يَشتغِلُ كَرهاً وقهراً وبِلا مقابِل، بلا أجرة؛ ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص٣٥٣.

(٥) السبكي: معيد النعم، ص٧٢.

(٦) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ١٦٢،١٦١،١٦٥.

(٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٢٧،١٢٦،١٢٥،١٢٤.

(٨) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢٦٢.

(٩) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص١٦٧.

ففي سنة (٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م ) قام منجك اليوسفي[١] ببناء جسر فأراد له الكثير من العمال حيث تم جلب العمال، والصناع ومن أراد العمل وإعطاءه أجراً عبارة عن درهم ونصف وثلاثة أرغفة، وفي سنة( ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م)، قامت الدولة بإصلاح قناطر شبين، وكان العمال والصناع الذين عملوا في إصلاحها صنفين منهم من عمل بالسخرة ومنهم من تقاضى أجراً عن عمله حسب حاجه الدولة له[٢]، وكانت تقوم الدولة في وقت الكوارث الطبيعية باستقدام العمال والفقراء للعمل فتبلغ أجرة هؤلاء العمال ما بين درهم إلى ثلاثة دراهم، وكثرت الأعمال في بيوت الناس بفعل الكارثة[٣]، وتجبر الدولة في وقت الكوارث العمال والناس على الأعمال فيخرج المماليك بأجنادهم، وأمرائهم، والفلاحين، وينادى في المدن في الناس للخروج للعمل ويتم تهديد الناس إن لم يخرجوا للعمل، ففي زمن السلطان الملك المؤيد الشيخ[٤] أقفلت الأسواق وخلت الطرق من روادها حيث نادى المنادي بالخروج للعمل بالسخرة، حتى وصل التهديد لمن لا يذهب إلى العمل ومن قام بفتح دكاناً بعقوبة الشنق فتوقفت أحوال الناس[٥]، وهكذا كان حق العمل وأحوال العمال متقلبة ففي بعض الأعمال يتم عملهم بالسخرة مقابل قوت اليوم، وفي بعض الأحيان وحسب حاجة الدولة تقوم بإعطائهم الأجور نقداً وكان العمال في مثل تلك المشاريع من الفلاحين والعامة ومن أهل المدن ولم تكن لهم أي رعاية أو حقوق تذكر فكانوا يعاملون معاملة سيئة للغاية، وكان الرجال يجرون إلى العمل جراً ما يؤدي إلى موتهم من قلة العناية[٦]، وفي الغالب كانت هذه المشاريع تفتح آفاقاً جديدة لفئة أخرى من الرعية، فيصبح مكان العمل نشطاً فيأتي إليه الباعة بمأكولاتهم ومشروباتهم وبضائعهم فيشتريها منهم العمال، وكان يأتي إلى مكان العمل المغنين من سائر البلاد ومعهم طبولهم أملاً في عطاء السلطان ففي سنة( ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) قام السلطان المنصور قلاوون

(١) هو الأمير سيف الدين منجك إلىوسفي تولي الوزارة بمصر في أيام السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر ومن بعده السلطان حسن، وذلك سنة ٧٥١هـ (١٣٤٩م). والأمير منجك إلىوسفي كان سلاحدارا في أيام السلطان الصالح إسماعيل، ثم حاجباً في دمشق، وفي أيام السلطان حسن رقاه إلى مقدم ثم وزيراً وزاد نفوذه. ثم عينه السلطان شعبان بن حسين نائباً للسلطان في دمشق ثم في مصر ومات في سنة (٧٧٦هـ) . (١٣٧٤م؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٣٢٢.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٧٣.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٥١.

(٤) هو السلطان المؤيد شيخ أحد سلاطين المماليك ؛ الضوء اللامع، ج ٣، ص ٣٧٦.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٠٢.

(٦) المصدر نفسه: ج٩، ص١٢٤.

وراقب بنفسه حفر خليج البحيرة ووزعت الأطعمة، والمأكولات لكل من يقوم بالعمل في ذلك الخليج[١].

وباشر سلاطين المماليك بأنفسهم بعض الأعمال، فقام السلطان الظاهر بيبرس بمشاركة العمال في عملية الحفر وكان يعمل معهم بنفسه ويحمل الأواني المملوءة بالتراب على كتفه، ما دفع المواطنين للمشاركة في تلك الأعمال[٢]، واهتم السلطان المنصور قلاوون بحق العمل والعمال فأنشأ لذلك المؤسسات وأجرى عليها الوظائف، وصرف للموظفين الرواتب، كان يقوم بصرف رواتب للموظفين بالقبة المنصورية فعين فيها خمسون مقرئاً وجعل لهم راتب عشرين درهماً وجعل للقبة إماماً وصرف له راتباً ثمانين درهماً في كل شهر، وصرف رواتب المؤذنين ويبلغ عددهم سبعة مؤذنين أربعون درهماً راتباً شهرياً لكل منهم، وصرف رواتب للمدرسين أربعين درهماً راتب شهري لكل مدرس، وصرف راتباً للطلاب داخل القبة في كل شهر ثلاثمائة درهم، وعمل فيها مكتبة، ووظف عليها أميناً بأربعين درهماً في الشهر، وصرف الرواتب على كل من عمل داخل القبة المنصورية من عمال نظافة، ومن مؤذنين، ومن طلاب، ومدرسين، وفراشين، وبوابين فكان يصرف راتباً شهرياً للبوابين خمسين درهماً لكل موظف[٣]، ومن الجدير ذكره أن الدولة حافظت على حق العمل، وحقوق العمال وأحاطت هذه الحقوق بسياج قوي من المحاذير والقوانين، والسبب المنطقي لذلك أنها دولة قامت بالأساس على جهود العمال، ولكن هذا لا يمنع وجود بعض القصور والإهمال والتعدي على العمال وحقوقهم وعدم إعطائهم حقوقهم، وذلك راجعٌ إلى الأزمات الاقتصادية في بعض الأحيان وتدني الوازع الديني عند بعض الحكام في بعض الفترات، وإلى ظلم الحكام للعمال وإنكارهم لحقهم في العمل، فانتشرت البطالة في أواخر عهد المماليك بسبب نفاذ الخزينة وإنفاق الأموال على الجند، ولكن لا بد للباحث من وضع الصورة كما هي، ففي عهد الحكام الأوائل كان هناك حقوق كثيرة للعمال والعمل وأوقفت الأوقاف لدفع الأجور وإيجاد فرص العمل للكثير من العاطلين وإجراء الأرزاق عليهم وحفظهم وحفظ بيوتهم.

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٤.

(٢) العيني: عقد الجمان؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٥٤.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ص١٠٠١؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ص٩-١٠

## المبحث الثاني
## الحق في الملكية الخاصة والعامة

عملت الدولة على حفظ حق الملكية الخاصة، وذلك من خلال حماية أصحاب الأملاك وحماية الملك الخاص والعام، فراقب السلاطين عمالهم وأمراءهم في حماية هذا الحق، فعندما كان يتعرض الملك الخاص للمصادرة بسبب منفعة عامة أو مصلحة عامة كبناء جسر أو حفر خليج كما فعل الناصر محمد سنة(٧٢٥هـ/١٣٢٥م) حين قام بحفر الخليج الناصري هدم الأملاك الموجودة في المنطقة ولضمان حق الملكية الخاصة للمواطنين قام بتعويضهم عن تلك الأملاك، فمنهم من عوض بالمال، ومنهم من عوض بأرض بديلة حتى وصل الأمر إلى أن قامت الدولة بنقل أنقاض تلك البيوت ودفعت أجرة عملية النقل لأصحابها(١).

وحرصت الدولة كل الحرص على حفظ تلك الأملاك وحفظ حقوق المواطنين وعدم الاعتداء عليها، فقام السلطان المنصور قلاوون بمحاسبة أميره (سنجر الشجاعي) لتعديه على أملاك الناس، وحقوقهم فقام بالتحقيق معه، وعندما تأكد السلطان من صحة تلك الأنباء قام بعزله سنة(٦٧٨هـ/١٢٨٨م)، وأمر، بمصادرة كل ما يملك من السلاح، والخيل، والذهب ورد المظالم إلى الناس(٢)، وحاسب السلطان المنصور قلاوون ناظر الزكوات وألغى وظيفته حيث كان يقوم بأخذ الزكاة من أموال المتوفى من أولاده وأقاربه ويصادر أملاكهم (٣)، والزكاة كما هو متعارف عليها في الدين الإسلامي تؤخذ من الشخص بقيمة ٢,٥% مرة واحدة في العام عندما تبلغ النصاب وتلغى عن الشخص في حال وفاته (٤) وراقب السلطان الناصر محمد أمراءه، وعماله في الولايات التابعة للدولة، وكان صارماً معهم في حال تعدى أحد منهم على أملاك المواطنين أو تعدى على الأملاك العامة(٥)،وعززت الدولة وحكامها الملكيات الخاصة فأقطعوا الأراضي للجنود والأمراء والفرسان وفي بعض الأحيان يقوم السلطان بإقطاع لخمسين شخصاً مرة واحدة(٦)، وفي أحيان أخرى كان يُقطع سلاطين المماليك لبعض الأمراء قرية أو مدينة بأكملها أو يتقاسم أميران هذه القرية مثلما فعل

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص١٤١.
(٢) ابن شاكر: عيون، ج٢١، ص٤١٦.
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٦٣.
(٤) ابن قدامة : المغني،ج٤، ص٥.
(٥) الدواداري: كنز الدور وجامع الغرر، ص٩
(٦) حمادة: الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، ص٣٠٠.

السلطان الظاهر بيبرس مع أمرائه[١] وقام السلطان بيبرس بإقطاع الأمراء وتمليكهم تمليكاً شرعياً لهم ولأولادهم من بعدهم[٢]

وكانت الإقطاعات توزع حسب الرتبة التي يتمتع بها الفارس، فكان الأمير صاحب الرتبة الكبيرة يقطع ما بين قرية إلى عشرة، والمملوك يحصل على قرية ونصف القرية، أما الجندي يحصل على نصف قرية[٣]، ووزعت الإقطاعات بحيث يكون للأمير الثلث من الإقطاع، وللجنود الثلثان، ولكل أربعين جندياً مقدماً، وتكون هذه الإقطاعات المقدمة من القاعات والعقارات والأبنية الضخمة[٤]، وكانت توزع الإقطاعات بالتدريج حيث كان يقطع للأمير نيابة صغيرة ثم تأخذ في الازدياد حسب بلاء الأمير وأهميته في الجيش، حافظ السلاطين على هذه الإقطاعات للجنود والأمراء وتجنبوا التعدي عليها أو تقليلها وذلك لضمان ولاء الأمراء وجنودهم وحفظ الدولة من النزاعات الداخلية ومراعاة حق الملكية الخاصة[٥]، وتقطع هذه الملكيات من الأراضي الرسمية للدولة والأراضي المحررة التي تسيطر عليها الدولة بعد الانتصار في المعارك على الأعداء، ما يعطي لهذه الملكيات الخاصة أهمية كبيرة لتبقى كقلاع داخل الأرض المحررة، وتصبح مصدر دخل للجنود ومنها الرواتب[٦] هذا بالنسبة للأملاك الخاصة.

أما بالنسبة للأملاك العامة فاهتمت الدولة بالأملاك العامة اهتماماً كبيراً وأمنت هذه الممتلكات، وأنفقت عليها بشكل كبير، ولم تسمح لأحد بالاعتداء عليها فكثرت الأراضي الموقوفة، وبنيت المدارس وقدمت الخدمات مباشرة لأفراد المجتمع فشيدت القناطر، وأنشأت المدارس للخدمات التعليمية بمراحلها المختلفة إبتداءً من الكتاتيب الخاصة بتعليم الأطفال حتى المدارس الخاصة بالتعليم العالي وأُنشأت البيمارستانات لعلاج المرضى، كما حرص سلاطين المماليك على تنمية هذه المرافق العامة، واعتبرها سلاطين المماليك حق للشعب، وقربة يتقربون بها إلى الله تعالى[٧]، وساهمت الدولة في حماية هذه الممتلكات ما أدى إلى ازدهار الحياة الاقتصادية في أراضي الدولة وأعفيت هذه الممتلكات العامة من الخراج والضرائب فكانت تقوم بالإنفاق على الفقراء

(١) المصدر نفسه: ص٥٠.
(٢) المنصوري: التحفة المملوكية، ص٥٥.
(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٢١٩،٢١٨،٢١٧؛ البيومي: النظم المالية، ص٢٣٨.
(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص١١٦.
(٥) القلقشندي: صبحي الأعشى، ج٤، ص٥١-٥٢.
(٦) أبو شامة: الروضتين، ج٤، ص١١٥.
(٧) ينظر: السيوطي: الإنصاف في تميز الأوقاف، ص٣٦١.

والمساكين وطلبة العلم[١]، وانتشرت هذه الأملاك بشكل كبير بسبب وقف الناس لأموالهم وخاصة الذين ليس لهم وريث، فينفقونهم على الوقف كي لا يأخذها ديوان المواريث[٢]، وساعد ازدهار المرافق العامة وصيانتها اهتمام الأمراء والسلاطين وغيرهم من الشخصيات الكبيرة في الدولة وإنشاء العمائر المحتوية على المساجد والأسبلة والمدارس وغيرها من العمائر الدينية والصحية ووقفها، وكان السلاطين والأمراء وكبار التجار يتباهون بعمائرهم وما أوقفوا عليها من أعيان وحرصهم كل الحرص على افتتاح هذه المؤسسات في احتفالات كبيرة[٣]

وأصبح الاهتمام بالمرافق والأملاك العامة والأوقاف سمة من سمات الدولة في ذلك العصر، وأنشأت المؤسسات الخيرية في شتى أنحاء الدولة ومن لا يفعل ذلك يعتبر شاذ عن قيم الدولة[٤]، فكان لسلاطين المماليك باعٌ كبير في حماية الأملاك العامة وانتشارها، بل كانوا يُنعمون على أمرائهم أراضي من أجل وقفها للمنشأت العامة، مثال ما قام به السلطان الناصر محمد سنة(٧٤١هـ/١٣٤٠م) عندما قام بتوفير أراضي من إقطاعات الأجناد وأنعم بها على الأمير (الطنبغا المرديني) [٥] لتكون وقفاً على جامعه، الذي أسسه خارج باب زولية وهو باب من أبواب القاهرة[٦]، وهذه الأملاك العامة ينفق عليها من بيت مال المسلمين، وريعها يذهب إلى بيت مال المسلمين، وأجاز بعض العلماء في عهد سلاطين المماليك أن للسلاطين الحق في التصرف في بعض أموال بيت المال بما فيه من مصلحة، وإن وقف بعض هذه الأملاك يعتبر من مصارف بيت المال وهو أمر جائز[٧] وانتشرت وتنوعت الأملاك العامة في الدولة بشكل كبير جداً، حيث كانت تشمل أراضي زراعية، ومباني كالقصور، والدور، والمدارس، ومكاتب الأيتام، والخوانق والروابط، والوكالات، والفنادق، والقياصر، والخانات والسبل وأحواض الدواب ومعاصر القصب والحمامات وغيرها من المرافق العامة[٨]، ومع كل هذه العناية التي أولاها سلاطين المماليك للأملاك الخاصة والعامة، إلا إن هذا لا يمنع وجود تعدٍ على هذه الأملاك في بعض الأحيان، ففي عهد الضعف قام بعض السلاطين بالتعدي على هذه الأملاك بشكل سافر لدرجة وصل الطمع عند

(١) ابن سلام: الأموال، ص٤٩٥-٤٩٦.
(٢) ينظر، القلشندي: صبحي الأعشى، ج٣، ٤٦٤؛ ابن مماتي: قوانين الدوانين، ٣١٩.
(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٤٠١.
(٤) أبو المحاسن: حوادث الظهور، ص١٤٣.
(٥) الطنبغا المرديني أحد أمراء السلطان الناصر محمد ومقرب منه ؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ٣٢٠.
(٦) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٥١٨.
(٧) السيوطي: الإنصاف في تمييز الأوقاف، ص٣٦١.
(٨) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٤١٠.

بعض سلاطين المماليك إلى درجة التسلط على أموال الأيتام وممتلكاتهم المحفوظة في ديوان الأيتام وتغليب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة[١]، علاوة على ذلك حدثت بعض الحالات من الاستيلاء الكامل على ممتلكات المواطنين بعد وفاتهم أو أثناء سفرهم أو غيابهم عن البلد[٢]، وحاول كبار المتنفذين الاستيلاء على أموال المتوفين مع وجود الورثة[٣]، واستند بعض الأمراء الكبار إلى قوتهم ونفوذهم في الأعتداء على المال العام والأملاك العامة الموقوفة على بيت المال للأعمال الخيرية[٤]

وتعدى بعض السلاطين والأمراء على الأوقاف ومصادرتها وهي مخالفة شرعية، وهذه الأوقاف والأملاك أوقفها أصحابها للخدمات العامة وكسباً للثواب من الله عز وجل لذلك يعد الاعتداء عليها اعتداءً على حق من حقوق الله وحد من حدوده، لأنها خرجت من ملكية البشر، وقد تجاوزت الأمور إلى حد السيطرة على هذه الأملاك واعتبارها منفعة خاصة بالسلطان، فلم يتورع "الناظر الخاص السلطاني"(عبد الوهاب النشو) من الاستيلاء على وقف الأشراف في بركة الحبش[٥] لمصالح السلطان الناصر محمد، وقام السلطان الكامل شعبان بالاستيلاء على أملاك العامة المخصصة للفقراء والحاجات الأساسية حيث حاول إضفاء الطابع الشرعي على تلك العمليات من خلال الإشاعة بأنها أخذت من أجل التجهيز الفرح الخاص بفريضة الحج ولكنها في الحقيقة أخذت بدون أي وجه حق، بل تُسمى نهب وسرقة لأنها تعدٍ على أملاك عامة لا يجوز للسلطان أو لأي من أفراد الدولة أو أمرائها استغلالها للمنفعة الشخصية[٦]،

ولوحظ في أواخر عهد دولة المماليك تزايد تعدي أصحاب القرار والنافذين في السلطنة على الأملاك العامة، ولكن كان للقضاة معهم وقفة جادة لوقف طمعهم في تلك الأملاك[٧]، ونتيجة لموقف القضاة المتصلب ضد السلاطين وأمرائهم وأطماعهم في الأملاك العامة أظهر هؤلاء الأمراء

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٩٣
(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٣٩٥.
(٣) المصدر نفسه :ج٣، ص٤٨٦.
(٤)المصدر نفسه: ج٢، ص٨٢.
(٥) بركة الحبش تقع في ظاهر مدينة الفسطاط وكانت أرضاً ميتة وكانت وقفاً على الأشرف والأقارب والطالبيين، وكانت أراضٍ زراعية واسعة شديدة الخصوبة كثيرة الإنتاج وكان ماء النيل يصل إليها بيسر عن طريق خليج صغير وكان الناس يقصدونها للنزهة، وقد استولى عليها الشنو؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص١٥٢-١٥٣-١٣٥٤-١٢٣٦.
(٦) المقريزي: السلوك، ج٢" ص٦٩٧.
(٧) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٨٩.

العداء للقضاة وأمعنوا في إهانتهم والحط من شأنهم والتعدي عليهم بكافة الوسائل[١]، الأمر الذي أدى إلى استنكاف القضاة عن تولي المناصب في الدولة وطلبهم الإعفاء من ذلك وبعضهم اعتكف في بيته حتى ويوافق على إعفائه[٢] وأدى إقبال أصحاب النفوذ والسلطة على الدنيا وغياب العدالة الاجتماعية، إلي شعور القضاة بالحرج والسوء من العمل مع أصحاب السلطة واجتهدوا على النجاة بأنفسهم من بيئة أساس التعامل فيها مبني على المنفعة الشخصية وحب الذات والابتعاد عن الدين[٣]

وسعى السلطان برقوق سنة(٧٨٠هـ/١٣٧٨م) في حل الأراضي الوقفية والأملاك العامة الموقوفة على الجوامع والمساجد والمدارس والأربطة والخوانق والزوايا وأوقاف أبناء السلاطين والأمراء من أجل تقسيمها إقطاعات وتوزيعها على المقطعين، وعارض القضاة هذه الخطوة لما تعنيه من تعدٍ واضح على الأملاك العامة والمؤسسات الدينية المختلفة، ولكن السلطان أصر على موقفه ونفذ رغبته في ذلك[٤]، وكان قرار القضاة في تلك الفترة لا يؤخذ به بل هو رأي شكلي فقط لإضفاء الشرعية على ذلك التعدي، فأدى تطاول أصحاب السلطة والنفوذ على القضاء من أجل مصالحهم الشخصية إلى ضياع هيبة القضاء ، فتجرأ بعض الأمراء على تكسير قراراتهم وإلغاء أحكامهم في بعض القضايا[٥].

ويرى الباحث أن دولة المماليك حافظت بالمجمل على حق الملكية الخاصة والعامة وحمت الملاك وأملاكهم من عبث العابثين وتجاوز الطامعين وازدهرت الأملاك العامة في ذلك الوقت مع وجود بعض القصور في بعض الفترات ، ويرجع ذلك إما لغياب الوازع الديني عند بعض السلاطين وحاجتهم للصرف على ملذاتهم الشخصية، أو لصغر سن بعض السلاطين وتفرد الدائرة المقربة منهم ما أفقدهم السيطرة عليهم فيتجنوا باسمهم على الأموال الخاصة والعامة.

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٤٤٥.
(٢) المصدر نفسه: ج٢، ص٢٨٣.
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢١٦.
(٤) أبو المحاسن: النجوم، ج١١، ١٦٦.
(٥) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٣٦٠-٣٦١.

## المبحث الثالث
## الحق في العدل الضريبي وفق الضوابط الشرعية

نظمت الشريعة الإسلامية النظام المالي ووضعت من التشريعات ما يصون التوازن الإنساني ويحقق العدالة الاجتماعية والأحوال الاقتصادية وفق تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، منعاً للاحتكار والنهي عن الربا وتنظيم العقود وتحريم الغش، وحسب تعاليم الدين الإسلامي لا بد من حسن المعاملة، والصدق والأمانة والوفاء في الكيل والميزان، والنهى عن اكتناز الأموال وأوجب الزكاة والبذل ودعا إلى التكافل، وإشاعة الحب والخير بين الناس، ما جعل دولة المماليك تهتم بجمع الضرائب وفق الضوابط الشرعية، وإزالة ما يختلف مع الشرع في الضرائب المفروضة على الناس، فكان للضرائب قسمين موارد شرعية، وموارد غير شرعية، فالضرائب الشرعية كانت تتمثل بضريبة الأرض أو الخراج وكانت تتفاوت وفقاً لدرجة خصوبة الأرض من ناحية وزيادة المحصول ونقصه من ناحية أخرى، أما الشرعية فهي الزكاة وهي المفروضة وفق تشريع الشريعة لمن وجبت عليه الزكاة وكان مخيراً بأدائها للدولة أو يفرقها بنفسه، وهي تقدر بحوالي من ٢-٢,٥% أو ما يؤخذ من مواد عينية مثل: المواشي والغنم والإبل[١].

والجوالي وهي الجزية المقررة على أهل الذمة الذين يسكنون في ديار المسلمين وتوضع في بيت مال المسلمين وتنفق على القضاة وأهل العلم، وضريبة الثغور وهي ما يؤخذ من التجار الواصلين في البحر إلى الدولة وهي بقيمة العُشر من البضاعة، وأباح لهم المذهب الشافعي بزيادة هذه الضريبة أكثر من العشر كما أباح لهم بخفضها عن العشر ويمكن أن يلغي هذه الضريبة في حال كانت بلاد المسلمين بحاجة لهذه البضائع، واخذت الدولة ضريبة الخمس عن كل ما يجلبه التجار الأجانب من بلاد الإفرنج[٢]، والدولة تأخذ أموال من مات وليس له وارث تحت مسمى المواريث الحشرية وتؤخذ ضريبة سك النقود فيؤخذ من صاحب الذهب أو الفضة أو النحاس ضريبة مقابل ضرب معدنه وتحويله إلى دنانير أو دراهم وضبط عيارها[٣]، وتأخذ الدولة ضريبة على المعادن المستخرجة من باطن الأرض[٤]، وهناك ضرائب غير شرعية وهي المكوس ولا يوجد لها

(١) عاشور، سعيد: مصر في عهد دولة المماليك البحرية، ص٢١٥.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٣.
(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٤٤.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٥٩.

تأصيل شرعي، ابتكرها بعض السلاطين لجباية الأموال دون وجه حق، وأخرى كانت موجودة سابقاً قبل عصر المماليك، حيث أحدث السلطان قطز مكوساً كثيرة لأجل جمع المال وقتال المغول[١]

ومن أمثلة هذه المكوس (مكس) ساحل الغلة وهي ضريبة كانت تفرض على التجار والغلات، وكانت تؤخذ من الولايات ومن عرفاء الأسواق وأيضاً تؤخذ من السجون على كل شخص يسجن[٢]، وضرائب تؤخذ من المعاصر والمراكب على كل راكب وتؤخذ ضريبة البشارة حين تفتح الحصون فيأخذ المبشر ضريبة من المواطنين على قدر طبقاتهم ويجمع في ذلك مالاً كثيراً [٣]، وتمادى سلاطين المماليك في أخذ الضرائب والمكوس ففرضت على كل ما يباع في الأسواق أو يدخل إليها[٤]، وتؤخذ المكوس على ما يَرِدُ إلى الدولة براً وبحراً وما يرد إلى الموانئ [٥]، وتؤخذ المكوس من قبل مباشري الدولة، وجبايتها حيث خصص لهم مقاعد في الأسواق[٦]، والدولة تأخذ مكوساً على الغلال فيؤخذ على كل إردب من القمح والشعير والفول يباع أو يشترى نص درهم فضة، ثم ارتفع ليصل درهم واحد من الفضة[٧]، ومن السلع التي فرضت عليها المكوس الفواكه المزروعة داخلياً، أو المستوردة من الخارج[٨]، وأخذت أيضاً مكوساً على الكتان والزجاج والزيت والصابون والأرز[٩]، وكانت المكوس في عصر المماليك كثيرة لدرجة أنها شملت كل شيء تقريباً، وتسمى هذه المكوس بأسماء عدة منها الحقوق السلطانية أو المعاملات الديوانية[١٠]، وكان المواطنون في الدولة يدفعون الضرائب الشرعية بدون تذمر ولا ملل وذلك لاقتناعهم بأنها واجبٌ عليهم وليست مناً وإحساناً منهم، وكان تجار الكرامية يدفعون زكاتهم للدولة تقديراً منهم لرعايتها لهم وتجارتهم في البر والبحر[١١]

وقد حرص سلاطين المماليك على مراعاة الضوابط الشرعية في أخذ الضرائب فكان السلاطين يشاورون القضاة، قبل الإقدام على فرض أي ضريبة مثل السلطان برسباي الذي عقد

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج١، ص١٠٥.
(٢) المصدر نفسه : ج١، ص٨٨.
(٣) المصدر نفسه : ج١، ص١٠٦؛ عاشور، سعيد: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٥٩-٦٥.
(٤)ابن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ص١٥٠.
(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج١، ص١٠٩؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٥٨.
(٦) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٦٠٢.
(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٣٣١.
(٨) أبو المحاسن: النجوم، ج١٤، ص٩٤.
(٩) المقريزي: إغاثة الأمة، ص٧٧.
(١٠) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج١، ص١٩١-١٩٥.
(١١) المقريزي: السلوك، ج١، ص٧٤.

مجلس القضاة الأربعة ومشايخ العلم سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٤م) ليستشيرهم في مسألة جواز أخذ الزكاة من التجار فكان رأي القضاة والعلماء عدم جواز أخذ الزكاة من التجار عدا زكاة التجارة، حيث يحق للإمام أن ينصَّب رجلاً يأخذ من المسلمين ربع العشر ومن أهل الذمة نصف العشر ولا يؤخذ من المسلمين في السنة أكثر من مرة [١].

وألتزم السلطان برسباي بما أقره العلماء والقضاة ولم يأخذ من الأموال إلا ما أقره المجلس[٢]، واختلفت الضرائب المفروضة في الدولة من فترة إلى أخرى تبعاً للظروف الاقتصادية وأهمية السلع في تجارة الدولة، ففي حين كانت تفرض مكوس جديدة على سلع معينة كانت تلغى المكوس على سلع أخرى[٣]، وفي غالب الأوقات كان الفقهاء والعلماء يعترضون على تحصيل هذه المكوس ويعتبرونها مالاً حراماً أو يرغب السلطان نفسه في إلغاء هذه الضرائب ويتقرب إلى الرعية وإقامة العدل فيها، وفي أوقات المجاعات والأوبئة يلغون الكثير من تلك الضرائب غير الشرعية[٤]، وكانت تلغى هذه المكوس وتعود مرة ثانية وبصورة أشد مما كانت عليه من قبل، فقام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإلغاء الكثير من المكوس والضرائب في نظام الرك وهي نفسها الضرائب والمكوس الذي قام بإلغائها السلطان الظاهر برقوق عندما تولى زمام الحكم[٥]، ولم يستمر هذا الإلغاء طويلاً فرجعت بعد خلع السلطان برقوق فعادت تأخذ من الناس على سابق عهدها[٦].

واجتهد سلاطين المماليك في رفع الضرائب المجحفة عن الناس مثلما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون[٧]، وقام السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بإلغاء مكوس تجارية مثل مكس باب الجابية[٨]، وكان مقداره خمسة دراهم حمل جمل من القمح[٩]، وإلغاء مكس الصالحية[١٠]، وكان لهذه المكوس سبب كبير في ارتفاع الأسعار، ما ساعد على خفض هذه الأسعار بإزالة هذه المكوس ورفع الظلم عن الرعية[١١]، لأن هذه الضرائب لا تخضع لقانون معين

(١) ابن حجر: أبناء الغمر، ج٣، ص٢٢٧.
(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٩٣.
(٣) ابن الصيرفي: أبناء العصر، ص١٤٩؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ص٥٧٥.
(٤) قاسم، عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري، ص٧٥.
(٥) العيني: عقد الجمان، ج٢٤، ق٢، ص٢٦١؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٢١١.
(٦) ابن حجر: ابناء القمر، ج٢، ص٢٣٧.
(٧) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص٣٥؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٦٩.
(٨) الصفدي، ابن أبيك: الوافي بالوفيات، ج١٣، ص٤٠٢؛ المقريزي: القفي الكبير، ج٢، ٨٠٢.
(٩) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص١٦٦.
(١٠) البرازلي: المقتفى، ج١، ص٣٣٠.
(١١) ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج١، ١١٩.

بل تجمع حسب ظروف الدولة سواءً الاقتصادية والسياسية ما جعل تحديد قيمتها بيد السلاطين وكيفية جمعها[١]، ويرجع السبب في إبطال هذه المكوس لتسهيل التجارة والتقليل من خسائر التجار وعمل على تخفيض الأسعار وأبطل الرماية[٢] على التجار[٣].

وكان شأن السلطان الأشرف خليل شأن السلاطين الذين اجتهدوا للعمل على خفض الأسعار، وإزالة الكثير من المكوس المجحفة، والتخفيف من غلاء الأسعار على الرعية ونيل رضا الناس[٤]، ولعب القضاة دوراً بارزاً في إزالة بعض المكوس المفروضة على المواطنين بدون وجه حق، ففي عام( ٧٧٥هـ/١٣٧٣م ) نجح قاضي القضاة (ابن جماعة) [٥] في إقناع السلطان شعبان بن قلاوون على إلغاء ضريبة (ضمان المغاني) [٦] و(مكس القراريط) [٧] وتعرض المواطنين لكثير من الظلم نتيجة هذين المكسين[٨] ولكن سرعان ما تم إرجاع هذين المكسين وبعد ثلاث سنوات من إصدار المرسوم السلطاني الأول بإبطال المكسين المذكورين أصدر السلطان الأشرف شعبان سنة (٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، مرسوماً سلطانياً بإبطال هذين المكسين مرة ثانية[٩]، وحاول بعض الأمراء إعادتهما مرة أخرى طمعاً فيما يجلبانه من أموال، ولكن بعد الموقف الحازم التي اتخذه القضاة في هذين المكسين أدى إلى استمرار سريان المرسوم بصفة نهائية لا رجعة فيه[١٠].

---

(١) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٢١٠.

(٢) الرماية: وهي نوع من أنواع الزيادة في الربا أي كل ما زاد على الشيء فقد ارمي عله ارماءاً؛ ابن منظور: لسان العرب، ج١٩، ص٥٥.

(٣) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٢١٠.

(٤) الحجي، حياة: أموال العامة في حكم المماليك، ٢٢٩.

(٥) ابن جماعة: هو عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعدالله بن جماعة، عز الدين قاضي المسلمينٍ ولد سنة(٦٩٤هـ-١٢٩٥م) أكثر من طلب العلم والدروس والقراءة وأجاز له كبار المشايخ ودرس الحديث والفقه، كان متبحرا في رواية الحديث، كان قوي الحجة حسن الأخلاق كثير الفضائل ولي قضاة مصر سنة(٧٣٨هـ-١٣٣٨م)، كان حسن المحاضرة سليم النية محباً للعلم والفضل، عزل نفسه عن القضاة نهاية سنة(٧٦٦هـ)، توفى سنة(٧٦٧هـ-١٣٦٦م)؛ ابن حجر: الدرر، ج٢، ص٤٩٠.

(٦) ضمان المغاني: هي ضريبة يدفعها كل من يقيم عرساً أو يحتفل بمناسبة سعيدة مثل الختان وغيرها؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ص٢٦٦.

(٧) مكس القراريط: هي ضريبة تؤخذ من كل يشتري داراً بقيمة ٢٨ درهماً على كل ألف درهم، وكان لها ديوان يحصل بها هذه الضريبة، ولا تتم عملية بيع أو شراء إلى بدفع هذه الضريبة، ولا يشهد أحد على عقد البيع إلا بعد التأكد من وجود ختم الديوان بدفع الضريبة؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ص٢٦٧.

(٨) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٣٦٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٢-١٢٢.

(٩) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٢٦٦.

(١٠) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٦٥.

وحاول القضاة في كثيرٍ من الأحيان رفع الظلم عن المواطنين من خلال منع من يمارس الظلم من أصحاب السلطة على المواطنين من ممارسته، فكان أولئك المتنفذين يرتجفون خوفاً عندما يقف لظلمهم القضاة ويقومون بتأنيبهم على المظالم التي اقترفوها(١)

وتعرض القضاة إلى مضايقات كثيرة من أصحاب النفوذ الأمر الذي جعل بعض القضاة يعتزلون منصب قاضي القضاة مثلما حدث مع (ابن جماعة) فعزل نفسه عن وظيفة قاضي القضاة، لما أوقعه أصحاب السلطة من ضرائب وظلم على الرعية، وتهاون أصحاب السلطة في الدولة في الأمور الدينية(٢)، وكان القضاة يعزلون أنفسهم عندما لا يجدون مفراً لذلك بسبب الضغوطات التي تمارس عليهم من أصحاب السلطة بتمرير سياساتهم الضريبية والمالية على الرعية ومحاولة إجبارهم على تنفيذ، وإجازة أعمال غير شرعية، مما يدفعهم إلى ترك المنصب لضعفهم في مواجهة كبار الأمراء وتسلطهم، حتى وصل الأمر في بعض الأمراء والجشع إنهم قاموا بتعيين بعض الشخصيات في وظيفة قاضي القضاة تشَّرع لهم ما يريدون فرضه من الضرائب على الرعية(٣)، ولا بد من الإشارة إلى أن دولة المماليك ساءت الأحوال فيها في نهاية عهدها، ما أدى إلى تهاون السلاطين والأمراء في حق العدل الضريبي وفق الضوابط الشرعية، ما أدى إلى فرض ضرائب ومكوس غير شرعية على الرعية، ولتيسير فرض هذه الضرائب كان لا بد من وجود جهاز قضائي ييسر ذلك، حيث إن الأمير برقوق سنة (٧٨٢هـ/١٣٧٨م) قام بحل الأراضي الموقوفة على الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والزوايا والأربطة وتقسيمها وتوزيعها إقطاعات وعارض القضاة وشيوخ العلم هذه الخطوة لما فيها من تجني على أموال الأوقاف وأخذها بدون أي وجه حق، ولم ينجح سعيهم حيث أقر السلطان ما أراد ونجح في تنفيذ رغبته في ذلك(٤).

لا يمكن للباحث أن ينكر أنه في عهد دولة المماليك المزدهر كان هنالك رعاية لحقوق العامة وحفاظاً على أموال الرعية، وكان سلاطين المماليك إبان ازدهار دولتهم محافظين أن تبقى الضرائب وفق الضوابط الشرعية وإزالة ما يتعارض مع الشرع الحنيف من الضرائب وازدهرت التجارة وعمرت الأسواق وسيرت القوافل وساد العدل الضريبي في أراضي دولتهم.

(١) المصدر نفسه : ص١٦٥.
(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٣٣٣-٣٣٤.
(٣) أبو المحاسن : النجوم، ج١١، ص١٦٦.
(٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٣٤٥.

# المبحث الرابع
# الحق في تعبيد الطرق وحفظها

تمتعت دولة المماليك بموقع جغرافي مميز متوسط بين قارات العالم الثلاث، ما جعلها طريق التجارة الرئيس بين هذه القارات، فأصبحت التجارة مصدر دخلهم الأساسي، حيث أطلق على دولة المماليك في حينها زعيمة التجارة العالمية لما تتمتع به من زعامة دينية في المنطقة الإسلامية وبسط نفوذها على منطقة الحجاز تحديداً وبلاد الحرمين الشريفين، وما تنتجه الأراضي الزراعية من محاصيل فكان لابد على الدولة تعبيد الطرق وتأمينها وحفظها والعمل على تحسينها وإقامة الجسور التي تضمن انتقالاً آمناً للبضائع والأفراد والجماعات، فكلف بذلك المهندسون المهرة في عمارة هذه الجسور[١] واهتم سلاطين المماليك بهذه الجسور وإنشائها اهتماماً بالغاً وأكَّرموا المهندسين المشرفين على العمل بها لأهمية العمل الذي قاموا به[٢]، وتفقد سلاطين المماليك بأنفسهم هذه الجسور مثلما فعل السلطان الناصر محمد، حين كلف اثني عشر ألف رجل ليعملوا على بناء جسر يمتد من شابين القصر إلى بنهى العسل وهي مدن في مصر تقع على النيل ، واشتهرت بهذا الاسم لكثرة مناحل العسل فيها، وقام ببناء عدة قناطر على هذا الجسر لتمكين وصول المياه إلى الأراضي الزراعية المرتفعة[٣]، ومثلت طرق التجارة عاملاً أساسياً في ازدهار التجارة فكلما زادت الطرق وعم بها الأمن نشطت الحركة التجارية، فأمن المماليك الطرق التجارية مثل الطريق الساحلي من الإسكندرية إلى مكناس بالمغرب[٤]، وكانت على هذه الطريق حصون عدة، وإذا ظهر عدو يتم إنارة كل حصن للذي يليه فيصل خبر العدو في ساعات محدودة فيأخذ الناس والجنود أهبتهم وحذرهم[٥]، ومن حظ دولة المماليك كان تمركز المغول وسط آسيا كبير الأثر في تهميش طرق التجارة الأسيوية[٦]، ما أدى الى انتعاش طرق البحر الأحمر وموانئ مصر بشكل خاص، وكان لطريق البحر الأحمر دور مميز في نقل السلع الشرقية الى الغرب، فكان له الأثر الكبير على الاقتصاد في الدولة، وقام المماليك بأهم الإنجازات في النقل والمواصلات قيامهم بتنظيف الساحل الشامي من الفرنجة فبدوره أدى إلى انضمام هذه المدن التي كانت تحت سيطرة

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٤٨.

(٢) المقريزي :السلوك، ج٢، ص٧٢٠-٧٢١-٧٢٣.

(٣) المقريزي: المواعظ، ج٢، ص١٦٩-١٧٠.

(٤) مكناس مدينة بالمغرب في بلاد البربر على البر الأعظم بينها وبين مراكش أربعة عشر ميلاً نحو المشرق ومنا إلى فاس ميلاً واحداً؛ الحموي، ياقوت: المعجم، ج١، ص١٣٢.

(٥) البكري، المغرب: ص٤٣٢.

(٦) فهمي، نعيم: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص١٩١.

الفرنجة إلى سيادة الدولة، وبالتالي ربطها مع المدن الأخرى ما يسر عملية الدخول، والخروج منها دون مشاكل، وقام السلطان الأشرف خليل بتحرير قلعة الروم وضم أكثر من قلعة وحصن في الشمال(١)

ما ساعد على انفتاح المماليك على المناطق المتاخمة لبلاد الأرمن ومغول فارس وسمح للتجار المسلمين الوصول الى تلك المناطق دون اعتراضات، وأنشأت الدولة الفنادق والخانات والوكالات على طرق التجارة، وتم استقبال السلع التجارية الواردة إليهم عن طريق الموانئ الممتدة على سواحل البحرين المتوسط والأحمر، وطرق القوافل البرية التي ربطت بين النيابات التابع للدولة، والدول المجاورة لها في العراق وإفريقيا والأناضول والجزيرة العربية، مثل طريق الإسكندرية القاهرة وطريق القاهرة السويس وطريق القاهرة أسوان وطرق جدة، وغيرها من الموانئ الشامية، وكانت تستخدم هذه الموانئ للنشاطات العسكرية(٢)، وكان للموقع الجغرافي والأهمية الاستراتيجية وتوافر الأمن على الطرق المؤدية إليها أثر في الدور التجاري في هذه المدن، وكان اعتماد طرق تجارية معينة من قبل الدولة آثارها الواضحة في ازدهار بعض المحطات التجارية وتراجع محطات أخرى(٣)، واهتم المماليك بالطرق المؤدية إلى بلاد الحرمين والخاصة بمسير الحجاج لأداء فريضة الحج وأغلب طرق الحجيج تكون برية فكان الطريق الذي يسلكه حجاج مصر الطريق البري يمر من القاهرة إلى شبه جزيرة سيناء والعقبة وعلى امتداد الساحل الحجازي حتى ينبع، ومنها إلى مكة المكرمة، ومن ثم إلى ميناء عيذاب(٤) على الساحل الغربي للبحر الأحمر واهتم المماليك بطرق الحج وحموها من قطاع الطرق وعملوا على استتباب الأمن بها وحماية الحجيج والقوافل من اعتداء العربان عليه وتوفير المياه الكافية لهم ذهابا وإيابا، وحفر البرك والآبار وإقامة الأسواق التي تمدهم بالمؤن(٥)، وحمى سلاطين المماليك الطرق فقام السلطان قلاوون ومن خلفه من سلاطين المماليك بالضرب بيد من حديد على المعتدين على قوافل التجارة بين النيل والبحر الأحمر وخاصة قبائل الأعراب ومن سكنوا تلك المناطق، ودأبوا على سلب ونهب القوافل التجارية وقوافل الحجاج(٦).

---

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ٢٢٧.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص١٠٣.

(٣) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ص٣٦٩.

(٤) ميناء عيذاب: هي ثغر تجاري يقع على الشاطئ المصري للبحر الأحمر قبالة جدة على الشاطئ الأخر وتأتي إليها السفن من اليمن والحبشة والهند وكانت طريق الحج المصري يسير إليها وكذلك حجاج المغرب العربي وكانت ذات أهمية تجارية كبرى؛ الحموي، ياقوت: معجم البلدان،ج٣، ص٧٥١؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج١، ص٢٠١.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ص١٨٤.

(٦) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٨٥٨.

عامل سلاطين المماليك التجار المارين بثغورهم معاملة عادلة وأكرموهم[١]، وسيرت الدولة الأساطيل لحماية الطرق البحرية من القرصنة حتى أنه أصبح لا يواجه السفن في البحر الأحمر إلا الشعب المرجانية[٢]، فكان يتجاوزها البحارة بالسير نهاراً فقط وأمن المماليك هذه السفن وركابها ووصلت إلى الموانئ والثغور دون أن يعترضها أحد[٣]، وسيرت الدولة الجيوش لفرض الأمن وتأديب الجهات الخارجية التي تسبب الإزعاج والتخريب وتهدد التجارة وطرقها مثل حملة السلطان بيبرس على النوبة(٦٧٤هـ/١٢٧٥م)، والحملة التي أرسلها السلطان المنصور قلاوون عام (٦٦٠هـ/١٢٦٢م)، وقد نجحت هذه الحملات المتتالية في نشر الأمن وتأمين طرق التجارة بل وانتشر الاسلام في تلك البلاد [٤]، وبذلك نعم ميناء مصر النيل وتجارة النوبة والسودان بالهدوء والأمن وكثر اعتداء العربان على القوافل في الصحراء فقامت الدول بإرسال حملات متتالية لحفظ الأمن وتأديب المعتدين من العربان[٥]، واستمرت الحملات لتأمين الطرق وحفظها من القراصنة وبعض الحكام على جزر البحر الأحمر الذين كانوا يقومون بالقرصنة. ولم تقتصر جهود الدولة على تأمين الموانئ، والطرق البحرية بل نشرت الأمن في جميع الطرق في مصر وبلاد الشام، وأمر السلطان بيبرس بوضع قوات على طول الطرق ليؤمنوا الراجعين على أموالهم وأرواحهم ويؤمنوا التجار على تجارتهم[٦]، كما أمر الولاة في جميع أقاليم السلطنة بنزع السلاح من البدو، كما أمر باعة الأسلحة بعدم بيعهم الأسلحة[٧] وعمرت الثغور في عهد سلاطين المماليك وكانت مراكز للتجارة[٨]، وكان في بعض الأحيان تقوم الدولة بإصلاح الطرق وتعبيدها من أموال الديوان السلطاني ولكن في بعض الأوقات كان يتم تمويل هذه الأعمال من المواطنين ففي عام (٧٤٩هـ،/١٣٤٨م)و تم بناء جسر يدفع الماء تجاه ساحل القاهرة بعد أن كان قد تحول إلى ساحل الجيزة وبولاق وارتفعت أسعار المياه، ووجد الناس مشقة في الحصول على مياه الشرب وقرر السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون[٩].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤٢١.
(٢) المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص٢٥٢.
(٣) ابن حجر: أبناء الغمر، ج٢، ص٢٦٠.
(٤) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص٤٦.
(٥) الادريسي: نزهة المشتاق، ص٥٦.
(٦) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص١٩٨.
(٧) عطية، سليمان: سياسة المماليك، ص٦٨.
(٨) القلقشندي: صبحي الأعشى، ج١١، ص٤٢٠.
(٩) السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ولد في سنة ٧٣٥ هـ ١٣٣٤م، ولى الحكم سنة ٧٤٨ هجرية (١٣٤٧م) بعد أخيه الملك المظفر سيف الدين حاجي وعمره ثلاث عشرة سنة، ولم يكن له في أمر الملك شيئاً لصغر سنه، بل كان الأمر بيد أمرائه وما لبث أن بلغ رشده فصفت له الدنيا إلى أن اعتقل سنة ٧٥٢ هجرية الحكم إلى إن قتل سنة ٧٦٢ هـ –١٣٦١م؛ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٣٣٥.

تحصيل الأموال اللازمة للإنفاق على بناء هذا الجسر من الأمراء والأجناد والكتاب وأصحاب الأملاك وسائر المواطنين، وفرضت المغارم على الحوانيت والدور والبساتين والمدارس ولم يبقَ رجل ولا امرأة حتى جبوا منه حيث وقعت مظالم على المواطنين فكان الشخص الذي يفرض عليه درهمان يغرم بعشرة دراهم(١)، ومع ذلك لم ينجح المشروع، وفي أحيان أخرى يخصص السلطان وقفاً معيناً للإنفاق على عمارة الجسور والطرق كما فعل السلطان الظاهر بيبرس سنة( ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، وبعض الأمراء ينشئ القناطر والجسور ويعبد الطرق من ماله الخاص دون أن يلزم أحداً بغرامة كما فعل الأمير( بكتوت الخازندار) (٢) سنة (٧١٠هـ/١٣١٠م) (٣)، وفي الواقع اهتم سلاطين المماليك بشكل كبير في تعبيد الطرق وحفظها فحرص جل سلاطينهم بتأمين الطرق بما توفره من أرباح اقتصادية، وبما تدره على الدولة من أموال وحماية القوافل من العابثين وقطاع الطرق والسلب والنهب وتعبيد الطرق الواصلة إلى الأسواق وتجهيز الأسواق بطرق واسعة ليتسنى للتجار إيصال بضائعهم بكل سهولة ويسر حتى أصبحت دولة المماليك في ذلك الزمان صاحبة الاقتصاد الأقوى والأمتن في ذلك الوقت.

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ١٦٧.

(٢) الأمير بدر الدين، نائب بعلبك الخزندار بالشام كان مشكور السيرة كثير الصدقات، أستشهد على ابواب حمص وهو في الخمسين من العمر ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج٥٠، ص٣٤٩.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٤٩.

## المبحث الخـامـس
## الحق في حماية الأسواق والأملاك

أعطت الدولـة للأسـواق والأمـلاك أهميـة خاصـة، فكـان المماليك يحرصـون كل الحـرص علـى الاهتمـام بالأسـواق ونظافتهـا وأمـاكن إقامتهـا ووجودهـا فـي تجمعـات سـكانية، وكانـت تخضـع لرقابة من الدولة، وعينت الدولة موظفين ومسؤولين عن مراقبة الأسواق والضرائب وتنظيم الأسواق وتخطيطها، ووضعت على أرباب كل صنعة عريف، وكان العريف هو الواسطة بين الدولة، وأرباب البضـائع، وكـان العرفـاء خاضـعين لسـلطة المحتسـب[١]، الجدير بالـذكر أن نظـام العريـف أُخِذَ عن العصر الفاطمي[٢] واستمر العمل به في عصر المماليك وكان يفرض على العرفاء ضريبة ألغاها السلطان الناصـر محمـد بـن قـلاوون سـنة(٧١٠هـ/١٣١٠م) [٣]، وعَينـت الدولـة مـوظفين للإشـراف على الأسواق وإيراداتها ووجوه إنفاقها وكانت بعض الأسواق تابعة للدولة تدخل ضمن الإقطاعات، أو ضمن الأوقاف مثلها في ذلك مثل المدارس، والمساجد، والمارستانات[٤].

كـان المحتسـب فـي الدولـة هـو الموظـف المسـؤول المباشـر عـن الأسـواق، وصـاحب الإشراف الفعلي عليها وكانت وظيفته وظيفة راقية تأتي في المرتبة الخامسة في الوظائف الرئيسية فـي الدولـة، ويتـولى هـذه الوظيفـة شخصـية مرموقـة فـي المجتمـع مشـهود لهـا بالأمانـة، والاسـتقامة، وحسن السيرة، ونظافة اليد[٥]، وحرص سلاطين المماليك علي حماية الأسواق والممتلكات ومراقبتها

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة، ص٢٨.

(٢) العصر الفاطمي: هي إحدى الدُولُ والوحيدةُ بين دُولِ الخِلافةِ التي اتخذت من المذهب الشيعي (ضمن فرعها لإسماعيلي) مذهبًا رسميًّا لها. قامت هذه الدولة بعد إن نشط الدُعاة الإسماعيليّون في إذكاء الجذوة الحُسينيَّة ودعوة الناس إلى القتال باسم الإمام المهديّ المُنتظر، الذين تنبؤوا جميعًا بظُهوره في القريب العاجل، وذلك خلال العهد العبَّاسي فأصابوا بذلك نجاحًا في الأقاليم البعيدة عن مركز الحُكم خصوصا، بسبب مُطاردة العبَّاسيين لهم واضطهادهم في المشرق العربي، فانتقلوا إلى المغرب حيثُ تمكنوا من استقطاب الجماهير وسط قبيلة كتامة البربريَّة خصوصًا، وأعلنوا قيام الخِلافةِ بعد حين. شملت الدولة الفاطميَّة مناطق وأقاليم واسعة في شمال أفريقيا والشرق الأوسط، فامتدَّ نطاقها على طول الساحل المُتوسطيّ من المغرب إلى مصر، ثُمَّ توسَّع الخُلفاء الفاطميّون أكثر فضمّوا إلى مُمتلكاتهم جزيرة صقلية، والشَّام، والحجاز، فأضحت دولتهم أكبر دولةٍ استقلَّت عن الدولة العبَّاسيَّة، والمُنافس الرئيسيّ لها على زعامة الأراضي المُقدَّسة وزعامة المُسلمين؛ الطبريّ: تاريخ الرسل والملوك، ج١٠، ص٩٥.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٤.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٢٧١.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ص٤٥١.

من جميع النواحي الصحية والسعرية والكشف عن الغش والسرقة، ويتم ختم جميع المكاييل والأوزان من دار العيار ويتم إعطائها للباعة جاهزة لضمان عدم الغش [١].

كانت عناية المماليك بالأسواق تصل إلى درجة متابعة المحتسب وأعوانه لنظافة القدور والأواني التي تباع فيها الأطعمة والكشف عن البضائع الفاسدة ومصادرتها وإتلافها، وحرص السلاطين على إن تبقى الأسواق محمية وحفظها في وقت الأزمات الاقتصادية فقام السلطان الناصر محمد بن قلاوون في إحدى الأزمات وشح الخبز في الأسواق فأخرج القمح من المخازن السلطانية وأمر ببيعه وبالسعر الذي حدده المحتسب ويناسب أسعار السوق، وقام بمعاقبة بعض سماسرة الأمراء الذين باعوا بسعر أعلى من الذي حدده المحتسب فلم يجرؤ بعدها أي من الأمراء بفتح مخازنه إلا بأمر من المحتسب [٢]، وفي بعض الأحيان كان السلطان بنفسه يتولى وظيفة المحتسب [٣] لما لها من أهمية في مواجهة ارتفاع الأسعار كما فعلها السلطان مؤيد الشيخ سنة(٨١٨هـ/١٤١٥م)، وحاز المحتسب احترام الناس ورضاهم بحزمه ونجاحه في السيطرة على الأسواق وحمايتها من الاحتكار، والغلاء الفاحش، ومن الغش[٤]، وحارب سلاطين المماليك ظاهرة الضرائب غير المنصفة المفروضة على الأسواق مثل ضريبة المكوس وضريبة نصف السمسرة[٥] الذي ابتدعها أحد الولاة[٦]، وألغيت ضرائب عديدة مثل ضريبة مكس الجلود التي كانت تجبى من سوق النعال وسائر الأسواق[٧]، ومنحت الدولة التراخيص الرسمية لبناء الحوانيت والسقائف والمصاطب في الأسواق وتأثرت حركة الأسواق في عصر سلاطين المماليك بالقوانين التي نظمتها الدولة لحمايتها[٨]. وحافظت الدولة على الأسواق بحفظ التعاملات النقدية فحرصوا على صك عملة ليستخدمها الباعة في تعاملاتهم التجارية بدل التي كانوا يتعاملون بها الدراهم الكاملية التي صكت زمن الملك الأيوبي الكامل عام(٦٣٥هـ/١٢٣٨م) [٩]، وجعلها ثلاثة أثلاث، ثلثي الدرهم من فضة والثلث الأخير من نحاس[١٠].

---

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٦١.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ٣٩١.

(٣) العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص٣٤١.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٢٣٩.

(٥) كانت ضريبة نصف السمسرة تؤخذ من الأسواق من كل شخص يبع شيئاً بما قيمته ٢% من ثمن البيع، وكانت تقسم بين السلطان والدلال بالنصف؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٦.

(٦) السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٦٨.

(٧) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٥-٣٠.

(٨) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ص٤٧.

(٩) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٧؛ المقريزي: شذور العقود بذكر النقود، ص١٨١.

(١٠) المقريزي: إغاثة الأمة في كشف الغمة، ص٦٦.

واستمرت حتى عهد الظاهر بيبرس حتى ضرب الدراهم الفضية وأطلق عليها الدراهم الظاهرية وكانت تحمل رموز الدولة [١]، وحرص سلاطين المماليك على توصيل البضائع سليمة من الموانئ من الإسكندرية ودمياط وحماية هذه البضائع من الاعتداء عليها وتأمين حاميات لها حتى تصل إلى الأسواق سليمة مؤمنة[٢]، أمَنت الدولة الأسواق وسيروا إليها التجار من كل حدب وصوب وأصلحوا لها الطرق ليصل لها التجار بكل سهولة ويسر وعاملوا التجار الواردين إلى هذه الأسواق بالعدل والرفق[٣]، فكان سلاطين المماليك يبعثون إلى عمالهم في مختلف الثغور بأن ييسروا الأمور للتجار والأسواق التي يفدونها، حيث كتب السلطان المنصور قلاوون إلى التجار الأجانب ليشرح لهم عن محاسن الأسواق ورواجها وحركة البيع فيها واستقدم إليها التجار من الصين والسند والهند واليمن والعراق وبلاد الروم ووصف لهم محاسن أسواق مصر وأنشأ لهم الفنادق ليستريحوا فيها ويغريهم بخيرات الدولة [٤]، ووفد إلى مصر وبلاد الشام الكثير من الأجناس المختلفة للتعرف على أسواقها والتسوق منها وشراء ما يحتاجون منها من بضائع[٥]، وتنوعت الأسواق في المدن المملوكية تبعاً لنوع السلع التي تباع للناس وكانت هنالك أسواق شاملة لجميع أنواع السلع وأسواق متخصصة بسلع معينة وأسواق موسمية وأخرى يومية، ونظمت الأسواق ووزعت توزيعاً جغرافياً في المدن تبعاً للحركة التجارية في المدينة نفسها، ومن أمثلة الأسواق الدائمة التي تتفق مع طبيعة الحياة الاجتماعية مثل أسواق الملابس ومستلزماتها[٦]، وهناك أسواق للمواد الغذائية مثل سوق الدجانيين وهو سوق تباع فيه الطيور بكافة أنواعها، وهناك سوق للفاكهة بكافة أنواعها ومفتوحاً في الليل والنهار[٧]، وسوق بين القصرين، وهو من أسواق القاهرة القديمة التي وجدت زمن الفاطميين وكان كبيراً جداً يمكن إن يقف فيه عشرة ألاف فارس وكانت تباع فيه أصناف المأكولات من اللحوم والحلويات المصنعة والفاكهة[٨]، وأَمَنت الدولة أصحاب الأملاك على أملاكهم حيث قامت الدولة بحماية التجار وفنادقهم ووكالاتهم التجارية ما أدى في زيادة حركة التجارة فنشط العمل التجاري وسهلت مهمته ونظمت أموره وأُمنت سلامة التجار وحفظ بضائعهم

(١) القلقشندي: صبحي الأعشى، ج٣، ص٥٠٩.
(٢) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٨٥٨.
(٣) القلقشندي: صبحي الأعشى، ج١١، ص١٢٤.
(٤) المصدر نفسه: ج١٣، ص٣٤٠.
(٥) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٣٩٤.
(٦)المصدر نفسه : ج٢، ص٩٤.
(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٣٦٩.
(٨) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص١٠٣.

وكان يرفق للفندق حمام ومخزن وصحن داخلي يستخدم لخزن السلع ونزول الدواب فيه وأمنت الحماية لهذه الفنادق من الدولة [١].

وألحق بالفنادق حوانيت لعرض البضائع تمهيدا لبيعها أو نقلها للأسواق المجاورة، وكان يوجد أمام الفندق مساحات واسعة ومغروسة الأشجار لتجميل المنظر[٢]، ومن أمثلة هذه الفنادق فندق الكارم في الفسطاط الذي ينزل فيه تجار الكرامية[٣] وفندق مسرور القاهرة[٤]، وفندق الحصر المجلوب من الفيوم وفندق القصب وبعضها أقيم لحفظ التجار وأماناتهم[٥]، وحفظت الدولة المكاييل بتوحيدها حيث تم توحيد الوزن بالرطل كقاعدة أساسية لعمليات البيع والشراء، وكان الإردب مكيال مصر، ويمثل الدرهم القاعدة الأساسية في تقدير قيمة الأوزان والمكاييل ويختلف درهم الكيل في عياره عن درهم ووزن النقود[٦]، واعتمدت هذه الأوزان والمكاييل في جميع الأراضي الدولة[٧]، واهتمت الدولة بالأسواق والأملاك وأمنوا لها حق الحماية، ومع كل ما فعله المماليك وسلاطينهم للحفاظ على الأسواق والأملاك إلا إن في فترات الضعف كان كثير من هذه الحقوق تنتهك وتضيع وتكسد الأسواق وتصادر الأملاك ويُنهب التجار وتضيع البضائع وفي كثير من الأحيان يتم جباية الأموال من المواطنين، ففي عهد الظاهر بيبرس حدث كثير من المصادرات وحدث في أيامه حوادث جليلة، وقاس الملاك بمصر والقاهرة، وصادر أرباب الأموال حتى هلك الكثير منهم تحت العقوبة[٨]، وبلغت شراهة بعض رجال السلطة في ذلك الوقت في جمع المال حداً كبيراً إلى درجة إنهم لم يتركوا صاحب مال أو زراعة مثمرة إلا ألزموه بدفع مبلغ من المال لخزانة الدولة، وكان السلطان غير عابئ بما يصل إليه من شكاوى التذمر من رجال السلطنة [٩]، وكان يقوم بعض أولاد السلاطين من المماليك بالاستيلاء على بعض الأراضي ذات المواقع المهمة في الدولة بأسعار زهيدة رغماً عن ملاكها، بل إنهم في الغالب يمتنعون عن دفع ذلك السعر البخس ويعجز مالكها عن تحصيل حقه فيضيع بين أطماع المسؤولين والمتنافسين، كما حدث مع ابن المغربي عندما

(١) ماجد، عبد المنعم: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ج٢، ص١٢٤.
(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٩٢.
(٣) ابن دقماق: الانتصار، ج١، ص٣٥.
(٤) زيادة، نقولا: رواد الشرق، ص٢٠٢.
(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٩٢.
(٦) القلقشندي: صبحي الأعشى، ج٤، ص٣٧.
(٧) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ص٥٥٥.
(٨) النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص٣٦٣.
(٩) أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص١٣١.

استولى أولاد الملوك على أرضه وعجز عن تحصيل حقه، وفشل القاضي في مقاضاة المغتصبين فذهب ابن المغربي إلى السلطان الناصر محمد فأجبرهم بدفع المبلغ لابن المغربي[١] [٢].

واستمر كبار موظفي الدولة في أواخر الدولة المملوكية بجباية الكثير من الأموال من المواطنين، وعانى المواطنين من إغلاق الأسواق والحوانيت[٣]، وختمها بالشمع بين فترة وأخرى فلا تفتح إلا بعد إن يدفع أصحابها مبلغاً معيناً من المال، وأدى وصول بعض الانتهازيين إلى منصب المحتسب إلى ضيق على المواطنين، ويلجؤون للأستدانة من أصحاب الحوانيت والتجار والأسواق لدفع الرشوة للاستمرار في وظائفهم بعد عزلهم، وتدمر الناس من كثرة دفع هذه الأموال وعندما تعرض هذه المشكلة على أصحاب الشأن يقوموا بتأنيبهم وصدهم وضاعت حقوق الرعية[٤]، الذي أدى الى تدهور الأوضاع الاقتصادية وغياب الأمن وكثرة عمليات السطو على الأسواق والتجار، ونهب بعض بيوت الأغنياء وحبس بعض التجار من أجل مصادرة أموالهم وممتلكاتهم [٥]، وبغياب الرقابة وضعف دور المحتسب أدى إلى غلاء الأسعار والتلاعب بالموازين وتحكموا في الأسعار لتحقيق أرباح مالية كبيرة واحتكار السلع، وساد اللعب في اوزان القطع النقدية وصارت ظاهرة الشراء بالنقود كماً لا نوعاً، حيث كان التعامل بالنقود بقيمتها العددية دون النظر إلى وزنها ومعدنها ما دفع إلى تزييف تلك النقود من خلال التلاعب بالوزن أو بنوع المعدن، وتم إضافة معدن الرصاص إلى النحاس ما دفع الدولة إلى صك عملات جديدة وضخها في الأسواق ما انهك خزانة الدولة[٦]، ومن الملاحظ إن دولة المماليك في نهاية عهدها وسنواتها الأخيرة كثرت فيها المظالم ودب الضعف في أوصال الدولة بوصول سلاطين غير قادرين على ضبط الأوضاع، مع وجود طبقة منتفعة انتهازية استفادت من ضعف هؤلاء الحكام وقلة خبرتهم في الوصول إلى أهدافها وجمع ثروات طائلة والتعدي على أملاك المواطنين وأسواق الدولة، وهو ما كان محرماً في عهد الدولة الأول وفترة ازدهارها فكان يصل إلى المناصب الحساسة في الدولة من كان يشهد له بالنزاهة والعلم والتقوى والورع ونظافة اليد، وكان محط إعجاب من الرعية وكانوا حماة للحقوق مدافعين عنها، فحموا أملاك الناس الخاصة والأسواق والحوانيت فشهدت لهم العامة بالفرح والسرور عند مرورهم في الأسواق ورشهم بماء الورد[٧].

---

(١) عبد العزيز اللبابي ابن المغربي، الوزير ؛ السخاوي: الضوء اللامع ، ج٤، ص٢٤٠.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٣٩١.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٣٣-١٣٤.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٤٦٨.

(٥) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٩٣.

(٦) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٦٩٦.

(٧) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٩٣.

# الفصل الرابع
# الحقوق السياسية في دولة المماليك

**ويشتمل على أربعة مباحث**

**المبحث الأول: حق المشاركة في الحكم.**

**المبحث الثاني: الحق في التعبير والنصح.**

**المبحث الثالث: الحق في الشوري.**

**المبحث الرابع: الحق في المساواة بين المسلمين.**

# المبحث الأول
# حق المشاركة في الحكم

ورث المماليك الحكم من الدولة الأيوبية وذلك بعد مقتل السلطان تورانشاه [١] آخر سلاطين الدولة الأيوبية، الذي رفض أبوه الملك الصالح نجم الدين الأيوبي بتوليته السلطة بعده وأوصى بتسليم السلطة للخلافة العباسية[٢]، فجاء تورانشاه إلى الحكم فاقداً للشرعية ما شجع المماليك الذين رباهم والده على التخلص منه بناءً على تلك الوصية[٣]، فوصل المماليك إلى حكم مصر وبلاد الشام بعد تلك الحادثة وتقربوا إلى أهلها وعلمائها للحصول على الشرعية[٤]، حرص المماليك على تنظيم أنفسهم وترتيب أمورهم وتوزيع أمور الحكم بينهم فكان لهم هيكلية خاصة تسهل العملية الإدارية داخل السلطنة، وكان من حق أي مملوك في الدولة المملوكية التدرج في الدولة والوصول إلى المناصب العليا[٥]، وكان نظام الترقية في دولة المماليك غير تابع لقوانين خاصة تحكمه وكانت الترقيات داخل الدولة تمر بعدة طرق إما عن طريق التدرج الطبيعي داخل وظائف الدولة[٦]، أو عن طريق الوصول إلى المناصب العليا بطرق غير مشروعة[٧]، ما يؤدي إلى حدوث إشكاليات بين المماليك أنفسهم أو يرتقي عن طريق السلطان نفسه بأن ينعم عليه باللقب الأميري بإمارة مائة[٨] أو إمارة ألف[٩] [١٠]، وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون يوزع الرتب على جنوده حسب رأيه الشخصي ومراقبته للجنود وفي بعض الأحيان حسب كفاءة الجندي المملوكي[١١].

---

(١) تورانشاه: هو السلطان تورانشاه تولى الحكم بعد وفاة أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب وكان سيء السمعة في الحكم والإدارة وكان أبوه لا يرغب في توليته السلطة قتل على يد مماليك أبيه؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٥١؛ ؛الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٧٩، ٣٨٠.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٧٦.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٧٢.

(٤) ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٨، ص٢٤٥.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٢٢٠.

(٦) طورخان: النظم الإقطاعية، ص١٦٣.

(٧) السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٢٨٦.

(٨) إمارة مائة: وهي أمارة مائة فارس وأكثر؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٤.

(٩) إمارة ألف: هو الأشراف على الف فارس تحت مسمي مقدم الألوف؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص٣٦١.

(١٠) السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٢٨٦.

(١١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص١٦.

وكانت الترقيات تصدر بمرسوم سلطاني مباشر بعد مراقبة الجندي الذي سيتم اختياره للمناصب المهمة مثل النائب، أو المقدم، أو نائب الثغور[١]، وكما للعسكر في الدولة حق المشاركة في الحكم أيضاً أعطت الدولة للعلماء والأعيان هذا الحق، فكان للعلماء نصيب كبير في مناصب الدولة العليا من وظائف سياسية وعسكرية مهمة، فكان سلاطين المماليك يعتمدون عليهم في حكمهم ويعتبرونهم الركيزة الأساسية في استقرار الحكم، وحرص السلاطين على توليتهم المناصب لثقتهم الكبيرة بهم وكان يتم التعيين بقرار خاص من السلطان نفسه[٢]، وقلدوا مناصب كبيرة في الدولة مثل منصب قاضي القضاة، ومشيخة الخوانق، والمدارس، ومشيخة الشيوخ ورئاسة الطب في الدولة[٣]، بناءً على خطورة تلك الوظائف وتعاملها مع المواطنين بشكل مباشر، حرص السلاطين ألا تصل إليها العناصر الفاسدة ولا يسمح للرشوة والفساد الإداري التغلغل في هذه المناصب العليا، وخصها السلاطين بعناية خاصة ولا يعين فيها إلا المشهود لهم بالورع والثقة والنزاهة[٤]، وكان سلاطين المماليك يسلمون المناصب العليا للعلماء والفقهاء[٥].

ومن منطلق حق المشاركة في الحكم أوعز سلاطين المماليك للعلماء بمناصب كبيرة كالولاية، وكان العلماء يتورعون في قبول تلك المناصب ويقبلونها فقط من باب إقامة العدل وإحقاق الحق وإنصاف الضعيف وإغاثة الملهوف وتحجيم الأقوياء والضغط عليهم لأخذ حقوق الضعفاء منهم، واعتبرها العلماء واجب شرعي وليس وظيفة يعتاشون منها[٦]، ففي سنة(٦٥٩هـ/١٢٦١م) تولى فتاح الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز[٧] وظائف عدة في الدولة جمع بين الفقه ومشيخة الشيوخ وإمامة الجامع ونظر الجيش وكان بيده خمسة عشر وظيفة وتقلد الوزارة أكثر من مرة[٨].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤٠٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٢، ص٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٨؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٢، ص٥.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٣؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٢٧.

(٦) الحجي، حياة: صور من الحضارة، ص٦٩.

(٧) تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز: هو القاضي تاج الدين بن بنت الأعز العلائي الشافعي، ولد سنة(٦٠٤هـ/١٢٠٧م) كان عفيفاً على دين ولا يحابي أحداً، كان القاضي في مصر والشام، وكان على مناصب عدة؛ ابن خلكان: الوفي بالوفيات، ج٣، ص٤١٣.

(٨) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٥٩؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص١١٣.

وتولى ابن خلكان في سنة(٦٨١هـ/١٢٨٢م) منصب قاضي القضاة والأوقاف والمارستان، ودرس في سبع مدارس وهي العادلية[١] والناصرية[٢] والنجيبية[٣] والركنية والإقبالية والبهنسية والبادرئية[٤]، ومنح سلاطين المماليك حق المشاركة في الحكم للجميع، وتعددت الوظائف الممنوحة في عهد سلاطين المماليك للجميع بشكل كبير، فمن المناصب التي شغلت في عهد سلاطين المماليك مناصب القضاة وقضاء العسكر وقضاء المذاهب الأربعة وإفتاء دار العدل والحسبة، ووكالة بيت المال، والإمامة بالجوامع الكبرى[٥]، وعين السلطان الظاهر بيبرس في حكم بلاد الشام ابن خلكان من العريش إلى الفرات، وأوكل إليه النظر في جميع أوقاف الشام بالإضافة إلى التدريس والإفتاء[٦]، وكان في معاونة ابن خلكان الكثير من المعاونين حيث بلغوا في بعض الأوقات إلى واحدٍ وعشرين معاون[٧]، وفوض السلطان ابن حجر العسقلاني ليكون نائباً عنه في اليمن بأسرها[٨]، وأعطى سلاطين المماليك حقوقاً كبيرة للمشاركة في الحكم حيث إن بعض المعينين للمناصب العليا كانوا يشترطون على السلطان شروطاً صعبة للغاية حتى يعفيهم السلطان ولكن السلطان يقبل بشروطهم مثلما فعل القاضي تاج الدين بن عبد الوهاب الأعز[٩]، ومع حرص سلاطين المماليك على حق المشاركة في الحكم إلا إنه في بعض الأحيان كان يثير الوشاة سخط السلاطين على بعض من يعملون تحت أيديهم فيقلقون السلطان مثلما حدث مع السلطان الناصر محمد عندما تمت الوشاية إليه بأن شيخ الإسلام ابن تيمية يريد قلب نظام الحكم عليه فأرسل إليه يسأله، فرد عليه ابن تيمية بأن ملكك لا يساوي عندي فلسين فاطمأن السلطان[١٠].

---

(١) العادلية: وهي مدرسة بنيت في عهد السلطان الملك العادل سيف الدين طومان باي وكانت في القاهرة في سنة(٩٢٢هـ/١٥١٦م)؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص٢٧.

(٢) الناصرية: وهي التربة الناصرية، بناها الأمير طوغان توفي سنة(٨٤٧هـ/١٤٤٣م)؛ النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٩٩.

(٣) الخانقاة النجيبية: بناها جمال الدين أقوش الصالحي النجمي، واشتغل في مشيختها على بن مجاهد علاء الدين المجدلي، توفي سنة(٧٩٤هـ/١٣٩٣م)؛ ابن حجر: أبناء الغمر، ج٥، ص٧٣.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣١٢.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٢٦٢.

(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ص٥٣٨، ٥٣٩.

(٧) ابن حجر: أبناء الغمر، ج٣، ص١٤.

(٨) عز الدين: التاريخ والمنهج، ص١٧٢.

(٩) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٢٣٦.

(١٠) البزار: الأعلام العلية، ص٧٢.

وخاف بعض سلاطين المماليك على حكمهم بعدما توسع نفوذ بعض من هو تحت امرتهم، ما أدى إلى إبعادهم عن الحكم ومصادرة أملاكهم والراحة منهم بعد موتهم، مثلما شعر بالراحة الظاهر بيبرس بموت العز بن عبد السلام وقال الان استقر الحكم لي[١]، وكان حق المشاركة في الحكم يوجد التنافس بين الأمراء والإداريين ما يجعلهم يتحينون الفرص للإيقاع بمنافسيهم وتشويه صورهم أمام السلاطين، مثلما حدث مع القاضي محمد بن أبي بكر الإفنائي المالكي[٢] عندما طلب منه شرف الدين النشؤ أموال الأيتام فرفض إعطائه إياها فوشى به إلى السلطان ما عرضه إلى التهديد والمساءلة وإتهامه بسرقة الأموال[٣]، وكان الأمراء في بعض الأحيان يعزلون من يخالفهم في تلبية رغباتهم فعزلوا نور الدين إبراهيم الإسنائي[٤]، عندما رفض تسليمهم أموال الزكاة[٥] ، وأستغل سلاطين المماليك حق المشاركة في الحكم لتثبيت سلطانهم فعندما تولى السلطان عز الدين أيبك السلطنة لجأ الى تعيين سلطان مشارك في الحكم من الأيوبيين[٦]، وكان أيبك يريد من هذا العمل أن يكون له، ستار حتى يستتب الحكم له فعين الملك الأشرف موسى وهو صبي في السادسة من عمره شريكاً له حتى يضمن ولاء المماليك والأيوبيين له، فكانت المراسيم السلطانية تخرج تحمل الإسمين الأشرف والمعز ولكن في الحقيقة جميع الأمور في يد أيبك[٧]، ووافق المماليك المناوئين لأيبك على الإزدواجية في السلطة والحكم حتى يستفردوا بالحكم ويسيطروا على الأمير الصغير ويكون في يدهم أداة طيعة في تنفيذ مآربهم وإسكات الأيوبيين[٨]، ولكن الحيلة لم تنطلي على الأيوبيين ولم يسلموا للمماليك[٩].

وبقي الحال في الدولة على النزاع لمن يصل إلى الحكم ففي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون تولى إدارة البلاد وهو صغير السن وسلطته الأولى لم تمتد إلا عام واحد من عام(١٢٩٣م/٦٩٢هـ) حتى عام(١٢٩٤م/٦٩٣هـ)، وكانت سلطته قصيرة جداً وسلطة وهمية، فكان

(١) السبكي: طبقات الشافعية، ج٨، ص٢١٥.

(٢) القاضي محمد بن أبي بكر الإفنائي المالكي: عرف بعلمه وفضله وكان قاضي المالكية في مصر والشام، وتعرض للعزل بسبب مواقفه الجريئة وإنكاره للباطل؛ ابن حجر، الدرر، ج٣، ص٦٧.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٣٩٣.

(٤) نور الدين إبراهيم الإسنائي: هو إبراهيم بنه هبة الله الحميدي، الإسنائي الشافعي، درس الفقه وتولى القضاة واعتزله عام(٧٢١هـ/١٣٢١م)؛ ابن حجر: الدرر، ج١، ص٧٦.

(٥) المصدر نفسه: ج٢، ص٤٩٠.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٦٩.

(٨) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥.

(٩) المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٧٠.

بعض الأمراء الأقوياء متحكمين بمقاليد الأمور أهمهم نائب السلطان زين الدين كتبغا[١]، وأقال السلطان الناصر محمد من منصبه وعَين كتبغا نفسه سلطاناً بعد أن أقصى الأمراء المناوئين له[٢]، وفي فترة الولاية الثانية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ضاق صدره من تضييق الأمراء عليه وتواصل مع بعض الأمراء للخروج من هذه الهيمنة فعلم الأمراء المحيطون به بهذه المراسلات فقبضوا عليه ونزعوا جميع صلاحياته[٣]، ولولا تدخل العامة لصالح السلطان الناصر محمد الذي أجبر المماليك على التوقف عن إبعاده عن الحكم واكتفوا بإبقائه في القلعة دون صلاحيات[٤]، ما دفع السلطان الناصر محمد بالخروج إلى الحج كي لا ينكر أحداً عليه هذا الفعل، وفي الطريق ذهب إلى قلعة الكرك وكتب إلى الأمراء الموجودين في قلعة القاهرة استقالته من الحكم سنة(١٣٠٨م/٧٠٧هـ) [٥]، وعزل السلطان محمد بن قلاوون نفسه وعَين الأمير بيبرس الجاشنكير نفسه سلطاناً بدل الناصر محمد بن قلاوون[٦].

واستمر مسلسل اغتصاب السلطة للأمراء الأقوياء من السلاطين الضعاف الذين يقومون بسلطنتهم وهم صغار كي يسهل عليهم إدارة شؤون البلاد والإستفادة من صغر سن السلطان في تنفيذ مخططاتهم الشخصية، ما أدى إلى غياب حق المشاركة في الحكم، حيث ساد قانون الحكم لصاحب النفوذ وصاحب القوة ومن لديه مال ورجال أكثر من الأمير الأخر، واستمرت الأمور على ذلك حتى شق عصاها السلطان الناصر محمد بن قلاوون في فترة ولايته الثالثة التي حكمها مدة واحد وثلاثين عاماً مستمرة، وأعطي الحق في إدارة شؤون الولايات للولاة دون التدخل إلا في وقت الحاجة لضمان سلامة السلطنة[٧].

وحاول بعض سلاطين المماليك أن يجعلوا الحكم وراثياً مثلما فعل السلطان الظاهر بيبرس بتوريث الحكم لأبنه ففرض سلطنته في حياته ومن ثم تعينه سلطاناً بعد وفاة والدهِ، ولكن أفعاله الطائشة أدت إلى تآمر المماليك عليه وقتلوه ولم يكن السلطان الناصر محمد أقل رغبة من الظاهر بيبرس بتوريث السلطة لذريته من بعده وحاول تعيين ابنه الأمير ناصر الدين الأنوك ووافق الأمراء على ذلك ولكن الموت حطم آمال السلطان الناصر محمد بن قلاوون فتوفى ابنه ناصر

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ص٧٩٣.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٨٠١.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٤٩.
(٤) المصدر نفسه: ص١٧٣.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٧٩، ١٨٠.
(٦) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٦.
(٧) أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٣، ص٢٥٠.

الدين إنوك[١] قبله[٢]، وبعد وفاة السلطان الناصر محمد وحتى بداية حكم المماليك البرجية سنة(١٣٨٢م/٧٨٤هـ) وبقي الحكم في هذه المدة بأيدي الأمراء الأقوياء بسبب صغر سن أحفاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكانوا ألعوبة في يد الأمراء الأقوياء فلم تشهد السلطنة في ذلك الوقت استقراراً بسبب كثرة الإنقلابات وأخذ زمام الأمر بالقوة وليس عن طريق المشاركة في الحكم[٣]، ومن خلال المصادر يري الباحث أن حق المشاركة في الحكم هو حق أصيل داخل سلطنة المماليك وشارك سلاطين المماليك، الكثير من الأمراء والعلماء والتجار في الحكم وكانوا سنداً ولكن طمع بعض الأمراء في السلطة أدى إلى إقصاء الكثيرين من السلاطين والأمراء عن الحكم بالقوة، ما أدى إلى حدوث فوضى وقصر مدة حكم السلطان فما يلبث أن يعين سلطان حتى يقال وفي بعض الأوقات كان يعين السلطان في الصباح ثم يقال ويعين بدلاً منه في المساء.

(١)الأمير ناصر الدين الأنوك ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان اعز الأبناء عند والده وكان يشغل منصب نائب ولوالده ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ، ج١، ص٢٣٢.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٣٤٣.

(٣) المصدر نفسه: السلوك، ج١، ص٦٩٧.

# المبحث الثاني
# الحق في التعبير والنصح

ساد في دولة المماليك أهل العلم والعلماء، وكان السلاطين أهل علم ومجالسي للعلماء وكان لطبيعة الدولة الدينية الآخذة من القرآن الكريم دستور ومن الرسول قدوة، دافعاً للسلاطين للحرص على إحياء الدين في أرجاء مملكتهم، ومن أساس الدين الإسلامي حق التعبير والنصح، كيف لا وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمح لأصحابه بالتعبير عن مواقفهم ونصحهم له، واستفاد الرسول صلى الله عليه وسلم من تلك النصائح فنصيحة الحباب بن المنذر[١] ورأيه للرسول صلى الله عليه وسلم في معركة بدر أن يكون بئر بدرٍ خلف المسلمين في المعركة فكان لرأيه ونصيحته دور مهم في المعركة، وأظهر النبي صلى الله عليه وسلم شرف أهل العلم والأخذ برأيهم والسماع لنصيحتهم فقال صلى الله عليه وسلم(إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً بل ورثوا العلم ومن أخذه أخذ بحظ وافر) [٢]، وعمل سلاطين المماليك على تدعيم حق النصح والتعبير للعلماء، فحمل العلماء على عاتقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإسداء النصح للحكام انطلاقا من قوله تعالى﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[٣]، وقوله تعالى﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[٤].

---

(١) الحباب بن المنذر: هو الحباب بن المنذر بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب ويكنى أبى عمرو وأمه الشموس بنت حق بن أمة بن حرام وكان لحباب من الولد خشرم وأم جميل وأمهما زينب بنت صيفي بن صخر بن خنساء من بني عبيد بن سلمة، والحباب هو خال المنذر بن عمرو الساعدي أحد النقباء ،وهو الذي قتل يوم بئر معونة، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أعنق ليموت، وشهد الحباب بدراً، أخبرنا محمد بن عمر قال حدثني إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن بن عباس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلاً يوم بدر فقال الحباب بن المنذر ليس هذا بمنزل انطلق بنا إلى أدنى ماء إلى القوم ثم نبني عليه حوضاً ونقذف فيه الآنية فنشرب ونقاتل وتعور ما سواها من القلب، قال فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الرأي ما أشار به الحباب بن المنذر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا حباب أشرت بالرأي فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل ذلك؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص٥٦٧.

(٢) سنن أبي داوود: ج٣، ص٣٥٤؛ ابن حبان: صحيح ابن حبان، ج١، ص٢٨٩.

(٣) {سورة آل عمران: أية١٠٤}.

(٤) {سورة آل عمران: أية١١٠}.

وحق التعبير والنصح يصوب مسيرة الأمة الإسلامية على الدوام دون كلل أو ملل ،لأن ذلك واجب شرعي فعلى الحاكم أن يسمع النصح من أهل العلم في دولته، وهو علاج للنفوس من وأمراض القلب، وإنهاض للأمة وحماية للحاكم من الزلات والثغرات[١]، وإن إعطاء حق التعبير والنصح ليس منةً من الحاكم على الرعية والعلماء بل هو واجب شرعي عليه وفرض عين على العلماء لحماية الأمة وحفظها من التحلل والفساد[٢] وعندما أعطى سلاطين المماليك حق التعبير للعلماء والعامة والأمراء إنما أعطوه لصلاح المجتمع وصلاح حكمهم وتنقية المجتمع من الآفات وسوء الأخلاق وتنظيفه من الشوائب وحماية الحاكم والرعية من الزلل، وكان للعلماء دورٌ بارزٌ في نصح الحكام والتعبير عن موقفهم بكل جلية، في المقابل قرب السلاطين هؤلاء العلماء لحرصهم على إحقاق الحق وتصويب الخطأ إذا وقع فيه فكان العلماء يقفون في وجه السلطان الظالم فأصبحوا موضع احترام من الشعب والحاكم[٣].

فكان السلطان المظفر قطز[٤] يسمع من العلماء فأخذ بنصيحة العز بن عبد السلام عندما خرج لمواجهة المغول وأراد أخذ الضريبة من العامة فأشار عليه العز بن عبد السلام بتجريد الأمراء من أموالهم وإن لم تكف أموالهم تأخذ من العامة[٥]، فكان السلطان الظاهر بيبرس لا يبايع أحداً من الخلفاء العباسيين إلا استشار العز بن عبد السلام قبله وأخذ بنصيحته[٦].

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ج١، ص١٨.

(٢) المصدر نفسه: ج١، ص٢٠.

(٣) فرغلي: الحركة، ص٥٧.

(٤) المظفر قطز: سيف الدين، قطز بن عبد الله المعزي الثالث من ملوك الترك بالديار المصرية، تسلطن بعد خلع ابن أستاذه الملك المنصور على بن الملك المعز أي بك التركماني في يوم السبت سابع عشر ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة؛ وذلك بعد إن عظمت الأراجيف بقدوم التتار، وسبب خلع الملك المنصور: كونه كان صغيراً لا يدري تدبير الأمور؛ فتسلطن قطز؛ ليقوم بدفع التتار عن البلاد، ولما تسلطن أخذ في تجهيز أمره لقتال التتار، بعد إن استولت التتار على حلب ودمشق وأخذوهما من يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي ووصلت غارات التتار إلى غزة؛ فخرج إليهم المظفر من الديار المصرية بعساكرها، والتقى التتار بعين جالوت في يوم الجمعة خامس عشرين شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة، وهزمهم أقبح هزيمة، وولوا التتار الأدبار، وأعز الله الإسلام على يد الملك المظفر هذا؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٣ ،ص ٢٢٥ ؛ أبو المحاسن: مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة ،ج٢ ،ص٣٠.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٣١٧.

(٦) المصدر نفسه: ج١، ص٣١٨؛ فرغلي: الحركة، ص٥٨.

فاستشار سلاطين المماليك العلماء وأخذوا بنصائحهم في كثير من الأحيان وكان لهم تأثير واضح على عامة الشعب[١]، وكان رأيهم مسموعاً في حضرة سلاطين المماليك ولم تأخذهم في الله لومة لائم بل يصدحون برأيهم دون خوف حتى لو عارض رأيهم رأي السلطان نفسه[٢]، وفي عام(٦٧٨هـ/١٢٧٩م) في عهد السلطان المنصور قلاوون حيث قام العلماء بنصحه إلى إزالة المنكر وإقامة الدين فاستجاب لهم وأخذ برأيهم وسمع بنصيحتهم، فحارب مروجي الخمور وبائعيها، وحاصر بيوت الفواحش وأغلقها وعاقب مرتاديها[٣]، وساهم سلاطين المماليك في تعزيز حق التعبير والنصح وذلك بإعطاء أهل الرأي مناصب عليا في الدولة ليكونوا سنداً لهم ويستنيروا بآرائهم في الأمور العامة في الدولة فأسندت هذه المناصب العليا لمن هو مشهود له بحسن التعبير والنصيحة كمنصب قاضي القضاة ومنصب المحتسب[٤]، فوافق السلاطين على آرائهم في مجالسهم فكانوا ينتقدوا سلوك الأمراء في بعض الولايات فيستجيب السلطان لنصائحهم في بعض الولاة فيقيل من تثبت إدانته، وقد حث العلماء والفقهاء السلاطين على تقوى الله ولزوم طاعته والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٥]، وكان للعلماء دور عام في نصح سلاطين المماليك لإحقاق الحق، فقام الشيخ محمد بن يوسف القونوي[٦]، بتقدم النصح للحكام وكان ينهاهم عن كل مخالفة يقومون بها، وكان لا يخشى في إبداء رأيه والتعبير عنه أمام السلاطين والأمراء وكان السلاطين والأمراء لا يردون له مطلب ويأخذون بنصيحته ورأيه وكانوا يهابونه لشدة حرصه على المسلمين[٧]، ومن شدة حرص السلاطين على أهل التعبير والنصح من العلماء كانوا يقدمون لهم كل ما يحتاجونه ويسترضونهم في حال أعرضوا عن السلاطين وعن مجالسهم[٨].

وعبر الشيخ شمس الدين الدروطي[٩] عن رأيه في السلطان قنصوه الغوري وغضب السلطان منه لآنه حرض العامة على السلطان لتركه الجهاد، وقال للسلطان: أنعم الله عليك وأنت

(١) فرغلي: الحركة، ص٥٧، ٥٨.
(٢) عبد التواب: قتباي، ص١١٨.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٢٨.
(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ص٩٤٠.
(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٨، ص٢٠١.
(٦) القونوي: الشيخ محمد بن يوسف القونوي: هو علاء الدين الشافعي ولد بقون؛ الشوكاني: البدر، ج١، ص٤١٩.
(٧) المصدر نفسه: ج٨، ص١٧٩.
(٨) العليمي: الإنس، ج٢، ص١٠٧.
(٩) الدروطي: هو الشيخ شمس الدين الدروطي، هو شمس الدين الدروطي، واعظ زاهد من مصر، كان يعمل بالجامع الأزهر وكان معروفاً بالجرأة مع السلطان وكان عفيفاً وواعظ قوي، توفي سنة(٩٢١هـ/١٥١٥م) وذلك في عهد السلطان قانصوه الغوري؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٨٨؛ الزركلي: الأعلام، ج٣، ص١٧٦.

تقابله بالعصيان وأصبحت سلطاناً للمسلمين بعد إن كنت عبداً مملوكاً فأخلص النية لله وأعطي المسلمين حقهم[١]، وعارض الشيخ أمير الدين الأقصرائي[٢] السلطان قنصوه الغوري عندما أراد بعض الآثار والمقتنيات من مسجد بناه السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى وقفه الجديد، فرفض الشيخ إلا إن يكون النقل حسب شروط الواقف نفسه[٣]، وفي سنة(٨٥٤هـ/١٤٥٠م) اعترض قاضي القضاة شرف الدين المغربي[٤]على نائب السلطان في القدس مبارك شاه المملوكي[٥]عندما أراد تنفيذ حكم الإعدام في مجموعة من الفلاحين وأراد قتلهم، فقال له قاضي القضاة معترضاً على ذلك: إنني لست موافقاً على تنفيذ حكم الإعدام فيهم وإن قمت بذلك لأقتلنك معهم ولأعلقنك بجانبهم فانصاع الوالي إلى أوامر قاضي القضاة[٦]، وأبدى الشيخ دقيق العيد[٧] رأيه في فتوى أخذ المال من الرعية لاستخدامها في الحروب فرفض إعطاء هذه الفتوى مستنداً إلى فتوى العز بن عبد السلام الذي رفض إعطائها للسلطان المظفر قطز قبل ذلك[٨].

وكان العلماء يلجأون إلى عزل أنفسهم عندما لا يؤخذ برأيهم وبنصائحهم من قبل السلاطين، فقام ابن حجر العسقلاني[٩] بعزل نفسه عندما لم يستمع السلطان الظاهر جقمق إلى كلامه ونصائحه [١٠]، ولم يثنيه عن قراره تهديد ووعيد السلطان له بمصادرة أولاده وأمواله وأصر على موقفه[١١]، واستمع السلطان قيتباي المحمودي إلى رأي الشيخ الأقصرائي بعدم جواز مصادرة

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ج١، ص٣٠.

(٢) الشيخ أمير الدين الأقصرائي: هو يحيى بن محمد بن إبراهيم الإقصرائي، من شيوخ الحنفية، وهو تركي الأصل، ولد وتوفي في مصر؛ الذهبي: سير، ج١٣، ص٢٥٣؛ الزركلي: الأعلام، ج٨، ص١٦٨.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٣٨٥.

(٤) شرف الدين المغربي: هو قاضي القضاة شرف الدين عيسى المغربي، كان يعمل في منصب القضاة في مدينة القدس زمن السلطان جقمق، وقيل عنه أنه كان عالما فاضلاً وورعاً؛ الذهبي: سير، ج٣، ص٢٣٤.

(٥) مبارك شاه المملوكي: هو نائب السلطان على مدينة القدس، وتولاها زمن السلطان الظاهر جقمق، سنة(٨٥٠هـ/١٤٥١م) وكان يجل العلماء ويسمع لهم ؛العليمي: الإنس الجليل، ج٢، ص٢٧٧.

(٦) العليمي: الإنس، ج٢، ص٢٤٨.

(٧) الشيخ دقيق العيد: هو شيخ الإسلام تقي الله الدين أبو الفتوح القشيري كان يعمل قاضياً لمصر، وكان عالماً وشيخاً في عصره، ولد سنة(٦٢٥هـ/١٢١٩م) وتوفي سنة(٧٠٢هـ/١٣٠١م)؛ الذهبي: سير، ج١٣، ص٢٧٣.

(٨) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٣٢٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٤٢.

(٩) ابن حجر العسقلاني: هو أحمد بن علي الكناني العسقلاني المعروف بابن حجر، ولد سنة(٧٧٣هـ/١٣٧٣م)، وهو علامة ومحدث وكان فقيه مصر والشام زمن المماليك وله باع طويل في العلوم؛ الذهبي: السير، ج٣، ص٢٢٩.

(١٠) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص٣٤٥.

(١١) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٤٢.

أموال الأوقاف الإسلامية للإنفاق على الجيش[١]، وحثهم على أخذ أموال الأمراء وحلي نسائهم فأجابه السلطان بذلك الطلب، وكان السلطان قيتباي المحمودي يأخذ بالنصيحة ويوفر حقوق التعبير عن الرأي ويأخذ بالنصائح ويعمل بها[٢]، واهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم بأهل النصح وقربوهم منهم كي يعينوهم على تطبيق شرع الله والامتثال لأوامر الشرع ولما يمثله أهل النصح من فقه وعلمٍ وقدرة كبيرة في إيجاد الحلول للمشكلات فكان السلطان الظاهر بيبرس يحب مجالسة أهل الرأي والنصح ويحب إن يسمع نصائحهم ويلزم مجالستهم ويستشيرهم فيشيرون عليه[٣]، وأعطت الدولة الحق في التعبير والنصح واستعان السلاطين بأهل التعبير والنصح بل وكان لهم مكانة مرموقة في الدولة، وتعاونوا هم والسلاطين في الوصول بالدولة إلى بر الأمان[٤]، وأدرك سلاطين المماليك أهمية الأخذ بالرأي والنصح لما فيه من فوائدٍ للدولة وفيه ضمان لحفظ ولاء الرعية وجلب قلوبهم ومؤازرتهم في وقت المحن والشدائد[٥]، في بعض الأحيان تجاهل بعض سلاطين المماليك حق التعبير والنصح ما أدى إلى حدوث إشكالات داخل الدولة مثلما حصل عندما تجاهلت الدولة آراء ونصح الشيخ ابن تيمية[٦] ما أدى إلى حدوث اعتراضات جماهيرية على السلطان وخروج ثورة شعبية عليه عام(٦٩٣هـ/١٢٩٣م) وأدى إلى حدوث شغب كبير[٧].

ورعى سلاطين المماليك هذا الحق فالقاضي العلامة شمس الدين البايرتي[٨] المتوفى سنة(٨٥٥هـ/١٤٥١م) سمع السلطان له ونفذ نصائحه وأوامره، وله دور بارز في الحفاظ على أمن الدولة وحفظ حقوق الرعية وتثبيت الأسعار وضبط التجار المخالفين[٩]، وتبوأ في الدولة أصحاب الرأي والنصح والتعبير مكانة عالية في الدولة وحافظوا على حقوق الأمة من الأيتام والفقراء

(١) الذهبي: سير، ج١٣، ص٢٥٣.
(٢) عبد التواب: قتباي، ص٥٠.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٠٩.
(٤) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص٢١٩، ٢٢٠؛ لابدوس: مدن الشام، ص٥٥.
(٥) المصدر نفسه: ص٢٢٠، ٢٢١.
(٦) الشيخ ابن تيمية: هو تقي الدين أبو العباس أحمد شهاب الدين عبد الحليم ابن تيمية النميري الحراني، وكان من أئمة المذهب الحنبلي، ذهب إلى دمشق وعمل بالتدريس والإفتاء، وقد سجن وعذب لآرائه؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٦٩.
(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٩٦؛ لابدوس: مدن الشام، ص١٨١.
(٨) شمس الدين البايرتي: هو القاضي العلامة شمس الدين البايرتي توفي سنة(٨٥٥هـ/١٤٥١م) وكان قوي الحجة صاحب هيبة؛ العليمي: الإنس، ج٢، ص٢٤٢).
(٩) المصدر نفسه: ج٢، ص٢٤٢.

والمساكين وأصحاب الحاجة وتصدوا بآرائهم ونصحهم للفاسدين والسيئين والمنتفعين[١]، وحموا الناس من شرور كثيرة وحفظوا المصالح العامة[٢]، وكرم سلاطين المماليك أهل التعبير والنصح في حياتهم وفي مماتهم، فعندما توفى ابن حجر العسقلاني خرج الجميع في وداعه بمن فيهم أهل الذمة وبكته البلاد عن بكرتها وتقدمهم السلطان والأمراء وقاموا بدفنه بأنفسهم[٣]، ومن الواضح أن حق التعبير والنصح حفظه سلاطين المماليك حق الحفظ وأعطوه جل الاهتمام حتى أصبح أهله قوة محورية في المجتمع الإسلامي وصمام أمان للمدن الإسلامية وهم الرابط الأساسي بين المجتمع وبين الحاكم[٤]، بل وتعدى الأمر إلى إن أصبح ظاهرة في مجتمع المماليك حيث عرف المجتمع هؤلاء الناس وقوتهم، وإنهم من أصحاب الحق والتقوى والزهد وأنه لا تضيع عندهم الحقوق، وأنهم أصحاب حظوة عند السلطان فتقرب منهم العامة لإيصال مشاكلهم للسلطان ورفع عنهم بعض المظالم وإرساء معالم الحكم الإسلامي الرشيد، وبروزهم في كافة الميادين الخاصة بالدولة[٥].

وفي عام(٧٣٨هـ/١٣٣٧م) تصدى القاضي عماد الدين البلبيسي[٦] لناظر السلطان الخاص وضد كبار المسؤولين ومنعهم من التعدي على أموال الأيتام والعامة[٧]، ومن الأنصاف ذكر مساهمة سلاطين المماليك بحفظ حق التعبير والنصح في أغلب الأوقات وعلى طول سنوات حكمهم فشجعوا أصحاب الرأي وأخذوا بآرائهم وسمعوا لأصحاب النصيحة وعملوا بنصيحتهم، بل قربوهم منهم وأعطوهم المناصب العليا في الدولة ليكونوا سنداً لهم وحلقة وصل بينهم وبين الرعية مع وجود في بعض الأوقات اضطهاد وغضب من السلطان على أصحاب الرأي والنصح لمخالفتهم لهواه الشخصي، وكانت هذه حوادث فردية من بعض السلاطين الذين كانوا يتعصبون لرأيهم ولا يرون الصواب إلا ما فعلوا، وهذا يمثل الجانب المظلم لهؤلاء الحكام الذين انتهت فتراتهم باضطهاد لأصحاب الرأي والنصح.

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٤٣.

(٢) الحجي، حياة: صور، ص١١٧.

(٣) المحبي: خلاصة الأثر، ج٣، ص٣٤.

(٤) لابدوس: مدن الشام، ص١٧٣.

(٥) المدني: الحياة العليمة، ص١٩٢.

(٦) عماد الدين البلبيسي: هو محمد بن اسحاق بن محمد مرتضى البلبيسي، عالم فقيه، ودرس العلم، ولي القضاء وعز، وكان محباً للفقراء مدافعاً عنهم، مات سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م). بداء الطاعون؛ ابن حجر: الدرر، ج٣، ص٤٧٣.

(٧) الحجي، حياة، صور من الحضارة، ص١١٤.

# المبحث الثالث
# الحق في الشورى

عند الحديث عن الشورى فإننا نتحدث عن مبدأ راسخ في الشريعة الإسلامية، ويكون من خلال المناقشات والحوارات وتبادل الرأي تحث القيم الإسلامية الأساسية في الشريعة وذلك للوصول إلى أقرب درجة من العدل والحق الذي وضعه الدين أساساً في الدولة الإسلامية، والشورى في المجتمع الإسلامي ليس كما يراد لها مجلساً سياسياً، إنما هي تحت بند قول الرسول ﷺ: ( كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته) متفق عليه[١]، ومبدأ الشورى هو مشاورة مجموعة من أهل الرأي والسداد بهدف الوصول إلى قرار أكثر دقة وصواباً، وعني سلاطين المماليك بحق الشورى وقربوا منهم أهل الشورى والعلم، وتفاخر السلاطين بتقربهم من أهل العلم ومشاورتهم لهم. وكما قال أبو الأسود الدؤلي[٢]: ( الحكام ملوك على الناس والعلماء حكماء على الملوك) [٣] ومن أجل ذلك قرب سلاطين المماليك العلماء إليهم وجعلوهم من رواد مجالسهم الدائمين وتعاونوا معهم لإصلاح أمر البلاد والعباد، فاجتمعت قوة العلم الموجودة في العلماء وقوة الحكم الموجودة في الحكام مما ينتج نظاماً سياسياً قوياً ويؤدي إلى حفظ حقوق المواطنين، وتكون القيادة صالحة قوية مرهوبة الجانب تفرض قوتها وهيبتها على جيرانها، الأمر الذي لا يتوفر إلا بوجود علماء صالحين ورجال دولة أقوياء يأخذون من مشورتهم منهجاً لهم في كل صغيرة وكبيرة[٤]، واستعان سلاطين المماليك بأمرائهم المخلصين ليكونوا لهم بطانة صالحة ويشاورونهم في أمور دولتهم، مثلما استعان السلطان الناصر بن قلاوون بمجموعة من أمرائه المخلصين وقربهم واستشارهم في أمور الدولة[٥]، ومع اتساع دولة المماليك واتساع نفوذها كان السلاطين يستعينون في أحوال كثيرة باستشارة كبار رجال الدولة في الكثير من المسائل والأمور المهمة مثلما كان يفعل السلطان المنصور قلاوون[٦]، وعَين

(١) البخاري: صحيح البخاري، ص٨٥٣.

(٢) أبو الأسود الدؤلي: هو ظالم بن عمرو بن سفيان، كان من سادات التابعين وأعيانهم، صحب علي بن أبي طالب، وشهد معه واقعة حطين، وهو أول من تكلم في النحو بالبصرة، وهو الذي وضع التشكيل على أواخر الكلمات، وجعله بمداد يخالف مداد الكلمة، وهو من قبيلة الدُئل توفي سنة(٦٩هـ/٦٨٨م)؛ الذهبي: معرفة القراء الكبار، ص٥٩، ٦٠.

(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص١٠.

(٤) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص١٩٣؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٣٧٧.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣٢٧،٣٢٦،٢٧٣.

(٦) عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص٣٥١،٣٥٠،٣٤٩،٣٤٨.

السلطان المنصور قلاوون الكثير من المستشارين اقتصرت مهمتهم على مساعدة السلطان في إدارة شؤون الحكم وإدارة البلاد[١].

وقرب بعض سلاطين المماليك أئمة المذهب الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي في أسفارهم، وفي حلهم، وترحالهم، وكانوا يستشيرونهم في أمور الدولة[٢]، وحظي القضاة بأحترام سلاطين المماليك وشاوروهم في أمور السلطنة وكانت كلمتهم مسموعة في مجالس السلاطين وقدروهم أفضل تقدير، وحرصوا على استرضائهم واستشارتهم[٣]، وعرف سلاطين المماليك قوة القضاة ومدى تأثيرهم في سياسية الدولة فوثقوا علاقتهم بهم وطلبوا مشورتهم وإفتائهم في القضايا المهمة وأخذ السلاطين بنصائحهم[٤]، واستشار سلاطين المماليك العلماء والفقهاء في أمر الجهاد وتوجيه حملاتهم العسكرية واستشاروهم في الآيات والأحاديث الدالة على الجهاد والتمسك بالشريعة[٥]، واستفادوا منه في تقوية الجنود وتثبيت الجيوش في ساحات المعارك والدعاء للجيوش على المنابر بالنصر والتمكين[٦]، واستشار السلطان المظفر قطز سنة(٦٥٧هـ/١٢٥٩م) العلماء والفقهاء والأعيان في أمر مواجهة المغول[٧].

ولجأ سلاطين المماليك للفقهاء والعلماء في مشورتهم واتخاذ رأيهم في الحوادث التي تمر بالأمة من كرب أو ألم، فقد استشار السلطان قطز العز بن عبد السلام بموضوع جمع الأموال من الأغنياء والتجار بعد نفاذ أموال الدولة لمحاربة المغول[٨]، وعمد السلطان المنصور قلاوون إلى مشاورة الفقهاء والعلماء والمشايخ وكان يجمعهم على ربوةٍ يعقدوا عليها اجتماعهم ليأخذوا رأيهم ومشورتهم[٩]، وعقد السلطان الأشرف قايتباي مجالس الشورى في عهده وكان غالبيتهم من الفقهاء وكان يأخذ رأيهم في كل أمور الدولة وكان يتقبل نقدهم لرأيه بكل ثقةٍ وصبر[١٠]، وكان يتواضع للعلماء ويحترم الرأي الآخر دون صلف أو تكبر واستشار مجالس العلماء عندما أصاب الطاعون

(١) حسن، علي إبراهيم: تاريخ المماليك البحرية، ص٣٠٨، ٣١٢، ٣١٥، ٣٤٠.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٧.
(٣) الحجي، حياة: صور، ص٩٤، ٩٥.
(٤) المصدر نفسه: ص١٥٥.
(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧، ص١٥٣.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٤٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤، ص٢٥٢.
(٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٢، ص٢٦٩؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٦١.
(٨) ابن طالون: مفاكهة، ص٢٦٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٥١.
(٩) الكاتب: الفضل المأثور، ص٦٨.
(١٠) ابن حجر: الدرر، ج٤، ص٢٠١.

السلطنة في فترة حكمه فأشار عليه العلماء بإعلان التوبة إلى الله ورفع المظالم عن الناس ورد الحقوق إلى أهلها[١].

وهرع السلاطين والأمراء للأخذ برأي العلماء وأهل المشورة في كل منزلة ومصيبة تصيب الأمة والسلطنة[٢]، وعند تفرد سلاطين المماليك بأخذ قرارات ولا يتشاورون بها مع أهل العقد والحل فيقوموا باعتزال أماكنهم كما حصل مع القاضي ابن جماعة حينما رأى الفساد، فطلبه السلطان الأشرف زين الدين أبو المعالي توفى سنة(٦٧٦هـ/١٢٧٧م) لاسترضائه وسؤاله عن اعتزاله، فقال له: لقد أعدت ضمان المغاني وهو عبارة عن مال يتم جبايته من مهنة الدعارة، فرد عليه السلطان بأنه لا علم له بذلك فلم يوافق ابن جماعة على العودة إلا بإصدار مرسوم سلطاني بإلغاء ذلك الضمان، وتم إذاعة المرسوم في جميع نواحي السلطنة[٣]، واسهم سلاطين المماليك في محاربة الفساد بعد استشارة الفقهاء والاجتماع بهم، وفعل السلطان الأشرف قايتباي ما أشار عليه العلماء من خطورة المفاسد والضرائب المجموعة من تجارة الحشيش والخمر وغيرها من المنكرات فقام بإبطالها على الفور[٤]، وفي بعض الأحيان أشار العلماء إلى السلاطين بأن بعض رجال الدولة يتربحون ويشاركون في الفساد فيقوم السلاطين بإبطال تلك الممارسات ومحاسبتهم ومراقبتهم[٥]، وحين هاجم المغول بلاد الشام وأرض مصر كان وضع البلاد في حالة من عدم الاستقرار وكان يتولى عرش مصر سلطان صبي صغير السن لا يقدر على مواجه هذه الأخطار بنفسه وكان من كبار الأمراء في ذلك الوقت الأمير سيف الإسلام قطز، واستمر وضع البلاد في التردي لأن السلطان نور الدين علي[٦] لم يقدر على توجيه الأمور وكان يقضي الأوقات في اللعب وللهو وركوب الحمير واللعب في الحمام[٧].

ولا بد للأمير قطز من أخذ الإجراء المناسب لحماية الدولة والرعية من هذا الخطر الداهم، فعقد الأمير قطز مجلس الشورى المكون من الفقهاء والقضاة من أمثال العز بن عبد السلام

(١) المصدر نفسه: الدرر، ج٤، ص٢٠١.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١٤، ص٣٥٤؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٢٣٤.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٥، ص٥؛ السبكي: طبقات، ج١، ص٣٥، ٣٦؛ ابن العماد: شذرات، ج٦، ص١٩٥.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٩١.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٥٤.

(٦) نور الدين علي: هو ابن السلطان المعز أيبك تم تنصيبه سلطاناً وهو في سن الخامسة عشر في ربيع الأول سنة(٦٥٥هـ/١٢٥٧م) ولقبوه الملك المنصور علي، ورفض المماليك الاعتراف بالسلطان الصبي مما أدى إلى اضطرابات داخل السلطنة؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٢٠٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٤٦٤.

(٧) عبده، قاسم: السلطان المظفر سف الدين قطز، ص٨٣.

وقاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري[١]، واستشارهم الأمير سيف الدين قطز في أخذ الأموال من الرعية لإنفاقه على الحرب، واستشارهم أيضاً في موضوع السلطان أنه صبي ولا يقدر على إدارة البلاد وإدارة الحرب القادمة مع المغول[٢]، "وقال أن البلاد لا تستقيم إلا على سلطان قادر وقاهر يقدر على قهر هذا العدو، والملك الصبي صغير لا يعرف تدبير الملك"[٣]، واتفق الحاضرون للمجلس على توليته لأنه رجل قادر ونائب السلطان في سنة(٦٥٧هـ/١٢٥٩م) [٤]، ولقبوه بالسلطان المظفر ووافق الجميع على تعيينه[٥]، وقام السلطان المظفر قطز بعمل مجلس شورى حربي للرد على رسالة هولاكو له بالتسليم، فجمع الأمراء وشاورهم في أمر الرسالة بعد أن قرأها عليهم فأشار عليه الأمراء أنه لا بد من مواجه هذه العدوان لأن المغول ليس لهم أمان ولا عهد وأشار عليه الأمير الظاهر بيبرس أن يقوم بقتل الرسل والتوجه موحدين إلى المعركة إذا انتصرنا أو هزمنا في تلك الحالتين نكون معذورين، وأجمع مجلس شورى الحرب على هذه الخطة ووافق عليه السلطان قطز[٦]، وكان بعض سلاطين المماليك يستخدمون مجالس الشورى فقط، لتمرير قراراتهم وإعطائها الطابع الشرعي فقط واستفاد السلاطين من هذه الناحية فائدة كبيرة وخاصة من الخلفاء العباسيين الذين كان يعينهم السلطان، وكانت مهمة الخليفة رمزية أكثر من أن تكون فعلية فكانت مهمة الخليفة في مجالس الشورى الموافقة على رأي السلطان في أي أمر يريده مثل شن حرب وعقد صلح أو فرض ضرائب جديدة على الناس[٧].

فكان الخليفة المستنجد بالله[٨] أحد أعضاء مجلس الشورى الذي عقده الأشرف قايتباي سنة(٨٧٢هـ/١٤٦٧م) للنظر في أموال الأوقاف الموجودة على المساجد ومحاولة الإستيلاء على جزء منها لتجهيز الجيش بما يحتاجون إليه، وكان رأي الخليفة موافق لرأي السلطان لإعطاء شرعية

(١) السنجاري: قاضي القضاة، بدر الدين، أبو المحاسن السنجاري، الشافعي، الزرزاري، كان صدراً محتشماً، وجواداً ممدحاً. تقدم بسنجار وتلك البلاد عند الملك الأشرف، فلما تملك دمشق ولي قضاء البقاع وبعلبك والزبداني، وكان له نواب في بعضها وكتبوا له في سجلاته قاضي القضاة؛ الذهبي :تاريخ الإسلام، ج٤٩، ص١٦٢.

(٢) المصدر نفسه: ص٨٨.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥٥.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ص٤١٧؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥٥.

(٥) عبده، قاسم: السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص٩٠.

(٦) خليل، عماد الدين: دراسات تاريخية، ص٨٤.

(٧) ابن ايبك: كنز، ج٩، ص٧٩.

(٨) المستنجد بالله: يوسف المستنجد بالله أبو المحاسن بن محمد المتوكل على الله ١٤٥٥ ١٤٧٩ م ٨٥٩ ٨٨٤ هـ؛ بك، محمد فريد :تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ج١، ص١٠٥.

للقرار[١]، واستخدم السلطان الظاهر جقمق الخليفة والقضاة الأربعة بعزل السلطان العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباي سنة(٨٤٢هـ/١٤٣٨م) وعمل مجلس شورى صوري فقط لإعطاء الموضوع شرعية للإستيلاء على السلطة مرجعين الأمر إلى صغير سن السلطان، وأن الأمور لا تصلح إلا بتولية الأمير الكبير جقمق لتوحيد كلمة الأمة[٢].

وفي بعض الظروف كان سلاطين المماليك يستبدون بالرأي ويقرون ما يريدون دون الرجوع إلى أحد، كما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون لما غضب على الخليفة المستكفي بالله لأنه طلب السلطان إلى مجلس الشرع الشريف فشق ذلك على السلطان وهو الآمر الناهي في الدولة أن يذهب لمجلس دون علمه[٣]، وشكل سلاطين المماليك مجالس شورى وهمية شكلية فقط من قضاة المذاهب الأربعة لعزل الخليفة لأن تعيينه لا بد أن يحظى بمبايعة السلطان والقضاة للمذاهب الفقهية الأربعة[٤]، وكان بعض الأمراء يستخدمون قوة نفوذهم لفرض ما يريدون بالقوة على مجالس الشورى، كما فعل السلطان الناصر محمد مع الخليفة المستكفي بالله سنة(٧٤٠هـ/١٣٣٩م) [٥]، وكما فعل الأمير شيخون الناصري[٦].

عندما توفى الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفي سنة(٧٥٤هـ/١٣٥٣م) دون أن يعهد لأحد بالخلافة بعده[٧]، فعقد مجلس للتشاور كان بحضور السلطان الصالح بن الناصر محمد ومجموعة من القضاة والأمراء، وتم اختيار أن يتولى الخليفة أبي بكر بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان وهو ما أراده الأمير شيخون[٨]، وفي حين كان يصل إلى السلطان أن الأمور لا تسير في صالحه، مثل ما وقع مع السلطان بيبرس الجاشنكير حيث انظم الأمراء إلى الأمير محمد بن قلاوون عقد مجلس ليشاورهم في الأمر فطلب من الخليفة وبموافقة المجلس المنعقد أن يبايع الخليفة المستكفي بيعة جديدة لإعادة الاستقرار إلى البلاد، فوافق المجلس المنعقد على الطلب وقام

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص١٤.
(٢) ابن حجر: انباء الغمر: ج٩، ص٣٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٣٢.
(٣) ابن حجر: الدرر، ج٢، ص١٤١، ١٤٥؛ السيوطي، تاريخ، ص٧٧٢، ٧٧٣.
(٤) اليوسفي: النزهة، ص٨٧.
(٥) الصفدي: الوافي، ج١٥، ص٣٥٠؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٢٤٢.
(٦) شيخون الناصري: من الأمراء الذين عظم شأنهم في عهد الناصر حسن، توفي سنة(٧٥٨هـ/١٣٥٧م)؛ ابن حجر: الدرر، ج٢، ص١٩٦، ١٩٧.
(٧) ابن دقمان: الجوهر، ص١٩٠.
(٨) ابن اياس: جواهر، ص٤١٠.

السلطان بإرسال كتاب البيعة مع الأمير بهادر[١] إلى الأمير بزلغي[٢] حتى يستميل جنود الشام إلى صالحه لكن دون جدوى[٣]، وبذلك يمكن القول أن سلاطين المماليك استخدموا الحق في الشورى في كافة فترات حكمهم كي يستخدموه إما في نصرة الحق وفي تفضيل الحق كواجب شرعي حيث عليه الدين الإسلامي وشرط من شروط الحكم، ومنهم من استخدمه ليكون له غطاء لتنفيذ ما يريده من خلال عقد مجالس شورى وهمية يكون هو فيها صاحب القرار الأول والأخير وتكون مجالس لا قيمة لها مهمتها فقط شرعنه ما يريده السلطان فقط لا غير.

(١) الأمير بهادر عبد الله التركماني: توفي سنة(٧٣٩هـ/١٣٣٨م)؛ ابن حجر: الدرر، ج١، ص٤٧٦، ٤٧٧.

(٢) بزلغي: هو من مماليك الأشرف خليل بن قلاوون، توفي سنة(٧١١هـ/١٣١١م)؛ ابن حجر: الدرر، ج١، ص٤٧٦.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٦٤؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٧.

# المبحث الرابع
# الحق في المساواة بين المسلمين

وصلت دولة المماليك إلى الحكم في نهاية الدولة الأيوبية، وكان يسودها الضعف والتفكك ما أدى إلى ضياع حق المساواة بين المسلمين، وأكل قويهم ضعيفهم، فعمل سلاطين المماليك على تحسين تلك الأوضاع من خلال عمل جهاز قضائي قادر على اقامة العدل والمساواة بين المسلمين، وكان السلطان المنصور قلاوون يقوم بالعدل وإنصاف الرعية والتخفيف عنها فأبطل العديد من المظالم(١)، وعمل السلطان على حل مشاكل الرعية والمساواة بينهم في كل مشاكلهم، وكان كاتب السر يقوم بكتب المراسيم لقضاء حوائج المواطنين(٢)، ويسجل للسلطان المنصور قلاوون حتى في شراء المماليك إنه لم يكن يميل إلى جنس بعينه، وكان يختار الأقوياء النجباء ما ميزه عن غيره(٣)، وقد وازن السلطان المنصور قلاوون بين المذاهب الفقهية وأوقف لها مدارس لتدريس الفقه(٤)، طالب المدرسين بالإنصاف والمساواة بين الطلاب وإن يحسن التلطف مع الطلب والإيناس(٥)، وساوى السلطان في الضرائب التي تؤخذ من تجار المسلمين فأخذ منهم الحقوق السلطانية فقط (٦)، وحرص السلطان برقوق على المساواة بين الأمراء كي لا يقع تمرد داخل المملكة وكان الأمير إينال اليوسفي(٧) يحرض على الأمير بركة لكن السلطان برقوق كان شديد الحرص كي لا تكون الوشاية ناتجة عن كره الأمير اليوسفي للأمير بركة(٨)، وكان القضاء قوياً في عهد دولة المماليك ومن حق القاضي إن يستمع للشهود وأخذ منهم أهل الخيرة ويطبق عليهم فانون الجرح والتعديل كي يثق بهم(٩).

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٦٦٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ص٩٢٥.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٢٧.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٣٨٠.

(٥) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٢٦، ٢٢٧.

(٦) عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص٢٨٦.

(٧) إينال اليوسفي استقر أتابك العساكر في دولة الصالح حاجي ابن الأشرف وولي قبل ذلك نيابة طرابلس ثم نيابة حلب وفي ولايته على حلب جردت العساكر من مصر والشام وحلب فوطؤوا بلاد؛ العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٥١٦.

(٨) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ص٢٤٢، ٢٤٣.

(٩) ابن خلدون: المقدمة، ص٢٦٤.

ليتحقق مبدأ النزاهة والشفافية والمساواة بين الخصوم، ووجوب توفر شروط الأمانة والعدالة والنزاهة وتحري الصدق والشهادة بالحق، وفي حال عدم توفر هذه الشروط يجرحه القاضي ولا يقبل منه شهادة، وسأووي سلاطين المماليك بين أفراد الرعية وأنشأ السلطان الظاهر بيبرس دار العدل سنة(٦٦١هـ/١٢٦٢م) وكان يجلس بنفسه للنظر في المظالم، والقضاة يحيطون به ولا يغادر دار العدل إلا وحل جميع المشاكل المستعصية[١]، وتناقش في دار العدل القضايا العامة أو القضايا التي يعجز القضاء العادي عن حلها ويكون المعتدي من أصحاب النفوذ والجاه فلا يستطيع القضاء تنفيذ الحكم عليه فتحال الى السلطان أو نائبه في الثغر المعين، وقد يكون الوالي نفسه هو المتعدي فيتم المساواة بين المعتدي والمعتدي عليه أمام السلطان وينصف المظلوم ويعاقب الظالم مهما كان شأنه[٢]، وشهدت دولة المماليك الكثير من الهجرات من الدول الإسلامية الأخرى وصارت الدولة أرض أمن وأمان ومساواة بين المسلمين بعد ما ساد الرعب والفزع والهلع فهاجر إلى مصر العديد من أهل الأندلس وأهل المغرب العربي ومن بغداد هرباً من وحشية المغول[٣]، وسار إلى مصر الكثير من المسلمين من شتى بلاد الإسلام ونعم المواطنون فيها بالرخاء في ظل الأمن والأمان والعدل والمساواة التى توفرت في الدولة في عهد المماليك في سنة(٩٠٦هـ/١٥٠٠م). عندما استولى الإفرنج على غرناطة هاجر الكثير من أهل غرناطة إلى أرض دولة المماليك[٤]، وعكف سلاطين المماليك على إرجاء الحقوق إلى أصحابها، ورد المظالم حتى من كبار رجال الدولة إلى الناس، إحقاقاً لمبدأ المساواة بين المواطنين وإنه لا يوجد أحد فوق القانون، فاشتكى رجل على احد الأمراء، فأمر السلطان إن يضرب بالمقارع وسلم إلى والى القاهرة ليخلص منه المال فضربه الوالي وأهانه ثم سجنه في سجن خزانة شمائل سنة(٧٩٣هـ/١٣٩١م)[٥]، وأمر السلطان باعتقال أقيغا الماريديني نائب السلطان في الوجه القبلي بمصر، وضرب حتى تخلص منه حقوق الناس[٦].

وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون شديد الحرص على المساواة في الرعية لأنها أساس العدل وبها تستقيم له الأمور، وواجه الظالمين وحاكمهم وأمَن الناس ورفع عن كاهلهم الظلم، وتسلط الأمراء عليهم وحرص كل الحرص على إرضاء المواطنين، وكان يكره إن يوصف بالظالم

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص١٠.
(٢) الجعيدي، جميل عائد علي: دراسات في الحضارة الإسلامية، ص١٢٢.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع، مج ٥، ج٩، ص٢٨٢.
(٤) المصدر نفسه: مج٣، ج٦، ص١٢٨.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٢١.
(٦) المصدر نفسه: ج ١٢، ص١٩.

أو المتسلط فكان يرعى المواطنين ويرضيهم[١]، وأزال عن المواطنين الكثير من المظالم والعناء وأزال الرشوة وساد جو من المساواة بين أفراد الرعية[٢]، وتحرى عدم كره الرعية له، وكان يحب إن يراهم في المدن والشوارع[٣]، وسعى إلى تحويل حياة الرعية من ظلم إلى عدل ومن شقاء إلى رخاء[٤]، وصف الشيخ ابن تيمية السلطان بأنه عامل من أجل مصلحة الإسلام والمسلمين على الرغم من حبس السلطان له، وأبطل السلطان بعض القرارات التي تمس الرعية بالضرر[٥]، وساوى قاضي القضاة شرف الدين المغربي بين الرعية ونائب السلطان في القدس حين أراد تنفيذ حكم الإعدام في بعض الفلاحين دون أحكام ودون الرجوع إلى القاضي فأصر النائب على موقفه فقال له القاضي، والله لو أعدمتهم لأقتلنك وأنت بلباس السلطان ولأعلقنك إلى جانبهم لم يجرأ نائب السلطان على إعدامهم[٦].

ومع ذكر محاسن دولة المماليك في المساواة بين المسلمين إلا إن هذا لا ينكر حقيقة إن مجتمع المماليك كان مجتمعاً طبقياً موزعاً، فتكَّون من الطبقة الحاكمة المكونة من السلاطين والأمراء وكبار الملاك والإقطاعيين وأتباعهم في الدولة، وتمتعت تلك الفئة بجميع الامتيازات داخل الدولة وكانوا أصحاب اليد الطولي في البلاد[٧]، وهيمنوا على شؤون البلاد ومنهم من انغمس بالمفاسد واعتدوا على طوائف الشعب المختلفة، والطبقة الثانية طبقة رجال الدين وهم طائفة مميزة من الشعب كانت متفقهة في الدين وأموره وعارفة بتعاليمه وأحكامه، فكانت قريبة من الطبقة الحاكمة في أغلب الأحيان، ومنهم فئة وليتٌ بعض الوظائف العامة التابعة للحكام كأمانة السر والقضاة وديوان الأنشاء، وفئة أخرى اكتفت بالتدريس والخطابة، وبعضهم تفرغ للعلم فقط، وفي بعض الأحيان تتعارض هذه الطبقة مع الطبقة الحاكمة لخروج الطبقة الحاكمة عن تعاليم الدين وتجاوز المصلحة العامة[٨].

(١) الحجي، حياة: السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، ص٢٩.
(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٣٥؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص٦٩، ٨٠، ١٤٢.
(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢٢٨.
(٤) الدواداري: كنز الدرر، ج٩، ص١٩٤.
(٥) المصدر نفسه: ج٩، ص٩٨.
(٦) العليمي: الإنس، ج٢، ص٢٤٨.
(٧) أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٦، ص٦٧.
(٨) الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٣٦٦.

ورجال هذه الطبقة لا يخشون في الله لومة لائم، وينطقون بالحق أمام السلطان دون خوف منه أو وجل[١]، مثلما فعل الشيخ محي الدين النووي[٢] مع السلطان الظاهر بيبرس حينما لم يوافقه على جمع الأموال من الناس للخروج للقتال ما أغضب السلطان منه وقام بطرده من مجلسه[٣]، وساهمت هذه الطائفة بخدمة الأمة خدمات جليلة وكانت حريصة على مصالح الأمة أكثر من إرضائها للحكام، وكانوا في أغلب الأحيان لا يتقاضون أجراً مقابل أعمالهم[٤]، والطوائف الأخرى من طوائف الشعب المختلفة من الفلاحين والتجار والصناع والعوام، فكانت تعامل في ظل دولة المماليك معاملة واحدة لانهم يعتبرون طبقة دونية في المجتمع ينظر إليها نظرة ازدراء من الطبقة الحاكمة[٥]، ويشكل الفلاحون العدد الأكبر من هذه الطوائف، وكان يعاني الفلاحون من سوء المعاملة وانعدام المساواة فكان ينظر للفلاح على إنه للعمل فقط وليس له أي حقوق أخرى ويعتبر الفلاح مصطلح للشتيمة إذا كان أحدهم يريد إن يشتم الآخر يقول له يا فلاح، وغير إنهم كانوا يقهرون على العمل عنوة وإلزامهم بالعمل في كافة الظروف وتناسوا أن الفلاح حر وهو أمير نفسه وهو سيد نفسه[٦]، لم يكن الفلاحين يسمح لهم بالتمتع بأبسط الحقوق ومبادئ الحرية فلا يستطيع إن يتحرك كيفما شاء، ولا يلبس كما شاء ولا يركب فرساً فهضمت حقوقهم بالكامل وكانت تؤخذ الغلال إلى المخازن السلطانية[٧]، وكان حال أصحاب الحرف الأخرى أفضل بقليل من الفلاحين فكان لهم نقابات تدافع عن حقوقهم في بعض الأحيان[٨].

(١) ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٢٢٥.

(٢) النووي: يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن حزام ابن محمد بن جمعة النووي الشيخ الإمام العلامة محيي الدين أبو زكريا شيخ الإسلام أستاذ المتأخرين وحجة الله على اللاحقين والداعي إلى سبيل السالفين كان يحيى رحمه الله سيداً وهصوراً وليثا على النفس، هصوراً وزاهداً لم يبال بخراب الدنيا إذا صير دينه ربعا معمورا له الزهد والقناعة ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة والمصابرة على أنواع الخير، لا يصرف ساعة في غير طاعة هذا مع التفنن في أصناف العلوم فقهاً ومتون أحاديث وأسماء رجال ولغة وتصوفاً وغير ذلك، وإنا إذا أردت إن أجمل تفاصيل فضله وأدل الخلق على مبلغ مقداره بمختصر القول وفصله لم أزد على بيتين إنشدنيهما من لفظه لنفسه الشيخ الإمام وكان من حديثهما؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى: ج٨، ص٣٩٥.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٠٥.

(٤) أبو المحاسن: المهل الصافي، ج٢، ص٣٢٥.

(٥) الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٣٦٧.

(٦) السبكي: مصيد النعم، ص٣٤.

(٧) ابن منقد: الاعتبار، ص١٧٢؛ السبكي: معيد النعم، ص٤٤.

(٨) المصدر نفسه: ص١٧٩.

وكانت فئة الأعراب فئة مستقلة لها نمطها الخاص في الحياة، وكانت تفتش عن المراعي، وكانت منعزلة بعض الشيء عن المجتمع[١]، تميز عصر المماليك بالمساواة بين الرعية، ويرجع السبب إلى ذلك إن المماليك ليسوا من سكان هذه البلاد بل جاءوا إليها عبيداً واشتراهم الأيوبيون، وأهلتهم قدراتهم القتالية وشجاعتهم إلى الوصول إلى منصب السلطان فكانوا يحرصون كل الحرص على المساواة بين أفراد الرعية لضمان استمرار حكمهم، وكانوا عبارة عن طبقة إقطاعية توزع فيها الإقطاعات حسب تفوق الجندي وشجاعته والخدمات التي يؤديها إلى السلطان، ما أدى مع مرور الوقت إلى تكُّون حواجز بينهم وبين طوائف الشعب الأخرى واستبدادهم لتلك الطوائف في بعض الأحيان، ما سبب انعدام المساواة وتسلط الطبقة الحاكمة على باقي الطبقات.

(١) السبكي: معيد النعم، ص٥٤.

# الفصل الخامس
# حقوق أهل الذمة في دولة المماليك

**ويشتمل على ثلاثة مباحث:**

**المبحث الثالث: الحقوق الاجتماعية**

**المبحث الثاني: الحقوق الاقتصادية**

**المبحث الأول: الحقوق السياسية**

# المبحث الأول
# الحقوق السياسية

تعد فترة حكم المماليك من أهم الفترات في التاريخ الإسلامي بالنسبة لأهل الذمة، فكانت الدولة تقع في وسط من الإمارات الصليبية الموجودة في بلاد الشام والدولة البيزنطية وبلاد النوبة النصرانية، وكثر أهل الذمة في الدولة وكان لهم أحكام وحقوق يستندون إليها، فألف ابن قيم الجوزية[١] (توفى ٧٥١هـ/١٣٥٠م) مؤلفات خاصة لضمان حقوق أهل الذمة[٢]، فلم يترك الفقهاء المسلمون في حقوق أهل الذمة شيء إلا وفصلوه وأصلوه حسب الشريعة فقام ابن القيم بتنظيم من هم على غير الإسلام في دار الإسلام، وتميزت مؤلفات ابن القيم بالدقة والشمول والعمق، وشرح موقف الإسلام من الذميين في شعائرهم وأعيادهم ومناسباتهم وأعرافهم وتقاليدهم وأزيائهم ومقارنتها بأزياء المسلمين، وحق الذميين في المعاملات المالية والاقتصادية مع المسلمين، وفانون العقوبات والأمان، والحقوق المستوجبة على الذمي في دولة الإسلام مقابل ما يلقاه من أمن وأمان وحفاظ على أمنه والمشاركة في الحياة العامة في الدولة الإسلامية[٣]، ومن هذا المنطلق عمل سلاطين المماليك في تحديد علاقاتهم مع أهل الذمة وإعطائهم حقوقهم حسب الشرع فأعطى السلطان المنصور قلاوون لأهل الذمة حقوقاً سياسية، فكان أهل الذمة في ذلك العصر أقلية كبيرة في المجتمع، وقُدِّر عددهم في القاهرة وحدها بعشرين ألفاً نصفهم من الأقباط والنصف الآخر من اليهود[٤]، وتمتع أهل الذمة بجميع الحقوق التي تمتع بها المسلمون من حقوق وامتيازات[٥].

وأعطى لهم الحق في اختيار رهبانهم وأحبارهم، حيث قلد السلطان المنصور قلاوون الشيخ المهذب أبا الحسن المتطبب رئاسة اليهود سنة(٦٨٤هـ/ ١٢٨٥ م) وذلك لحفظ الطائفة

---

(١) ابن قيم الجوزية (٦٩١ –٧٥١هـ، ١٢٩٢– ١٣٥٠م). محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، من أعلام الإصلاح الديني في القرن الثامن الهجري. ولد في دمشق وتتلمذ على يد ابن تيمية، حيث تأثر به تأثرًا كبيرًا وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه. وسُجن ابن قيم الجوزية وعُذِّب عدة مرات، وأطلق من سجنه بقلعة دمشق بعد وفاة ابن تيمية. ومن أبرز كتب ابن قيّم الجوزية في مجال السياسة كتابه الشهير الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، كما إن له العديد من المؤلفات الأخرى في الشريعة والتفسير والفقه نذكر منها: أعلام الموقّعين؛ زاد المعاد؛ مدارج السالكين؛ الوابل الصيّب من الكلم الطيّب؛ التبيان في أقسام القرآن؛ النويري: نهاية الأرب ،ج٣٣، ص ٢٦٥ –٢٧٧؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٢١–٢٢.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢، ص٢٧٢،٢٧١.

(٣) الجوزية، ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ج١، ص٥–٦.

(٤) عاشور، سعيد: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٤٠.

(٥) المرجع نفسه: ص ٤٢–٤٣–٤٤–٤٥.

اليهودية وتجميعهم تحت رئيس واحد[١]، وأمره بإصلاح فاسدهم وتقويمهم وإن يحثهم على منهج دينهم الذي يدينونه، ويسلك بهم معتقدهم الذي يعتقدون، وأن يصلح السيرة فيهم لما يقضي لاستقامة أحوالهم ويؤدي إلى انتظام شملهم وتوحيد أقوالهم وأفعالهم[٢]، وتعامل السلطان الظاهر بيبرس مع أهل الذمة وإعطائهم حقوقهم السياسية، فبعد حملته على النوبة وتدمير حاميتها وأسره لكبار قادتها عقد الصلح مع زعيمهم (شكندة)، ومن بنود الصلح أن يعطى حقه السياسي في حكم بلاد النوبة مقابل دفع الجزية وإرسال أموال الملك الذي قبله إلى المماليك، وتوزع خيارات بلاد النوبة مناصفة بين سلطان المماليك وملك النوبة[٣]، وخير السلطان الظاهر بيبرس ملك النوبة ثلاثة خيارات والتي يخير بها المسلمون الخاسر في المعركة وهي الإسلام أو الجزية أو القتل، فاختار ملك النوبة الجزية وذلك بدفع دينار سنوي عن كل فرد عاقل بالغ في ملكه، وأنشأ السلطان الظاهر بيبرس ديواناً للنوبة لجمع الجزية منها وعين عليه الوزير (بهاء الدين بن حنا ) [٤] وأخذ السلطان الظاهر بيبرس عشرين أميراً من أمراء النوبة، ليكونوا تحت يده وإطلاق سراح جميع المسلمين الموجودين في النوبة والتزم ملك النوبة بكل هذه الشروط ووافق عليها وأعلن ولاءه للظاهر بيبرس ما دام في منصبه، وتعهد ببذل كافة جهوده لنيل رضاه[٥]، وأعطى السلطان الظاهر بيبرس لأهل الذمة حرية اختيار البطريرك حيث سمح للطائفة الملكانية[٦]

في الدولة باستقدام بطريرك من القسطنطينية، وذلك بعد إن ساد الود بين القسطنطينية

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢١٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٢١٧.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص٢٧٤.

(٤) هو تاج الدين بن الصاحب فخر الدين ولد الصاحب بهاء الدين، المشهور بابن حنا، ولد في سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وتزوّج بابنة الوزير الصاحب شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزيّ، وناب عن والده في الوزارة، وولي ديوان الأحباش ووزارة الصحة في أيام الظاهر بيبرس، وسمع الحديث بالقاهرة ودمشق، وحدّث، وله شعر جيد، ودرس بمدرسة أبيه الصاحب بهاء الدين التي كانت في زقاق القناديل بمصر، وكان محباً لأهل الخير والصلاح مؤثراً لهم متفقداً لأحوالهم، وعمر رباطاً حسناً بالقرافة الكبرى، رتب فيه جماعة من الفقراء؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٦.

(٥) عاشور، سعيد: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص٨٢.

(٦) الطائفة الملكانية: وهم طائفة سميت بهذا الاسم في بلاد الروم وقيل إن ملكان كان أحد قياصر الروم ويدينون بالطاعة إلى البابا والذي هو بطريرك روما، ويدينون بالولاء للبابا في روما وكان خاضعاً للكنيسة في القسطنطينية التي هي بدورها تخضع لسلطة الإمبراطور البيزنطي؛ القلقشندي: صبحي الأعشى، ج١٣، ٢٧١-٢٧٦.

ودولة المماليك، وفي المقابل بنى قيصر القسطنطينية مسجداً للمسلمين في مملكته[١]، وأرسل السلطان الظاهر بيبرس أساقفة من المذهب الملكاني (الروم الأرثوذوكس) إلى القسطنطينية وأكرمهم الإمبراطور البيزنطي وعينهم أساقفة لذلك المذهب في الإمبراطورية[٢]، وكانت الأقليات الدينية في مصر وأهل الذمة من المسيحين واليهود ينقسمون فيما بينهم، فالمسيحيون كانوا يتبعون المذهب الملكاني وفريقاً آخراً يتبع مذهب اليعاقبة[٣]، وأما اليهود فكانت طوائفهم ثلاث طوائف وهم الربانيون[٤] والقارئون[٥] والسامرة[٦] وكانت تحدث خلافات كبيرة بينهم ما يضطر الدولة لحل هذه الخلافات، وأغلب منتسبي هذا المذهب من النصارى غير المصريين[٧]، وأعطى سلاطين المماليك لهذه الطائفة حق تعيين بطريرك خاص بها وأعطيت له صلاحيات تنظيم العلاقة بين طائفته وطوائف أخرى، وللبطريرك الحق بالإشراف على الكنائس والأديرة الموجودة في الدولة بالإضافة إلى حقه في تعيين الأساقفة التابعين له[٨].

---

(١) القلقشندي: صبحي الأعشى، ج١٣، ص٢٠٠؛ موير، السير وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص٥١.

(٢) هم الأقباط أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، وهم ينسبون إلى يعقوب البرادعي أحد زعمائهم أو نسبة إلى البطريرك ديس قورس نفسه، لأن اسمه كان قبل تولي البطريركية يعقوب، أو نسبة إلى تلاميذ ديس قورس واسمه يعقوب وهم الأقباط الأرثودوكس ويمتلون غالبية أهل الذمة المسيحيين في مصر؛ القلقشندي: صبحي الأعشى، ج١٣، ص٢٧١؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ٤٨٨.الخالدي: المقصد الربيع، ص١٣٩.

(٣) يمثلون غالبية اليهود وسموا بهذه التسمية تحريفاً للكلمة العبرية ربانيم التي تعني الإمام أو الحبر أو الفقيه، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في قوله تعالى{ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ } [سورة المائدة: الأية ٤٣]. ويعود سبب هذه التسمية على إن الربانيين أخذوا بتفسيرات أهل اليهود وعلمائهم التي تضمنها التلمود؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي: ص ٧٥ ؛الخالدي: المقصد الرفيع، ص١٤١.

(٤) سموا بهذا الاسم لأنهم لا يؤمنون بغير التوراة المكتوبة يمكنهم قراءتها وهم لا يعترفون بغيرها، كالتلمود وغيرها.. ويرجع عصر هذه الفرقة إلى عنان بن داوود؛ القلقشندي: صبحي الأعشى، ص١١، ص٢١٧؛ الخالدي: المقصد الرفيع: ص١١٠.

(٥) فرقة صغيرة من اليهود يرجع تاريخها إلى الفترة التي أعقبت تدمير مملكة اسرائيل التي انشقت عن مملكة سليمان بعد وفاته وسموا ايضاً بهذا الاسم إلى السبي البابلي سنة(٥٨٦ ق/م) لأنهم بنوا هيكلهم المقدس فوق جبل جرزيم القريب من مدينة نابلس؛ القلقشندي: صبحي الأعشى، ص٢٦٨-٢٦٩؛ ابن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج١، ص٩٢.

(٦) العيني: عقد الجمان: ج١، ص٣٣٢؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٢٩.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٣٩٢؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج١، ص٢٨٩.

(٨) المصدر نفسه : ج١١، ص٣٩٣؛ العمري، ابن فضل الله: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤٥.

وخصهم السلاطين بالاهتمام واجتمعوا بهم ودعوهم لحضور المجالس السلطانية كما فعل السلطان الظاهر جقمق، وناقش زعماء الطوائف الدينية غير المسلمة وأهل الذمة في الأمور الخاصة بطوائفهم(١)، وحرص المماليك على التزامهم العدالة تجاه أبناء أهل الذمة عملاً بتعاليم الدين الإسلامي، فعمل أهل الذمة من اليهود والنصارى في الجهاز الإداري في الدولة، فسمح للمسيحيين واليهود من أهل الذمة بأن يعملوا موظفين في الشؤون الإدارية والمالية في الدولة وخاصة الأقباط لما يتمتعوا به من خبرات في هذا المجال، ولم تستطع الدولة الاستغناء عنهم وعملوا في دواوين السلاطين والأمراء(٢)، وأخذ أهل الذمة في الدولة دوراً مهماً وسموا أنفسهم بألقاب المسلمين وكناهم، وكان منهم موظفون كبار في الدولة يتقرب منه المسلم لقضاء حاجته(٣)، وأعطى المماليك أهل الذمة في بلاد الشام حقوقهم السياسية، ويرجع ذلك إلى أقدم العهود عندما فتح خالد بن الوليد بلاد الشام وأعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسوَّر مدينتهم، لا يهدم لا يسكن شيئاً من دورهم لهم ذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين، لا يعرض لهم إلا بخير إذا اعطوا الجزية(٤)، ونعم أهل الذمة في مصر بكافة حقوقهم زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون وانخرطوا في المجتمع ووصلوا إلى مناصب كبيرة في وظائف الدولة حتى أصبح بيدهم أمور كثيرة تخص المجتمع بأسره ومناصب عليا في المجتمع، الأمر الذي لم يرق للمسلمين في ذلك الوقت(٥)، وعلى الناظر إن يلاحظ إن دولة المماليك عاشت فترة حروب مع الصليبيين ما أدى بدوره إلى حالات جذب في هذه الحقوق فكانت تعطى في أوقات السلم وفي فترات الراحة، ولكن في فترات الحرب كان يعتدى عليها حيث اتسمت سياسة بعض الأمراء بالقوة والشدة مع أهل الذمة، حيث أمر السلطان المنصور قلاوون بصرف كاتب الجيوش المنصورة من النصارى وإن يستخدم بدلاً منه كاتب مسلم وأمر بنفس اليوم بهدم دير الخندق(٦) الموجود بالقاهرة وهدمه أمام الناس(٧).

---

(١) السخاوي: التبير المسبوك، ص٣٩.

(٢) ابن النقاش: المذمة في استعمال أهل الذمة، ص٩٧؛ ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٣٩؛ الدوادار، ابن ابيك: الدرر في سيرة الملك الناصر، ص٥٠.

(٣) ابن الأخوة: معالم القربة، ص٤٣.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢١.

(٥) ابن الجزري: تاريخ ابن الجزري، ج١، ض٥٣٢؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٣٥٩؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٩٩.

(٦) دير الخندق: هو دير كان في القاهرة قبالة وحول الجامع الأقمر قريباً من بئر العظمة، وقد هدم هذا الدير في عهد جوهر الصقلي وعرف منذ ذلك الوقت بدير الخندق؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ،ج٢، ص٥٠٧.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٦٦٧.

وألزم الأمير سنجر الشجاعي أهل الذمة بأن يركبوا الحمير بزنانير في أوساطهم، ووصل الأمر أن لا يجرؤ نصراني إن يحدث مؤمناً وهو راكب، ولا يستطيع إن يلبس ذمي ثوباً مصقولاً[١]، واصدر مرسوماً يشترط فيه بألا يعمل في البيمارستان المنصوري إلا المسلمون، وليس من حق الناظر في هذا الوقف إن ينزل في هذا البيمارستان من المرضى ولا من المختلين ولا من الأطباء ولا من المباشرين ولا في أي وظيفة في هذا البيمارستان يهودياً ولا نصرانياً، فإن فعل هذا الناظر غير ما أمره به السلطان المنصور قلاوون فإن فعله مردود عليه غير معمول به ويبوء بسخط من الله والسلطان[٢]، وكان القضاة يحاسبون كل من يتعرض للنبي ﷺ والصحابة بالسب فحكموا عليهم بالإعدام، ولم يكن أهل الذمة بمنأى عن تلك الأحكام فقد شُمِلوا بتلك الأحكام إذا تعرضوا للرسول ﷺ وصحابته الكرام بالسب والشتم[٣]، وأصدر السلطان الأشرف خليل بن قلاوون مراسيم كثيرة بحق أهل الذمة للحد من نفوذهم بسبب سرفهم ببذخ وتعاليهم على المسلمين، ما دفع السلطان إلى اصدار مرسوم بعدم استخدم أي من النصارى واليهود في الدواوين[٤]، وفي عهده طلب الأشرف خليل من الأمراء إن يعرضوا الإسلام على كتبة الدواوين من النصارى واليهود للحفاظ على وظائفهم[٥]، حتى إنه جاء مرسوم إلى دمشق بإلزام الدواوين بالإسلام ومن امتنع يؤخذ منه ألف دينار فأسلم أربعة من كتبة الدواوين[٦].

وتوعد الأشرف من لم يسلم من أهل الذمة بالقتل وذلك راجعٌ إلى إن كاتباً نصرانيا يعرف بإسماعيل الغزال قام بإذلال سمسار مسلمٍ وقام باعتقاله، ما أدى إلى ثورة المسلمين وتقدموا بشكوى إلى السلطان الأشرف خليل فقام السلطان بدوره بتقصي الحقيقة فتأكد من الخبر فجمع الكتبة من النصارى ليقتلهم نكاية بما فعل بالمسلم، وأمر المنادين إن ينادوا بألا يخدم أي من النصارى واليهود عند أمير، وأصدر أوامره إلى الأمراء بإعدام من عندهم من أهل الكتاب ويعرضوا عليهم الإسلام فمن لم من يسلم فليضرب الأمير عنقه ومن أسلم فليبق في عمله، ما أدى إلى هيجان العامة فنهبت بيوت أهل الذمة وسبيت نساؤهم وقتل رجالهم واسلم عدد كبير منهم للحفاظ على أنفسهم وأموالهم[٧].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٤٩٧.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٢٤.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص١٣١.

(٤) الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص٢١٦؛ بردي، ابن تغري: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٢.

(٥) البرزالى: المقتضي، ج١، ص٣٣٦.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص٢٦.

(٧) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣، ص٥٤٦؛ العيني: عقد الجمان، ج٣، ص١٨٢.

ولم تذكر هذه الحادثة إلا عند المقريزي ولم يذكرها غيره من المؤرخين المعاصرين، ما يشكك في صحة هذه الرواية ولكن لا بد من ذكر إن المسلمين نظروا في غالب الأحيان إلى المسيحيين واليهود نظرة الأخوة الإنسانية، ولم يشعر أهل الذمة بأي نوع من التفرقة والحرمان من الميزات السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلا في أوقات الفتن، وتلك المشاعر لم تكن أصيلة في وجدان المسلمين بل سرعان ما تزول عندما تعود الأمور إلى طبيعتها وتحل مشاعر التسامح والود بدلاً من مشاعر الغضب والكراهية وذلك عندما تزول أسباب الفتن والبغضاء، فعلى سبيل المثال في فترات الفتن كان يفرض على أهل الذمة أزياء خاصة كمثل المرسوم السلطاني سنة(٧٠٠هـ/١٣٠١م) واستمر لفترة طويلة وحدد بموجبه زي النصارى واليهود فألزم النصارى بلبس العمامة الزرقاء واليهود القراء الملابس الصفراء والسامرة العمائم الحمراء[١]، ومن القيود المفروضة عليهم بتحديد أنواع معينة من الدواب ليركبوها وكان المرسوم عاماً يشمل كل أهل الذمة في جميع الأراضي الممتدة من النوبة إلى الفرات، ولكن في الأحوال العادية فتشير أغلب المصادر إلى أن سلاطين المماليك وأمراءهم كانوا يرعون أهل الذمة ويبسطون عليهم ألوان الرعاية والحماية ويوفرون لهم العدل والإنصاف ويحمونهم ويحمون ممتلكاتهم من إن تمتد إليها يد الطامع[٢]، ومارسوا عبادتهم بحرَّية في كنائسهم وبيعهم، ولهم قساوسة وبطريرك عام يرعى شؤونهم وكانوا يقومون بتنظيم شؤونهم دون إن يتدخل فيهم أحد، ما وفر لهم الحرية السياسية في علاقتهم مع الدول المسيحية والإمبراطورية البيزنطية[٣]، وقد حُسد أهل الذمة على الحقوق الذي نالوها في عهد دولة المماليك لدرجة إن وزير من بلاد المغرب العربي زار مصر فرأى أهل الذمة يتمتعون بحقوقٍ كبيرة في أراضي السلطنة فبكى بكاءً شديداً وقال كيف ترجون نصراً وكل هذا التكريم للنصارى عندكم، يركبون الخيول ويلبسون العمائم البيض ويذل المسلمين ويقومون على خدمة أهل الذمة ما حذا بالسلطان إن يجتمع مع القضاة وبطاركة النصارى وأحبار اليهود، وأمر السلطان بتطبيق الشرع على أهل الذمة وتميزهم عن المسلمين، ومنع تعاليهم عليهم ففرح المسلمون بهذا القرار فرحاً كبيراً واستبشروا به خيراً[٤].

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٢، ص٢٣٢.

(٢) المصدر نفسه

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى،ج١١، ص ٢٢٠؛ نزهة النفوس والأبدان، ج١، ص٢١١؛ العمري، ابن فضل الله: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤٤.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٣٥٩.

## المبحث الثاني
## الحقوق الاقتصادية

حافظت الدولة لأهل الذمة على حقوقهم الاقتصادية وبأوامر مباشرة من سلاطينها، وخففت الكثير عن كاهلهم، وفي سنة(٦٧٨هـ/١٢٧٩م) ألغى السلطان المنصور قلاوون مقرر النصارى وألغى الضريبة عن الرهبان وأعفاهم من الحقوق والرسوم والمقاسات والأعشار[١]، وعمل أهل الذمة في المهن التي تدرُّ عليهم أموالاً طائلة كصياغة الذهب وتجارة الطب[٢]، وكانت تأتيهم المساعدات المالية والعينية من الدول الصليبية والمسيحية من جميع أنحاء العالم وتتركها الدولة تمر دون أن أخذ شيئاً منها[٣]، وتمكن اليهود والنصارى من جمع ثروة عظيمة من جراء عملهم بالتجارة والبيع، فاشتغلوا في شتى أوجه الأنشطة المعروفة في ذلك الوقت سواء التجارة أو الصناعة أو الحرف، فعملوا بتجارة الزيت الطيب مع بعض الأهالي والكتان والجلود، وعقدوا صفقات كبيرة في تجارة العبيد والجواري، وساهم أهل الذمة في الحياة الاقتصادية في أعمال صيانة مرافق الري مثل حفر الترع وبناء الجسور ما إلى ذلك من الأعمال الأخرى وتتم هذه الأمور برغبتهم مثل معظم الطوائف الموجودة في الدولة أو بالإجبار والسخرة مثل باقي أفراد الشعب، وفي سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م) بعد إن جفت مياه النيل من جهة القاهرة وأصبحت المياه ضحلة ولا تصلح للشرب ارتفعت الأسعار وأرادت الدولة بناء جسر على النيل عن طريق الجيزة متجهاً إلى القاهرة فقامت السلطات بجمع نفقات هذا الجسر من كافة طوائف الشعب ولم يستثنِ القرار أهل الذمة من اليهود والنصارى، ولم يعفِ أحداً من هذه الضريبة فدفعتها المساجد والخوانق والأديرة والكنائس والزوايا والمنازل والحوانيت[٤]، وفي سنة(٨١٨هـ/١٤١٥م) حين قام السلطان المؤيد شيخ المحمودي بشق خليج على النيل استدعى للعمل في هذا المشروع جميع طوائف الشعب، وألزم والى القاهرة أهل الذمة من اليهود والنصارى بالخروج ضمن طوائف الشعب للمساهمة في العمل[٥]، وفي نفس العام قام ابن السلطان بعمل جولة تفقدية للمشروع الذي قام به والده وألزم الشعب من المسلمين وأهل الذمة ليعملوا في المشروع لمدة يومين[٦].

---

(١) قاسم: أهل الذمة، ص٧٤.

(٢) قاسم، عبده قاسم: اليهود في مصر، ص٣٣.

(٣) إسكندر، فايز نجيب: مصر في كتابات الحجاج الروس، ص٥٦-٥٧.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج١، ص١٦٧.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٣١٣؛ العيني: السف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص٣٣٢.

(٦) المصدر نفسه : ص٣١٨.

وشارك أهل الذمة في النشاط الزراعي داخل أراضي الدولة، واعتبرت الزراعة هي المهنة الرئيسة لهم منذ القدم، واحتفظ الذميون بأرضهم على مر السنين بناءً على أوامر الخليفة عمر بن الخطاب بأن يعامل أهل مصر تحديداً على إن بلادهم فتحت صلحاً؛ ما أدى إلى احتفاظهم بأرضهم مقابل ضريبة الخراج[١]، ومارس أهل الذمة النشاط الاقتصادي ما بين التجارة والصناعة وبعض المهن الأخرى، وعمل اليهود في مختلف الحرف وخاصة النشاط المصرفي والأعمال المالية[٢]، ولليهود صناعات صغيرة يعتمدون عليها؛ لتوفير قوتهم اليومي، فكان لهم مطابخ للسكر ولهم سوق خاص يعرف بأسمهم[٣]، وكانت النساء اليهوديات يعملن كدلالات يقمن بحمل البضاعة من ملبوسات أو مفروشات ويتم عرضها على السيدات في المنازل؛ ما يوفر على تلك السيدات عناء الذهاب إلى السوق وخاصة نساء الشرائح الاجتماعية المعروفة بغناها في المجتمع، وعمل بعض اليهود في مهنة التنجيم واشتهروا في هذا المجال[٤]، وعمل بعض اليهود في مهن أخرى كالنسيج[٥]، واختلط أهل الذمة من المسيحيين بالمجتمع وكان لهم نشاط تجاري واضح فيه، ولهم نشاطات بضبط بعض الموازين ومثاقيلها وكانت تحمل على الوجهين كتابة بالعربية والقبطية[٦]، وعمل كثير من المسيحيين بصناعة الخمور وكانت مزارع الكروم على سفوح دمشق ومغانيها واشتهر النبيذ الدمشقي بشكل كبير في بلاد الشام، وسمح بعض السلاطين بصناعة تلك الخمور في بعض الأحيان على إن تباع في خانات خاصة[٧]، وسمحت الدولة لمجموعة من المسحيين بصياغة الذهب والفضة والمجوهرات وتقطيع الأحجار الكريمة والتكفيت[٨]، وزاول اليهود مهنة التجارة في دمشق وكان لهم مكانة في تلك الفترة[٩]، واشتهر الأطباء اليهود والصيادلة والصناع المهرة والصياغة والصيارفة والنساجون[١٠]

(١) عاشور، سعيد: المجتمع المصري، ص٤٠.
(٢) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٤٤٣.
(٣) ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص٣٤-٤٤.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٩.
(٥) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٨.
(٦) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٨٦.
(٧) ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج١، ص٢١١.
(٨) التكفيت: هو تطعيم النحاس بالفضة أو الفضة بالذهب وذلك إن تحفر الزخارف على السطح المراد زخرفته ثم يملأ بالذهب أو الفضة؛ مرزوق، محمد عبد العزيز: الفن الإسلامي، ص١٤٤.
(٩) الأندلسي، بنيامين: رحلة بنيامين، ص١٠٩.
(١٠) القلقشندي: صبح الأعشى، صج٤، ص١٩٤؛ العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤٣.

وساهمت الدولة في صيانة الحقوق الاقتصادية لأهل الذمة، وفي بعض الأوقات تعرضت تلك الحقوق للانتهاك، ومن خلال إغلاق بعض الكنائس في مصر والشام التي بنيت حديثاً، وقام المسلمون هدم بيوت أهل الذمة تجاور بيوتهم والتي أعلى من بيوت المسلمين وهدموا بيوت المسيحيين الأعلى من بيوت المسلمين وهدموا الحوانيت المجاورة لحوانيتهم، وإنزال مصطبة حانوت الذمي بحيث تكون مصطبة حانوت المسلم أعلى وأرفع[١]، وازداد سخط المسلمين على أهل الذمة لما رأوه من خيانة تلك الطوائف للمسلمين حيث أيد بعضهم المغول، وسار في حلفهم ضد المسلمين وناصروا جيش المغول على الجيش المسلم[٢]، وصور ابن كثير تعاون النصارى مع المغول واعتدوا على المسلمين وسبوا نساءهم ونهبوا أموالهم وحرقوا مساجدهم في الصالحية ومسجد الأسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الأشرفية واحترق جامع التوبة وذلك بهجوم النصارى عليها[٣]، ورد المسلمون عليهم فحرقوا بيوتهم وهدموا كنائسهم وصادروا أموالهم وحاول السلطان المنصور قلاوون إصدار المراسيم لإيقاف حالة الاحتقان وذلك من خلال تطبيق الشرع على أهل الذمة وتطبيق العهدة العمرية وفرض الجزية وتحديد لباسهم وركوبهم متوعدهم إن خالفوا هذه المراسيم[٤]، وتفاوتت معاملة سلاطين المماليك لأهل الذمة ويرجع ذلك لأسباب أهمها الحروب الصليبية التي دارت رحاها في الشرق الإسلامي في القرنين (٦-٧هـ/١٢-١٣م)، فتوجس المسلمون من أهل الذمة وأصبح بينهم شعور سائد بعدم الإرتياح والثقة فيهم لتورط بعض الذميين بالإيتصال بالقوى الصليبية والتجسس لحسابهم[٥]، وقد حدثت مصادرات لأموال النصارى، عندما توفي بطريرك النصارى[٦] عام(٧٤٠هـ/١٣٣٩م) نزل ناظر السلطان عبد الوهاب النشو[٧] إلى الكنيسة، وأخذ كل ما فيها من ذهب وفضة وشمع وغيره[٨].

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١١٠.

(٢) الدواداري: كنز الدرر، ج١٤، ص٨؛

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٦٨؛ المقريزي: السلوك، ص١ج، ق٣، ص٨٩٥.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٩٦١.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٣٢-١٣٣.

(٦) بطريرك النصارى: أي رئيس النصارى وقد تطور كرسي البطرقية في مصر بعد الفتح الإسلامي؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٩٢-٥٠٠.

(٧) عبد الوهاب النشو: هو عبد الوهاب بن فضل الله الكاتب شرف الدين خدم عند الأمير أيد غموش وكان كاتباً ثم جعله الناصر محمد مستوفياً في الجيزة فحقق كفاءه كبيرة فنقله إلى استيفاء الدولة وهو نصراني ثم استلمه الناصر محمد وعينه ناظر الخاص السلطاني فحقق أرباحاً طائلة فكثرت مظالمة للتجار والمزارعين، وأكثر من مصادرة الأمراء والكتاب فتعاونوا ضده حتى أوغلوا صدر السلطان الناصر محمد عليه وقبض عليه وصادر أمواله وقتله سنة(٧٤٠هـ)؛ ابن حجر: الدرر، ج٣، ص٤٢-٤٤.

(٨) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٦٤.

وقامت العلاقات الاقتصادية بين الأقليات الدينية ومسائل البيع والشراء كانت تتم بين اليهود والنصارى والمسلمين بشكل طبيعي تكشف على إنهم جميعاً تساووا في هذا المجال، وكان تصرفات أبناء الأقليات الدينية القانونية مثل البيع والرهن والوقف ومصادقة شرعية واستيفاء الديوان وتصفية التركات وغير ذلك تتم على يد أحد القضاة المسلمين، وكان في بعض الأحيان الشهود على التصرفات المالية والقانونية مثل البيع والشراء والوقف لأهل الذمة من المسلمين وفي أحيان أخرى يكون بعضهم من الذميين، وكان اليهود والمسيحيون في الدولة يخرجون مع غيرهم من أبناء المجتمع لأداء صلاة الاستسقاء يحملون كتبهم المقدسة ويبتهلون إلى الله تعالى لتنزل الأمطار ويزداد فيضان النيل[1]، وكانت الحروب الصليبية التي جاءت إلى المشرق الإسلامي سبباً مباشراً في التأثير على الحقوق الاقتصادية لأهل الذمة المقيمين ضمن دولة الإسلام، ويرى الباحث أن هذه الحقوق تتذبذب ما بين السلب والإيجاب، ففي وقت الحروب تضيع هذه الحقوق بسبب ما يعانيه المسلمون من قتل وتشريد ومصادرة وسبيٍ على أيدي الصليبيين، ما يوغر صدور المسلمين عليهم فيردوا عليهم بالمثل فتنهب البيوت وتصادر الأموال وتهدم الكنائس، وفي المقابل في حالات السلم تعطى الحقوق لأهل الذمة ولحفظ العلاقات التجارية والعلاقات الدبلوماسية مع الغرب الأوروبي والإمبراطورية البيزنطية لما يمثلانه من البعد المادي والمعنوي للطوائف المسيحية في بلاد المسلمين فكانت تتم السفارات وتتبادل الحقوق، فيعطى مسلمو الغرب بعض الحقوق وفي المقابل يعطى مسيحيو الشرق بعض هذه الحقوق، لذلك يمكن الجزم بأن هذه الحقوق تعطى حسب العلاقات بين المشرق الإسلامي والغرب المسيحي ففي حال السلم تُرعى وتُصان الحقوق وفي حال الحرب تضيع وتُصادر.

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٢٢٩.

## المبحث الثالث
## الحقوق الاجتماعية

مارس أهل الذمة حقوقهم الاجتماعية بكل أريحية في ظل الدولة، لهم مناسباتهم الخاصة وأعيادهم وعلاقاتهم الاجتماعية، وتأثر المجتمع بهم وتأثروا به، فأخذوا عن المسلمين، والمسلمين أخذوا عنهم، ولهم العديد من المناسبات من أمثلتها عيد الشهيد وعيد النيروز وهذه الأعياد من أعياد النصارى فكان عيد الشهيد عيداً دينياً وقومياً في إن واحد، ويقام سنوياً في ثامن بشنس من شهور القبط والاحتفال يقوم على أساس مهرجان كبير في مدينة شبرا ويرجع سبب القيام في هذا العيد إن الأقباط يدعون بأن نهر النيل لا يفيض إلا بعد غمس إصبع أحد القديسين في مائه ويؤخذ هذا الإصبع ويوضع في تابوت ويحفظ في كنسية في مدينة شبرا ويصبح هذا الإصبع من الشهداء[١]، ويقوم الأقباط في هذا العيد بالتوافد من جميع أنحاء البلاد ويتوافد المواطنون من جميع الديانات لحضور هذا المهرجان الضخم وتنصب الخيام لأعداد كبيرة على النيل وفي جزره، وكان يجتمع الفرسان بخيولهم يرقصون على إيقاعات الطبول وإنغام المغاني ويجتمع أهل الطرب من عرب وغيرهم من كل أنحاء البلاد، ويجتمع المغنون وأصحاب اللهو فلا يبقى بغي ولا مخنث ولا خليع ولا فاسق إلا ويخرج لهذا العيد، والاحتفالات بهذا العيد تمتد ليومين أو لثلاثة ليالي[٢]، وتباع في هذا العيد الخمور[٣]، واحتفل المسيحيون أيضاً بعيدٍ آخر وهو عيد النيروز، ويحتفل به في الأول من توت حسب التقويم القبطي وهو عيد موروث عن قدماء المصريين جعل تكريماً لنهر النيل بعد اكتمال مياهه، وصاحب هذا العيد عطلة رسمية في البلاد تعطل فيه الأسواق وشارك المسلمون أهل الذمة من النصارى الاحتفال بهذا العيد، ومن المظاهر الاجتماعية لهذا العيد أن أهل الذمة يصنعون بعض الحلوى ويفرقونها في يوم العيد على جيرانهم وأحبابهم وأقاربهم[٤]، وكان من ظواهر هذا العيد عن القبط إيقاظ النيران والتراشق بالمياه[٥]

في الشوارع والطرقات وفي أماكن النزهة وخص المماليك هذا اليوم بعمل موكب له يجوب القاهرة وانتشرت أيضاً بعض الأعياد تسمى بالنيروزيات وقت الفيضان، وهناك أيضاً عيد الصليب وتسمى بالصليبيات، وعلى أية حال شارك اليهود والنصارى من أهل الذمة في الحياة الاجتماعية وكانوا جزء لا يتجزأ من هذه الحياة وكانوا يخضعون للظواهر الاجتماعية، كما يخضع لها المجتمع

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج١، ص٦٨؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٦٩.
(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٥٢.
(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٩٩؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج١، ص٦٨.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٢٠٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢٠٢.
(٥) عاشور، سعيد: المجتمع المصري، ص٢٠١.

فكان أبناء الطوائف اليهودية والمسيحية يشاركون غيرهم من أبناء الطوائف الأخرى من المسلمين في الاستجابة للأوامر العليا من السلطات الحاكمة بتزيين الحوانيت والأسواق والتجمع في طريق الموكب السلطاني ويحملون كتبهم المقدسة والشموع الموقدة ويشاركون في المناسبات الاجتماعية، ففي سنة(٦٥٨هـ/١٢٦٠م) حيث قام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية فخرج رعايا الدولة باستقبال الخليفة العباسي وكان من ضمن هذه الجموع أهل الذمة من اليهود والنصارى يحملون توارثهم وأناجيلهم[١]، وأثناء عودة السلطان الظاهر برقوق إلى عرش السلطنة سنة(٧٩٢هـ/١٣٩٠م) شارك أهل الذمة من اليهود والنصارى في استقباله، وفي نفس العام استقبله المسلمون واليهود والنصارى استقبالاً باهراً لدى عودته من رحلة الصيد، وفي سنة(٨٨٠هـ/١٤٧٨م) خرج اليهود والنصارى في استقبال السلطان الأشرف قتباي بمناسبة عودته من رحله الصيد[٢]، وتمتع أهل الذمة بحرياتهم الاجتماعية داخل إطار الحياة العامة ككل ومارسوا حياتهم بشكل طبيعي وقاموا بدورهم الإيجابي داخل المجتمع، وقام اليهود والنصارى بمشاركة المصريين في أفراحهم ومصائبهم فيفرحون عند اكتمال النيل ويخرجون عند نقصانه مع أبناء مصر إلى الصحراء لأداء صلاة الاستسقاء ومعهم كتبهم المقدسة ويحملون كتبهم المقدسة ويبتهلون إلى الله تعالى بأن تجري مياه النيل، ففي سنة(٧٧٥هـ/١٣٧٣م) حين توقف النيل وعمت البلوى واختفت السلع من الأسواق وشح الخبز ولاحت المجاعة في الأفق خرج جميع المصريين ومعهم أهل الذمة من اليهود والنصارى إلى الصحراء لصلاة الاستسقاء[٣]، وفي سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) نقص النيل وانخفض منسوب المياه فأصاب الناس القلق وخرجوا إلى الشوارع، فخرج معهم أهل الذمة من اليهود والنصارى إلى الشوارع والطرقات والصحراء، ومكثوا خلال ساعات النهار يبكون ويضرعون إلى الله إن يزيل عنهم هذه الشدة[٤].

وأثر اليهود والنصارى من أهل الذمة في عادات وتقاليد المجتمع ولوحظ إن بعض نساء المسلمين المجاورات لليهود والمسيحيين تأثروا ببعض عادات اليهود والنصارى من أهل الذمة، على سبيل المثال كانت بعض النساء المسلمات لا يشترين السمك ولا يدخل بيوتهن يوم السبت، والمعروف إن أهل الذمة من اليهود قد حرموا على أنفسهم صيد السمك أو أكله يوم السبت وكان بعض النسوة لا يدخلن الحمام ولا يستخدمن الصابون ولا تغسل الثياب في يوم السبت متأثرين ببعض العادات اليهودية، وظهر تأثير العادات المسيحية على المسلمين فكان بعض المسلمين لا

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٠٩.
(٢) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص١٩٩.
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٢٢٩.
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٠٦،٧٠٧.

يعملون ليلة الأحد[١]، وساد نوع من الوئام الاجتماعي في كثير من الأحيان بين الأقليات الدينية في الدولة، ففي سنة (٧١٤هـ/١٣١٤م) استعار الأقباط بعض قناديل وأثاث جامع عمرو بن العاص لكي يستخدموها في أحد اجتماعاتهم الدينية في الكنيسة المعلقة في مصر القديمة[٢]، مما يبعث إشارات تدل على الحقوق الاجتماعية الممنوحة لأهل الذمة على روح الوئام الاجتماعي السائدة في ذلك الوقت وكان ينال أهل الذمة ما ينال المسلمين من الأمراض الاجتماعية المتفشية، فهم جزء لا يتجزأ من المجتمع فطبقت عليهم العقوبات كما طبقت على غيرهم من المسلمين مع اختلاف عقوبة المسلم وعقوبة غير المسلم بما يتوافق والشرع الحنيف، فطبق حد الزنا على نصراني زنى بإحدى المسلمات فرجم الأثنان حتى الموت وحرقت جثة النصراني ودفنت المرأة[٣]، ويحاسب الذمي إذا شرب الخمر علنا[٤]، وعاش أهل الذمة في بلاد الشام كطبقة من طبقات المجتمع وعاشوا جنباً إلى جنب وعاصروا كل الأحداث المهمة التي مرت بها بلاد الشام وساروا مع الأيام جزءاً من نسيج هذا المجتمع، تجمعهم المصالح المشتركة فيه فعمت روح التسامح مع أهل الذمة فمارسوا نشاطاتهم وحياتهم كما يشاءون[٥]، وشاركت الدولة أهل الذمة في احتفالاتهم وإحيائها مشاركة رسمية[٦]، ومارس أهل الذمة شعائرهم بكل أريحية وسمح لهم بزيارة الأماكن المقدسة وإقامة الشعائر الدينية في كنائسهم وأديرتهم وتوفير الأمن والحماية لهم[٧] ومارس اليهود والنصارى هذه الشعائر بحرية تامة داخل كنائسهم ومعابدهم في كافة أرجاء الدولة المملوكية وكثرت كنائسهم وسمح لهم ببناء المزيد من الكنائس للمسيحيين، ومعابد لليهود في القاهرة وغيرها من المدن الأخرى[٨].

وجاهد المماليك لتوفير الحقوق الاجتماعية لأهل الذمة وسددوا وقاربوا في هذا المضمار، ولكن في بعض الأمور كان يضطر سلاطين المماليك للتضييق على أهل الذمة وإلغاء بعض ممارساتهم لما يشوبها من اعتداءات وتجاوزات تمس سياسة الدولة العليا وتمس مشاعر المسلمين بعتبارهم أغلبية في الدولة وهم الفئة الحاكمة، فعلى سبيل المثال قام المماليك بإلغاء احتفالات خاصة بالذميين، ففي سنة(٧٠٢هـ/ ١٣٣٠م) أبطل السلطان بيبرس الجاشنكير الاحتفال بعيد

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص١١١.
(٢) النويري: نهاية الأرب، ج٣، ص٢٩٦.
(٣) ابن الأخوة: معالم القربة، ص٣٢.
(٤) القلقشندي: صبحي الأعشى، ج٤، ص١٩٤؛ العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤٣.
(٥) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٨٥،٨٤.
(٦) القلقشندي: صبحي الأعشى، ج١٣، ص٣٢٧.
(٧) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٤٦٣.
(٨) ابن الحاج: المدخل، ج١، ص٢٧٨.

الشهيد لما يصاحب هذا العيد من فساد وانحلال وإيذاء لمشاعر المسلمين فيه، وحاولوا كل جهدهم للاحتفال بهذا العيد مجدداً ولكن لم يجبهم أحد حتى أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإعادة هذا الاحتفال في سنة(٧٣٨هـ/١٣٦٦م)، وكانت مدة إبطال هذا العيد ٣٦ سنة وتم إلغاء هذا الاحتفال نهائياً عام (٧٥٥هـ/١٣٨٣م) وذلك بعد هدم الكنيسة وإحراق التابوت الذي كان يوضع فيه الإصبع وذر رماده في النهر[١]، وأبطل عيد النيروز لما كان يحتويه من مظاهر الفساد والفجور والإخلال بالأمن في جميع مجالاتها التي كانت تصحب الاحتفال بالعيد، وكانت تحدث في هذا العيد العديد من حوادث القتل فقام السلطان الظاهر برقوق بإبطاله[٢]،ولكن أعيد العمل بهذا العيد بعد إن أقره السلطان فرج بن برقوق[٣] وفي بعض الأوقات قام سلاطين المماليك بمنع أهل الذمة من التنزه على ضفاف النيل في هذه الأعياد ومنعهم من ركوب النيل لما كان يسود من مظاهر الفساد والانحلال، ومنعت المراكب في سنة(٧٨١هـ/١٣٧٩م) في عهد الأمير برقوق من دخول الخليج الناصري بسبب ما ينتهك في هذه المراكب من الحرمات ويجاهر به من الفواحش والمنكرات[٤]، وحدثت الكثير من الخلافات في العلاقات بين أهل الذمة والمسلمين في عهد سلاطين المماليك ففي سنة(٧٥٤هـ/١٣٥٣م) حيث حدث خلاف بين المسلمين والمسيحيين من أهل الذمة بسبب ذمي كان أجداده مسلمين فقام القاضي باعتقاله واعتبار هذا الذمي مرتداً عن الإسلام فاعترض أهل الذمة من المسيحيين على قرار الحبس وشكوا القاضي إلى الوالي وقاموا بعمل احتجاجات داخلية، وأغلقت الحوانيت وعطلوا الأسواق وحدثت حوادث قتل لأفراد الحامية الموجودة في الإقليم فوصل الأمر إلى السلطان فقام بعزل القاضي والوالي ومحاسبة المتمردين[٥].

وفي حادثة أخرى في عام (٧٨٥هـ/١٣٨٣م) في إحدى القرى التابعة للدولة كان المسيحيون من أهل الذمة يحتفلون بزواج أحد تلك الطائفة، وكانت أفراح أهل الذمة أفراحٌ صاخبة مليئة بالمغاني والطبول والمزامير وكان الذميون من المسيحيين أغلبية في تلك القرية، فحان موعد الأذان لصلاة الفجر وفي وقت التسبيح قبل وقت الأذان قام أصحاب الفرح من الذميين بالاعتداء على المؤذن وضربه وقاموا بضرب إمام المسجد وخطيبه حتى كادوا إن يقتلوهما عندما دافعا عن مؤذن المسجد، وقاموا بتقديم شكوى إلى السلطان فقامت السلطات بالاقتصاص منهم بإعدام ستة

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٨.
(٢) السيوطي: كوكب الروضة، ص١٩٥.
(٣) عاشور، سعيد: المجتمع المصري، ص٢٠٣.
(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص١٤٢.
(٥) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٩٠٠.

من المعتدين على المؤذن والخطيب والإمام[١]، وكان أهل الذمة من المسيحيين في بعض الظروف لا يتورعون في إظهار العداء للمسلمين ففي سنة(٨٤٣هـ/١٤٣٩) عندما غزا الصليبيون الفرنجة دمياط في البحر المتوسط فاستشهد مجموعة من المتطوعين التي خرجت لقتال الغزاة، وقام أهل دمياط بعمل جنازة لهم وقام نصراني بالتشمت والمسرة بما حل بالمسلمين، فرفع أهل دمياط شكوى لدى القاضي فحكم عليه بالقتل فقام الذمي بإعلان إسلامه فقتله المسلمون، وقاموا بالهجوم على كنائس نصارى دمياط فأحرقوها ودمروها[٢]، وفي سنة(٧٠٢هـ/١٣٣٠م) فرضت القيود على أهل الذمة بسبب ما قام به بعض الرهبان بتدبير حريق كبير التهم أجزاءً كبيرة من أحياء مدينة القاهرة ما أدى إلى وجود حالة من السخط في نفوس المسلمين، فمارس الناس ضغوطاً على حكومة بإصدار أحكام صارمة على من أحدثوا تلك الأفعال فحدثت مصادمات في الشوارع بين المواطن والحكومة ما أضطر الحكومة إلى الموافقة على مطالب العامة[٣]، وكان المسلمون يردون على أهل الذمة بمثل ما يلقاه المسلمون من اضطهاد منهم في البلدان الأخرى، ففي سنة(٨٢٢هـ/١٤١٨م) قام الإمبراطور الحبشي بإيذاء المسلمين في الحبشة والتنكيل بهم فكان رد سلاطين المماليك بتشديد القيود على أهل الذمة من النصارى في حدود دولتهم[٤]، وكان لمدينة الإسكندرية وضع خاص لوجود عدد لا بأس به من أهل الذمة المسيحيين، فكانت تكثر حالة الاشتباك بين المسلمين والمسيحيين في هذه المدينة، ففي عام(٧٢١هـ/١٣٢١م) قام أهل الذمة من النصارى بإشعال الحريق في بعض المساجد وبيوت المسلمين في القاهرة وما أعقبها من ثورة عامة ضدهم امتدت هذه الثورة إلى الإسكندرية فهاجم الناس كنائس النصارى بالمدينة وهدموها[٥].

والكثير من الضحايا، وفي سنة(٧٢٧هـ/١٣٢٦م) حدثت اضطرابات كثيرة بين المسلمين وأهل الذمة من المسيحيين، فتعدى ذمي على مسلم، فهاجت الجموع وتدخلت الدولة لفض النزاع فراح ضحيتها قتلى من المسلمين ومنهم من هم من العلماء والفقهاء، فخرج الناس يستنكرون ذلك في الشوارع، وهاجمت جموع الناس كنائس وبيوت المسيحيين[٦].

وكانت تحدث مشاكل واضطرابات بين المسيحيين أنفسهم، ففي عام(٨١٤هـ/١٤١١م) وفي عام(٨٢٢م/١٤١٩م) حدث قتال بين طائفتي الكتلان والجنونيين وكان سببها سرقة الفرنج

(١) ابن حجر: انباء الغمر، ص٢٧٣، ٢٧٤.
(٢) المقريزي: السلوك، ج٤، ص١١٧.
(٣) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٢٢٢-٢٢٨.
(٤) ابن حجر: انباء الغمر، ج٣، ص٣٨٢؛ أبو المحاسن: النجوم، ج١٥، ص٤٠٧.
(٥) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢٢٠.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ق١٤، ص١٣٣؛ السخاوى: الذيل على دول الإسلام، ج٢، ص١٨٣.

رأس مرقص[١] وذهب في هذين الشجارين قتلي بشكل كبير من أهالي الإسكندرية من أهل الذمة، واهتم سلاطين المماليك بالتوفيق بين الطوائف المختلفة من أهل الذمة لاستتباب الأمن في أراضي السلطنة وقاموا بإرسال الأمراء والنظار لتسكين تلك الفتن[٢].

كما فعل السلطان الناصر محمد حين أرسل مبعوثين من قبل السلطان للنظر في الفتنة التي حدثت بين المسلمين وأهل الذمة سنة(٧٢١هـ/١٣٢١م)، وشملت هذه البعثة كافة النواحي السلوكية والاجتماعية لأهل الذمة والوقوف على أحوال المواطنين في تلك المنطقة[٣]، ولم يراعِ أهل الذمة حرمات المسلمين فشربوا الخمر في المتنزهات العامة، فتصدي العلماء وفقهاء لهذه الظاهرة، ففي عام(٨٣١هـ/١٤٢٧م) كتب السلطان الاشرف بربساي إلى والى الإسكندرية بإعادة ما جلبه التجار من الخمر إلى بلادهم[٤]، وشارك أهل الإسكندرية في محاربة هذه المنكرات وكل ما يؤدي إلى إخلال السلم الاجتماعي العام، فقام أهل الإسكندرية بمهاجمة تواجد الصليبيين وكسروا لهم ما يوجد من بنية[٥] الخمر فقاموا بإحراقها وتدميرها وإراقة الخمور الموجودة فيها[٦].

وعلى الرغم من هذه الظروف إلا إن أهل الذمة في الدولة مارسوا حياتهم الاجتماعية جنباً إلى جنب مع بقية الطوائف الأخرى، وسادت العلاقات الحسنة بين أفراد وطوائف المجتمع وشجعت الدولة الجوانب الحسنة في التعامل مع أهل الذمة واعتبر أبناء الأقليات الدينة في مصر زمن المماليك رعايا في الدولة مثل المسلمين تماماً ،ولهم نفس الحقوق التي يأخذها المسلمون، واتسمت العلاقة بين أهل الذمة والحكومة في ذلك الوقت بعلاقة أخذت طابع العقلانية وسارت العلاقة وفق الشرع الحنيف والتزم بها الجميع وسادت فكرة الوطن الواحد وعاش أهل الذمة في كنف دولة الإسلام بحرية وأمن وأمان[٧].

---

(١) مرقص: هو واحد من كتب الأناجيل ويعتبر إنجيله الذي قام بكتابته من أقدم الأناجيل الذي يتعمده النصارى وهو لم يكن من تلاميذ المسيح ولكن كان يصحب بطرس كبير من الحواريين وقد قتلهم قيصر روماني سنة(٦٧م)، وكان يسكن الإسكندرية وبنى فيها أول كنيسة أرثوذكسية ودفع في البندقية بكددرائية سان ماركو؛ عطار، أحمد عبد الغفور: الديإنات، ص٣٤٠.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٧٢.

(٣) بيبرس الدواداري: زبدة الفكرة، ص٢٨٧.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٤٠٦.

(٥) بنية: البنية هي مصطلح يطلق على البناء مأخوذة من ابتنى وهو بناء الحائط وهو بناء مخصص لتخزين الخمر وتوضع فيه الخمور بشكل كبير؛ الرازي: مختار الصحاح، ص٥٦.

(٦) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٥٣.

(٧) قاسم، قاسم عبده: أهل الذمة، ص١١٥.

وعاش أهل الذمة داخل المجتمع المسلم حياتهم بشكلها الاعتيادي داخل إطار الدولة، وكان لهم نشاطات في الحياة العلمية والثقافية في عهد المماليك، فعلى سبيل المثال قام اليهود بترجمة الكتاب المقدس وتفسيره ،وتمثل هذا النشاط في تلك الأعمال الأدبية التي كُتبت كتب غالبيتها باللغة العربية، واشتهر من اليهود من هو معروف بالطب مثل إبراهيم بن فرج بن عبد الله الكافي اليهودي العناني توفى سنة(٨٤٤هـ/١٤٤١م) وهو من اليهود القرائين، كان عارفاً بالطب وملماً بالديانة اليهودية[١]، وبرع في النشاط الثقافي من اليهود موسى (بن كجك) الذي توفى سنة(٧٦١هـ/١٣٥٩م) وبرع في الطب وغيره من العلوم وله الكثير من المؤلفات وأسلم في نهاية حياته[٢]، وأيضاً صدر الدين بن النفيس الذي كان مستلماً لرئاسة الأطباء بعد إن أسلم، وبرع أحمد بن المغربي الأشبيلي في أواخر القرن السابع الهجري واعتنق الإسلام زمن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وولاه رئاسة الأطباء وكان عارفاً بالتنجيم والفلسفة[٣]، وتميز من أهل الذمة من المسيحيين في الساحة الثقافية، أسرة أبناء العسال واشتهر من هذه الأسرة أبو اسحاق ابن فخر الدولة أبو الفضل بن أبي البشر العسال وله عدة مؤلفات دينية وألف قواعد في اللغة القبطية كما ألف أخواهُ الأسعد أبو الفرج هيبة الله والصفي أبو الفضاء الماجد كتاباً في الرد على تقي الدين ابن تيمية[٤]، وعاش في تلك الفترة المؤرخ النصراني المعروف ابن العميد توفى سنة(١٣٣٧م) وألف العديد من الكتب في التاريخ أشهرها كتاب مختصر لتاريخ الطب، وقامت العلاقات الطيبة في بعض الأوقات بين المفكرين المسلمين ونظرائهم من أهل الذمة، حيث ألف الشيخ تقي الدين بن تيمية كتاباً رد فيه على كتاب يدعو الاحتجاج لدين النصارى ما يوحي بالإشارة إلى وجود حالة من حوار الثقافة والأديان في تلك الفترة في الدولة [٥].

وساد التقارب في بعض الأحيان والتنافر في أحيان أخرى[٦]، ومن باب الإنصاف لا بد من ذكر إن الدولة رعت أهل الذمة وعاشوا في كنفها مؤمنين ولهم حقوقهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فأمنت كافة الحقوق لأهل الذمة في أغلب الظروف، حيث إن أهل الذمة أنصفوا في دولة المماليك في بعض الفترات أكثر مما أنصفهم أبناء جلدتهم ودينهم من الدول الغربية في ذلك الوقت فعندما غزا الصليبيون الإسكندرية دخلوها كقراصنة فلم يراعوا فيها لا مسلم ولا مسيحي ولا

(١) السخاوى: الضوء اللامع في أهل القرن التاسع، ج١، ص١١٦.
(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٥٦.
(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٢١٦.
(٤) المقريزي: السلوك، ج٢، ص١٨٧، ١٨٨.
(٥) السخاوى: التبر المسبوك، ص٢٣.
(٦) ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج١، ص١٩.

يهودي ،وأخذوهم أسرى ونهبوا الكنائس قبل إن ينهبوا المساجد وأخذوا المسيحي أسير قبل إن يأخذوا المسلم، بل إن عجوزة مسيحية دفعت كل ما تملك للصليبيين كي لا يهدموا الكنيسة(١)، ومن الجدير ذكره ومن باب إحقاق الحق فإن دولة المماليك أنصفت أهل الذمة في حقوقهم الاجتماعية إلا في وقت الحروب وفي حال التعاونهم مع العدو.

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٥٦.

# الفصل السادس
# حقوق السجناء في دولة المماليك.

**ويشتمل على أربعة مباحث:**

**المبحث الأول: حقوق السجناء الجنائيين.**

**المبحث الثاني: حقوق السجناء السياسيين.**

**المبحث الثالث: حقوق أسري العدو.**

**المبحث الرابع: حقوق أسري المسلمين عند العدو.**

# المبحث الأول
# حقوق السجناء الجنائيين

اتسعت رقعة الدولة فشملت بلاد الشام ومصر والحجاز والعراق وبلاد النوبة وأصبحت امبراطورية في الشرق قرابة ثلاثة قرون وحالها كحال الأمم والإمبراطوريات الأخرى، فيها المؤيد وفيها المعارض، وفيها السوي وفيها المخالف، وفيها صاحب اليد النظيفة وفيها من يستخدم الطرق غير الشرعية للوصول إلى مبتغاه فلابد من ضبط سلوك المنحرفين من الرعية وإيجاد مكان لهم ألا وهو السجن، [١] ويصنف المساجين في الدولة حسب جرائمهم ومنهم المساجين الجنائيين، وينقسموا إلى عدة أقسام منها جرائم القتل وهي التي يتم فيها قتل شخص بغير وجه حق وحدث في الدولة العديد من جرائم القتل فنذكر منها في سنة(٧٥٥هـ/١٣٥٤م) قام اللصوص بالسطو على منزل قاضي الحنفية بطرابلس شمس الدين بن نمر[٢] فقتلوه وسرقوا أمواله[٣]، وفي سنة (٨٠٤هـ/١٤٠١م) قامت الدولة بإلقاء القبض على مجموعة من المفسدين في بلاد الشام كانت تهمتهم النهب والقتل والسرقة فتم القصاص منهم وتوزيع ما وجد عندهم من مسروقات على أصحابها[٤]، ومن أمثلة الجرائم الجنائية السرقة وقطع الطريق فسمي اللصوص في الدولة بالحرامية، ولم تتهاون الدولة معهم فتنفذ فيهم أقسى العقوبات وشكل قطاع الطرق مشكلة كبيرة في تلك الحقبة فأدبتهم الدولة وقامت بحبسهم لاعتراضهم طرق الحجيج[٥].

ومن الجرائم الجنائية النصب والاحتيال والتزوير، حيث انتشر تزوير النقود وضرب السكة المزيفة فلاحقت الدولة المزورين وعاقبتهم [٦]، وحاسبت الدولة أيضاً على الجرائم الأخلاقية،

---

(١) والسجن سجنه يسجنه سجناً حبس والسجن بالكسر المحبس أو البيت الذي يحبسوا فيه، ويعرف السجن هو حجز الشخص في مكان من الأمكنة ومنعه من التصرف بنفسه حتى يتبين حاله ويقضي عقوبته، ويعرف أيضاً الحبس الشرعي هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف في نفسه سواء في بيته أو في مسجد أو كان بتوكيل نفس الخصم أو وكيله عليه وملازمته له؛ الزبيدي: تاج العروس، ج٣٥، ص٦٩؛ ابن منظور: لسان العرب،ج١٣، ص٢٠٣؛ الفراهيدي: العين، ج٦، ص٥٦؛ الطبراني: المعجم الكبير، ج٩، ص١٤٩؛ ابن القيم الجوزية: الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية، ص١٤٨.

(٢) شمس الدين بن نمر: هو الفقيه العادل قاضي الحنفية بطرابلس قتل على أيدي اللصوص؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥٢، ص٤٨٩.

(٣) شهبة، بن قاضي: تاريخ، ج٣، ص٦٠.

(٤) ابن حجر: أبناء القمر، ج٢، ص٢٠٤.

(٥) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص١١٢.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ص٥٢٢.

ولاحقت أهل الفساد والمجون والدعارة وقامت بحبسهم سواء كانوا نساء أم رجال [١]، وصنف التجسس من الجرائم الجنائية فيحاسب كل من يقع في هذا الجرم ويقبض عليه ويودع السجن[٢]، ويعاقب أرباب الديون بالحبس حتي يردوا الحقوق الى أهلها، فعاقبت الدولة هؤلاء المجرمين بالحبس، وحافظت الدولة على حقوقهم في أغلب الأوقات، فنظمت لهم الدولة أمورهم المعيشية والحياتية داخل السجن فكانت أحوال السجون تتبع الحالة التي تعيشها الدولة فكانت السجون مظلمة تقع تحت الأرض لا تصلها أشعة الشمس ولا الهواء وفي غالب الأحيان تكون بعض السجون ذات نوافذ صغير ضيقة لا تكاد تدخل لها أشعة الشمس وكان ازدحام السجون بعدد كبير من المساجين يؤدي إلى انتشار الأمراض وقلة العناية بالمساجين، ما يؤدي إلى حدوث بعض حالات الوفاة داخل السجن[٣]، وسمحت الدولة لأهل السجناء الجنائيين بتوفير الطعام لهم، وانفقت عليهم من صدقات أهل الخير[٤]، وتنعم الدولة على المساجين في الأعياد والمناسبات وتوفر لهم أطعمة فاخرة وتوزع عليهم الصدقات في شهر رمضان، وتوزع عليهم الأطعمة المصادرة من أرباب الديون، وفي بعض الأحيان لا يجد المساجين الجنائيون ما يقوتون به أنفسهم، فكانوا يمارسون مهنة التسول في الطرقات تحت رقابة الدولة من أجل توفير الطعام لهم وتوفير إيرادات للسجن وحرص السلطان الظاهر برقوق على تقديم الطعام الجيد للمساجين في شهر رمضان[٥]، وفي سنة(٨٩٨هـ/١٣٩٥م) أمر السلطان الظاهر برقوق بتوزيع الخبز على المساجين في أوقات الغلاء داخل السجون[٦]، وفي سنة (٨٢٢هـ/١٤١٩م) قام السلطان المؤيد الشيخ بتوزيع اللحم والخبز على المساجين[٧].

ومن مصادر دخل السجون في الدولة ما يصادر من التجار الذين يقومون بغش الناس ومثال ذلك ما قام به المحتسب بدر الدين العيني بأخذ بضاعة من الغشاشين والمدلسين وأرسل بها إلى السجون للمحابيس[٨]، وأوقف أهل الخير أوقاف لصالح السجناء فأوقف خطيب قرية جيرود وهي من قري دمشق في الشام مئة قطعة فضية لصالح سجناء في دمشق[٩]، وفي المقابل كانت

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٣١٦.
(٢) ابن حجر: أبناء القمر، ج١، ص٤٧٤.
(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٧١.
(٤) الحنبلي: شذرات الذب، ج٧، ص٤٠٠.
(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٣١.
(٦) شبهه، ابن قاضي: تاريخ، ج٣، ص٥٧٦؛ ابن حجر: أبناء القمر، ج٣، ص٢٨٢؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٤٢٥.
(٧) الصيرفي: نزهة النفوس، ح٢، ص٤٥٥.
(٨) ابن الأخوة: معالم القربة، ص٤٠.
(٩) أبو الشعر: واقع الأوقاف في نيابة دمشق، ص٤.

الدولة تخرج المساجين إلى الطرقات ليتسولوا وتأخذ هذه الأموال لرعاية السجن وإطعام المساجين قليلاً منها[١]، وكان السجناء أحيانا يعانون من شدة الجوع مثلما حدث عندما قامت الدولة بسجن عربان الصعيد فكانوا يصرخون من شدة الجوع فقام المواطنون بإطعامهم من أموالهم الخاصة[٢]، وفي بعض الأوقات كان المساجين يهربون من شدة الجوع[٣]، ويأكلوا مواد فاسدة لسد رمقهم وجوعهم، وفي بعض الأوقات الدولة تقوم بالإفراج عن المساجين بسبب الظروف الاقتصادية[٤]، وسمحت الدولة لذوي المساجين الجنائيين بإحضار الملابس لهم داخل السجن [٥]، وحرمت الدولة المساجين الجنائيين من المعاشرة الجنسية وشكى المساجين من هذه الأمور[٦]، ووفرت الدولة الرعاية الصحية للمساجين في الغالب وصرفت للمساجين الأدوية وسمح لهم بشم الرياحين في حال المرض[٧]، واشتكى المساجين من الإهمال الطبي من حين لأخر، ووصل الأمر لوفاة بعض المساجين من شدة المرض دون أن يجدوا من يعالجهم[٨]، واعتنى بعض السلاطين بالسجناء الجنائيين وقدموا لهم العناية الصحية فقام السلطان قلاوون بحث متعهدي السجون على توفير الطعام والشراب وتفقد المرضى وتوفير كسوةٍ للمساجين وصرف راتباً للأطباء في السجون[٩]

وجهزت السجون في القلاع بدورات مياه ومخصصة لقضاء حاجة المساجين[١٠]، وفي السجون التي لا يوجد بها حمامات كان يوجد (مرتفق) وهي حمامات خارج المعتقل[١١]، وسمحت الدولة للمساجين في بعض الأوقات بالتواصل مع المجتمع الخارجي وسمحت بزيارة السجناء ولكن في بعض الظروف كان بعض المساجين يعزل عن المجتمع ولا تصله الأخبار عن محيطه الخارجي[١٢]، والزيارات للسجين تتسع وتضيق حسب الصفة الاعتبارية للسجين[١٣]، وسمحت الدولة

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٣٢٨.
(٢) الصيرفي: ابناء العصر، ص٤٥.
(٣) السخاوى: وجيز الكلام، ج٢، ص٦٠٧.
(٤) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٤٥٣؛ علاء: السجون والعقوبات، ص٨٣.
(٥) الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٦٦.
(٦) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٤٦٥.
(٧) السبكي: معيد النعم، ص١٤٢.
(٨) العجمي: كنوز الذهب، ج٢، ص٢١٥.
(٩) السبكي: معيد النعم، ص٢٢.
(١٠) عزب: سور وقلعة صلاح الدين، ص٨٢.
(١١) العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص٣١٨.
(١٢) الألوسي: غاية الأماني، ج٢، ص٢٣٨.
(١٣) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٣، ص١١٥٩.

للمساجين برفع تظلمات عن حياتهم المعيشية داخل السجن وطلب العفو أحياناً من السلطان[١]، وسُمح للمساجين بقضاء أوقاتهم في السجن بأعمال مختلفة منها العبادة والصلاة وقراءة القرآن والذكر والتسلية بالألعاب كالشطرنج والنرد[٢]، واستنكر ابن تيمية على المساجين اللهو بالألعاب وترك العبادات فحثهم على الصلاة والأعمال الصالحة حتى أصبح سجنهم مدرسة، وفي سجن باب البريد في دمشق سمح للمساجين بممارسة الألعاب[٣]، واعتنى سلاطين المماليك في الحياة العلمية والثقافية داخل السجون حيث نوقشت داخل السجون قضايا فقهية فألف الشيخ ابن تيمية في قضايا تهم الناس من داخل السجن وكتب في المسائل الفقهية وهو مسجون في قلعة دمشق، وصنف في السجن كتاباً في تفسير القرآن سماه البحر المحيط في أربعين مجلداً[٤]، واستخدمت الدولة المساجين في الأعمال الشاقة كالحفر وتشييد العمائر تحت إشراف الأعوان والسجانين المشرفين على العمل[٥]، واستخدم السلطان الناصر محمد المساجين في تشييد العمائر وبناء الإسطبلات[٦]، في بركة الفيل واستمر العمل بها عشرة أشهر[٧].

وفي سنة(٧١٣هـ/١٣١٣م) قام السلطان الناصر محمد باعتقال عدد كبير من عربان الصعيد فسجنهم وشغلهم بالسخرة في حفر الجسور وتشييد المباني[٨]، وفي سنة(٧٣٠هـ/١٣٢٩م) قام الأمير قوصون ببناء جامع(قوصون) بالقاهرة باستخدام المساجين[٩]، واهتمت الدولة بتدريب المساجين على الأعمال الحرفية والتصنيع وسمحت لهم بتعلم المهارات الصناعية[١٠]، وكان السلاطين يخرجون المساجين مقيدين للعمل بالسخرة في المنشآت السلطانية وعمائر الأمراء وحفر الخنادق وتنظيف الطرقات[١١]، ويتم اختيار أصحاب الحرف من المساجين للقيام بالأعمال الحرفية[١٢]، واستخدم السلطان الظاهر برقوق المساجين في بناء مدرسته وعمل المساجين وهم

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٥١٢.
(٢) الألوسي: غاية الأماني، ج٢، ص٢٣٨.
(٣) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص٣٩٥.
(٤) ابن طولون: تحفة النظار، ج١، ص٩٠.
(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣، ص٣٢٨.
(٦) عاشور: العصر المماليكي، ص٤١٣.
(٧) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢١٧.
(٨) سليم: عصر سلاطين، ج١، ص٣٠٦.
(٩) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص١٠٨.
(١٠) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢٩٨.
(١١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص١٨٧؛ البغدادي: السجون في مصر، ص١١٥.
(١٢) لابدوس: مدن إسلامية، ص١١٤.

مقيدون ويطلق السلطان سراحهم بعد القيام بتلك الأعمال شفقةً عليهم[١]، وعاقبت الدولة السجناء المشاكسين بالسخرة والأعمال الشاقة[٢]، وأعطي بعض السلاطين المساجين أجوراً ثمن أعمالهم مثلما حدث سنة(٧٥٦هـ/١٣٥٥م) حين بني الأمير شيخو قصره باستخدام المساجين[٣]، وينقل المساجين من سجن لآخر إما راكبين على الدواب أو في أقفاص أو مشياً على الأقدام، وفي بعض الأحيان كان يؤخذ السجناء ويمر بهم من بين الناس فينالهم الأذى والسب والضرب من الناس، ففي سنة(٨٥٤هـ/١٤٥٠م) حين تم اعتقال أبي الخير النحاس وأخذه إلى القاضي أخذ من بيته مشياً إلى بيت القاضي وكاد الناس إن يفتكوا به وتعرَّض لشتى أنواع الشتم والسب والضرب ولولا حماية الحراس له لمات في تلك الحادثة[٤]، وكانت تتم هذه الأمور لإهانة السجين والتشهير به وفضحه عند الرعية والعامة وإضحاك الناس عليه وإذلاله وتقييده بالجنازير أمام العامة[٥].

وينقل المساجين من مدينة إلى أخرى على ظهور الحيوانات وفي السفن المعدة لنقلهم من مدينة إلى أخرى وهم مكبلون حتى يصلوا الى السجن الآخر[٦]، وحاول المساجين الهرب من السجون بأشكال مختلفة منها نقب السجون وذلك من خلال نقب جدران السجن والهروب منه[٧]، مثلما حدث في سجن المقشرة وهروب جماعة كبيرة من المساجين وأمسك منهم من أمسك وهرب من هرب[٨]، واستخدم المساجين الحبال في عمليات الهروب من السجون والقلاع[٩]، أو يتم هروبهم أيضاً من خلال الاتفاق مع السجان وتعتمد نجاح هذه العملية على قدرة السجين على استمالة السجان ودفع المال له مقابل تمكينه من الهرب[١٠]، وفي بعض الأحيان يقوم المساجين بالهروب الجماعي من السجون بعد قتل السجانين مثلما حدث في سجن المقشرة قتل المساجين سجانيهم وهربوا جميعاً من السجن[١١]، وتعددت أشكال التعذيب داخل السجون في العهد المملوكي ومنها ما يلي:-

(١) ا بن شهبة: تاريخ، ج٣، ص٧٠؛ ابن حجر: أنباء الغمر، ج٢، ص٦٦.
(٢) اليوسفي: نزهة الناظر: ص٣٢٥.
(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص١٨.
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٤١٥.
(٥) المصدر نفسه، ج١٥، ص٤١٨.
(٦) المقريزي: السلوك، ج٧، ص٣٨٧.
(٧) أبو المحاسن: حوادث الدهور، ج١، ص٦٦؛ السخاوى: التبر المسبوك، ص٢٠١.
(٨) السخاوى: وجيز الكلام، ج٣، ١١٢٢.
(٩) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٩١؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٦٦.
(١٠) السخاوى: وجيز الكلام، ج٢، ص٤٧٥.
(١١) المصدر نفسه: ج٢، ص٦٠٧.

١- **التسمير:** وذلك من خلال وضع السجين المراد تعذيبه على لوح من الخشب على شكل صليب[١]، يطلق عليه عند المماليك اللعبة[٢]، ويتم طرق أطراف الشخص المراد تعذيبه بالصليب بالمسامير[٣]، والتسمير نوعان نوع للقتل ونوع للتعذيب فقط[٤] وتسمير آخر يعرف باسم التسمير بالقباقيب حيث يدك القبقاب بالمسامير ويجبر المساجين على لبسه والمشي به[٥]، وكان يطاف به بالطرقات للتشهير به[٦]

٢- **العصر:** وذلك من خلال وضع السجين المراد تعذيبه داخل آلة اسمها المعصرة، ومن ثم ربطه في خشبتين مربوطتين ببعضهما ويوضع فيه رأس ورجلي المراد تعذيبه وتشد الخشبتين ما يؤدي إلى كسر عظام المراد تعذيبه[٧].

٣- **التوسيط:** وهي طريقة إعدام ابتدعها المماليك وذلك من خلال ضرب المراد إعدامه من المساجين بالسيف من تحت السرة فيقسم إلى قسمين فتنهار أحشاؤه على الأرض[٨].

٤- **الإعدام بالخازوق:** وذلك من خلال دق عصا مدببة من الخلف مبسوطة من الأمام في مؤخرة المراد تعذيبه بطول ٧٠/سنتمر فتؤدي إلى تمزيق المؤخرة والأمعاء ليموت بعدها موتاً بطيئاً من شدة الألم[٩].

٥- **التكحيل:** وذلك من خلال إحماء قضيب معدني على النار ووضعه على عيون المراد تعذيبه فيؤدي إلى فقدان البصر تماماً[١٠].

٦- **التصعيط:** وذلك من خلال وضع الماء والخل والجير في إنف المراد تعذيبه حتى يؤدي به إلى الموت[١١].

---

(١) دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص٤٤.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٥٠.
(٣) دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص٤٤.
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٥٠.
(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٩، ص١٢٢-١٢٣.
(٦) ابن إياس: بدائع الزهو، ج١، ق٣، ص٢٠٨؛ موير: تاريخ المماليك، ص١١٩.
(٧) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٢٩.
(٨) المنجد: أماكن القصاص في دمشق، ج٤٨، ص٥٥٧.
(٩) دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص٦٦.
(١٠) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢٠٣.
(١١) الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٤٤٢.

٧- **التعليق:** وهي تعليق الشخص المراد تعذيبه من أصابع يديه أو رجيله في مكان عالٍ[١].

٨- **الضرب** بالمقارع: ويتم ضرب المراد تعذيبه على الرجلين أو الظهر حسب درجة التعذيب المراد منها[٢].

٩- **السلخ أو الحشو:** وذلك من خلال سلخ الجسد والرأس وحشوها بالتبن والقطن بعد السلخ[٣].

١٠- **الخوذة الحامية:** وهي عبارة عن تسخين الخوذة على النار حتى درجة الاحمرار ووضعها على رأس المراد تعذيبه [٤].

واجتهد سلاطين المماليك في تحسين أوضاع السجون، فمنهم من هدمها مثلما فعل السلطان المنصور قلاوون عند قيامه سنه(٦٨٠هـ/١٢٨١م) بهدم حبس المعونة وأقام مكانه قيسارية العنبر وكان ذلك السجن سيئ السيط فبنى مكانه منشأة طبية[٥]، وفي سنة (٨١٨هـ/١٤١٦م) قام السلطان المؤيد شيخ بهدم سجن خزانة شمائل وبنى بدلاً منه مسجد المؤيد[٦]، وهدم السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة(٧٢٩هـ/١٣٢٨م) جب قلعة الجبل وردم وعمر فوقه أطباق المماليك[٧]، واهتم المماليك بإصلاح السجون واستبدال الخرب منها بسجون جديدة كما فعل الأمير فخر الدين عبد الغني بن أبي الفرج الإستاذار سنة(٨٢٠هـ/١٤١٧م) باستئجار سجن جديد ليحل محل سجن المقشرة لما ورد عن هذا السجن من سوء المكان وشدة ضيقه ورائحته الكريهة فاستأجر قصر الحجازية بعشرة ألاف درهم أجرة سنتين[٨]، وتمتع بعض سلاطين المماليك بروح إنسانية عادلة فكانوا يتفقدون أحوال المساجين في المناسبات الدينية في رمضان والأعياد وفي ظل الأحوال الاقتصادية السيئة كانت تصدر أوامر من السلاطين بمنع حبس كل من عليه دين وذلك لسوء الأحوال الاقتصادية[٩]، وحرص المماليك على تحرير محاضر الوفاة للسجناء وفي حال وفاة أحد نزلاء السجن تقوم إدارة السجن في الدولة بعمل محضر وفاة أو في المنافي الخاصة ففي حالة وفاة شخصية كبيرة داخل السجن يحضر الأطباء لتعيين الحالة وتقرير

(١) الصيرفي: إنباء الغمر، ص٢٠.
(٢) ابن حجر: ابناء الغمر: ج٢، ص١٣٤.
(٣) الصيرفي: إنباء العصر، ص٤٠٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص٢٣.
(٤) السخاوى: وجيز الكلام، ج٣، ص١١٧٨.
(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٤، ص٢٠١.
(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٦.
(٧) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣، ص٣٣٠.
(٨) المصدر نفسه: ج٣، ص١٣٠.
(٩) العيني: عقد الجمان، ص٢٢٧.

سبب الوفاة، ولما توفى المنصور عبد العزيز وإبراهيم أبناء الظاهر برقوق المنفيين في الإسكندرية وأخذا ليواري التراب في القاهرة وجد معهم محضراً يثبت أنهم ماتا بقضاء الله وقدره[١]، وكثرت حوادث القتل داخل السجون بأوامر من السلاطين وأمرائهم فكانت إدارة السجون تقوم بتزوير محاضر الوفاة[٢]، ويتم إخراج جثة السجين مقابل دفع رسوم السماح بدفن الجثة[٣]، ويتم إخراج جثة السجين حسب أهمية ذلك السجين فأحيانا يسلم إلى ذويه بعد قتله بأيام فتكون اهترأت الجثة فيغسل ويدفن[٤].

وفي حالات أخرى كان يدفن السجين داخل السجن ولا يُصلى عليه ولا يغسل[٥]، ومنهم من كان يتم نعيه في المساجد وأماكن العبادة وفي الدولة ويتم تسليم جثته فور موته إلى ذويه وأهله[٦]، وذكرنا سالفاً أن دولة المماليك هي دولة كبيرة مترامية الأطراف وكانت تتنازعها الصراعات فكانت تارة مع الصليبيين وتارة مع المغول وتارة الخلافات الداخلة، فكانت السجون أمور حتمية لاستتباب الأمن وتنظيم شؤون الدولة فمن سلاطين المماليك من اهتم بالسجون وأصلحها وأعمرها وأجرى الأوقاف على المساجين وأمَّن لهم سبل الحياة الكريمة، ومنهم من لم يعطِ السجون اهتماماً لكثرة الإضطرابات في عصره والخلافات الداخلية وطمع البعض في المناصب السلطانية والمخاطر الخارجية فصانت الدولة حقوق السجناء وأمنتها، فكان الخليفة العباسي الظاهر بأمر الله[٧] يعطف على المساجين حيث إنه انفق عشرة آلاف دينار للمساجين الفقراء[٨]، وكان الأمير انص العثماني الجركسي[٩] عندما يرى أحد المساجين يعمل بالأعمال الشاقة يأخذه من حراسه ويفكه من قيده ويطلقه دون إن يقدر أحد إن يرفض قراره لأنه والد السلطان، ما دفع السلطان الظاهر برقوق إن يصدر مرسوماً بعدم خروج المساجين للأعمال الشاقة خوفاً من إن

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٦، ص٤.
(٢) شعبة، ابن قاضي: تاريخ، ج٣، ص٣٢٣.
(٣) البغدادي: السجون في مصر، ص١٢١؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٤٥٤.
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٢٣.
(٥) ابن حجر: إنباء الغمر: ج١، ص٢٣٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢١٥.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١٤٨؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٨٦.
(٧) الظاهر بأمر الله: هو أبو نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد الهاشمي العباسي البغدادي؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٦٥.
(٨) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢١٨.
(٩) انص العثماني الجركسي: وهو والد السلطان برقوق قدم إلى القاهرة، أسلم وحسن إسلامه، وعاش بعد إسلامه مدة قصيرة ما يقرب السنتين فكان شديد الحب لعمل الخير وكثير البر ومحباً للعلماء والعلم وأهله ومن أهل الصلاح، وكان ينفق أمواله على الفقراء والمساكين؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢١٨.

يراهم والده ويطلقهم[1]، والسجون في العهد المملوكي عبارة عن مدارس دينية فكثر فيها الأدب والشعر والمراسلات النثرية وشجع سلاطين المماليك هذه الأمور وأعطوا حرية للمساجين بالتأليف وحرية الفكر وإعطائهم كامل الحق في التعبير عن أفكارهم.

(١) العيني: عقد الجمان، ص٢٢٧.

## المبحث الثاني
## حقوق المعتقلين السياسيين

عج عصر سلاطين المماليك بكثرة الخلافات الداخلية وعدم الاستقرار، فكثرت فيه الفتن والمؤامرات وكان يسجن الرجل بضعة أيام فيعود حاكماً ويُسجن من سجنه، وأبرز الشخصيات التي سجنت على خلفية سياسية الخلفاء العباسيين وسلاطين المماليك والأمراء السياسيين وغيرهم من عناصر الحكم، فقد سجن الخليفة الحاكم لأمر الله أبي العباس أحمد(٦٦٠-٧٠١هـ/١٢٦١-١٣٠١م) وقد نصبه السلطان الظاهر بيبرس خليفة وضيق عليه ومنعه من الاجتماع بالناس وأصبح كالمسجون في القلعة حتى نهاية حكم السلطان المنصور قلاوون فأخرجه السلطان أشرف خليل بن قلاوون من سجنه مكرماً سنة(٦٩٠هـ/١٢٨٩م) [١]، وأيضاً سُجن العديد من الخلفاء لغضب السلاطين عليهم أمثال الخليفة المستكفي بالله وأبو الربيع سليمان بن الحاكم (٧٠١-٧٣٧هـ/١٣٠١-١٣٣٦م) فقام السلطان الناصر محمد بعزله وسجنه ببرج القلعة سنة(٧٣٦هـ/١٣٣٥م) ثم نفاه إلى قوس[٢] وتوفى هناك سنة(٧٤٠هـ-١٣٣٩م) [٣]، وفي سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) بويع الخليفة المعتصم بالله زكريا[٤] وتم سجنه سنة(٧٩١هـ/١٣٨٨م) في عهد السلطان الحاجي بن الأشرف شعبان[٥] [٦]، وأُفرِجَ عنه سنة(٧٩٢هـ/١٣٨٩م) زمن السلطان برقوق[٧].

---

(١) ابن الوردي: تاريخ ابن الدوردي، ج٢، ص٢٠٨؛ بيبرس الدوادار: مختار الأخبار، ص١١٨.

(٢) قوس: هي مدينة كبيرة تقع شرقي النيل في صعيد مصر، تمتاز بشدة الحرارة وأهلها أرباب ثروة واسعة؛ الحموي: معجم، ج٤، ص٤١٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٠٤؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص١٢٦؛ الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص١٩٥.

(٤) المعتصم بالله زكريا: ولي الخلافة في ٢٣ صفر من سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م، بعد خلع المتوكل على يد أنيبك أثناء سلطة المنصور علي، ثم خلع في نفس السنة وأعيد المتوكل للخلافة ثم أعيد للخلافة مرة ثانية على يد السلطان برقوق سنة(٧٨٨هـ/١٣٨٦م) أثناء سجن المتوكل، ثم خلع سنة(٧٩١هـ/١٣٨٨م) وأعيد المتوكل للخلافة توفي سنة(٨٠١هـ/١٣٩٨م)؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، ص٥٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٧٤٥؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٢٦٩.

(٥) السلطان الحاجي بن الأشرف شعبان: هو الملك الصالح أمير حاجي بن الأشرف شعبان تولى الحكم سنة(١٣٨١م-١٣٨٢) وهو آخر سلاطين المماليك الأتراك؛ بك، محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ج١، ص١٠٩.

(٦) الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٢٦٩.

(٧) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن شعبة، ج٣، ص٣٠١، ٣٢٠.

واستمر مسلسل سجن الخلفاء في الدولة، وذاق عدد من الخلفاء مرارة السجن أو النفي في فترة الحكم المملوكي، ومنهم من عانى من الإقامة الجبرية وهو في السلطة، وتعرض عدد من السلاطين في دولة المماليك إلى السجن والنفي بسبب الخلافات الداخلية والتنازع على السلطة، ومن أمثلة من سجن من سلاطين المماليك السلطانة شجرة الدر(٦٤٨هـ/١٢٥٠م) وسجنت في القلعة وذلك بعد مقتل زوجها السلطان المعز الدين أيبك[١]، وسجن السلطان قطز المنصور على بن أيبك(٦٥٥-٦٥٦هـ/١٢٥٧-١٢٥٧م) بعد عزله وسجنه في قلعة الجبل ثم نفاه إلى القسطنطينية[٢]، وتم حبس ونفي العديد من السلاطين على خلفيات عدة وتنازع الحكم بين الأمراء في دولة سلاطين المماليك، ومن السجناء السياسيين في دولة المماليك بعض الأمراء الأيوبيين الذين بقوا في الشام وكَّونوا جبهات معارضة للمماليك[٣]، حيث اسر المماليك العديد من أمراء البيت الأيوبي إضافة إلى عدد من الأعيان في بلاد الشام[٤]، وقام الظاهر بيبرس بسجن الأمير الأيوبي المغيث عمر والقضاء على المعارضة الأيوبية[٥]، ومن السجناء السياسيين أيضاً سجناء الثورات وحركات العصيان فعندما تولى الظاهر بيبرس الحكم (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) ثار عليه نائب دمشق الأمير سنجر الحلبي[٦]، وتم القضاء على ثورته وتم سجنه في قلعة الجبل[٧]، وتم أسر الأمير بيبغا روس[٨] نائب حلب وتم القضاء على ثورته وانتهى بسجنه في قلعة دمشق[٩]، وكانت نهاية العديد من الأمراء السجن والقتل بسبب ثوراتهم على سلاطينهم[١٠].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٢٦٩.

(٢) النويري: نهاية الأدب، ج٢٩، ص٤٦٨.

(٣) طقوش: تاريخ المماليك، ص٤٢.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٧٤.

(٥) العيني: عقد الجمان، ج١، ص٤٣.

(٦) سنجر الحلبي: الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي كان نائب قطز على دمشق فلما جاءته بيعة الظاهر دعا لنفسه فبويع وتسمى بالملك المجاهد ثم حوصر وهرب إلى بعلبك فحوصر فأجاب إلى خدمة الظاهر فسجنه مدة وأطلقه وسجنه المنصور مدة وأطلقه الأشرف واحترمه وأكرمه بلغ الثمانين سنة وتوفي في هذه السنة؛ ابن كتير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٣٤.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٤٥؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج١٤، ص١١٥.

(٨) هو الأمير بيبغا روس كان والي على حلب كان مقدام وشجاع توفي سنة (٧٥٣هـ /١٣٥٢م)؛ الدرر الكامنة، ج٢، ص٥٤.

(٩) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٤٣؛ السخاوى: وجيز الكلام، ج١، ص٦٢.

(١٠) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٣٣٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ٣٨٨.

ومن السجناء السياسيين حكام العشائر والبدو وأمراء الشام وحكام الحجاز وعربان مصر وأشراف اليمن، وشكل الأمراء والمماليك الغالبية العظمى من السجناء بشكل عام ومن سجناء القضايا السياسية بشكل خاص، ومن خلال تتبع تاريخ سلاطين المماليك نجد أن غالبية السلاطين قام بسجن أو قتل بعض من أمرائه وذلك خوفاً منهم قيامهم بالمؤامرات أو مخالفتهم أمر السلطان أو بسبب الحد من نفوذهم(١)، وكان يعتقل بعض الأمراء لمجرد الشك في ولاءهم فكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون كثير التغيير في وزرائه، وإذا أحس بريبة بأحد من أمرائه قام بأعتقاله ومصادرة أمواله وربما قتله كما فعل مع الأمير بكتمر الساقي(٢)، ومنح سلاطين المماليك أوضاعاً خاصة لمساجين القضايا السياسية واعتنوا بهم اعتناءً جيداً وكان هنالك خدمات شاملة قدمت للمساجين السياسيين كالخلفاء والسلاطين والأمراء والأعيان الذين كان أغلبيتهم في سجون قلعة الجبل وفي الإسكندرية(٣)، وتتمثل هذه الخدمات بالظروف المعيشية كالطعام والكسوة وحقوقاً اجتماعية كإقامة الزوجات والجواري والمجتمعية كالخدم والزوار والمرافقين والمراسلات ووسائل الترفيه، بالإضافة الى العناية الطبية والثقافية، وأشرف السلاطين بأنفسهم على تقديم هذه الخدمات أو من خلال قيام أقارب السجين أو أتباعه بتقديمها له دون مضايقة، فقدم لهم الطعام بإشراف مباشر من السلطان نفسه أو من ينوب عنه في حالة غيابه(٤)، وتنوعت الأطعمة وتشكلت فكانت تقدم لهم الأطعمة الفاخرة والأشربة والفاكهة(٥)، وأمر السلطان لاجين بتوصيل الأطعمة الفاخرة والحلاوة وكل ما يختاره نائب السلطنة قراسنقر وإرسال كل ما يحتاج من الأشياء(٦)، وكانت المراسلات بينهم لا تنقطع عن طريق السجانين الذين يحملون له الأطعمة(٧)، وعين السلاطين للمساجين السياسيين سماط(٨) في أول النهار وسماط في آخره يحمل إليه من المطبخ السلطاني مع الحلوى والفاكهة(٩).

(١) العيني: عقد الجمان، ج١، ص٢٥٢.
(٢) اليوسفي: نزهة الناظر، ١٢٤.
(٣) الكتبي: عيون التواريخ، ج٢١، ض١٤٨.
(٤) العسقلاني: الفضل المأثور، ص١٢٩.
(٥) الكتبي: عيون التواريخ، ج٢١، ص١٤٨.
(٦) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٤٣٥.
(٧) المصدر نفسه: ج٣، ص٣٦٣.
(٨) سماط: وهو عبارة عن مائدة يوضع عليها اللحوم والمشروبات والمأكولات؛ القلقشندي: صبحي الأعشى، ج٥، ص٤٥٤.
(٩) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٣، ص١١٥٩.

ويقدم للمساجين داخل السجون السياسية كسوة في غالب الأحيان وتقدم بإشراف السلطان[١]، أو كبار الأمراء[٢]، فعندما سجن ابن تيمية قدمت إليه الكسوة من السلطان ومن الأمراء[٣]، وبعض السجناء السياسيين يطلبون أقمشة لتفصيلها ومن ثم لبسها[٤]، وفي بعض الأحيان كانت تمنع الكسوة عن المساجين السياسيين حيث إن الأمير شيخون حين أفرج عنه من سجن الإسكندرية وكانت ثيابه في السجن ملوطه طرحٍ محرر[٥]، والملوطه رداء واسع الكمين طويلان يلبس فوق لباس يسمى الإفريجة وكانت تصنع من الحرير أو الكتان الرقيق وكان من لباس المماليك[٦]، وسمح السلاطين للمساجين السياسيين بحق الممارسة الجنسية والمعاشرة الزوجية وهم في السجن لبعض الأحيان، مثلما فعل السلطان الناصر محمد سنة(٧٣٦هـ/١٣٣٦م) مع الخليفة المستكفي بالله العباسي وحبسه مع عياله في برج القلعة وسمح له بالمعاشرة الزوجية[٧]، وفي قلعة الجبل يسمح للأسرى بإقامة الزوجات معهم فالأمير بدر الدين سجن في القاعة الصالحية من قلعة الجبل وحملت إليه زوجته[٨]، ووجود الزوجات مع المساجين قرار من السلطان نفسه، ويتم سحب هذا الامتياز أيضاً بقرار من السلطان نفسه فعندما قرر السلطان الناصر محمد قتل الأمير برلغي الأشرفي تم سحبُ زوجاته من عنده[٩]، ويسمح في بعض الحالات بإقامة الجواري مع المساجين السياسيين حيث سمح للسلطان برقوق عندما كان مسجوناً بقلعة الكرك بوجود الجواري في خدمته[١٠]، وسمح الملك العزيز يوسف بن بربساي باقتناء الجواري لخدمته في سجن الإسكندرية سنة(٨٤٨هـ/١٤٣٩م) [١١].

وسمح للأمير المحمودي باصطحاب زوجته في سجنه وأنجب منها ولداً سماه فرج سنة(٨٦٥هـ/١٤٦١م) [١٢]، ومن الناحية الصحية كان هنالك إهمالٌ في تطبيب المساجين

(١) العسقلاني: الفضل المأثور، ص١٢٩.
(٢) المقريزي: المقفي،ج١، ص٤٦٣.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية،ج١٤، ص٤٩.
(٤) المقريزي: السلوك،ج٣، ص٣، ص٤٩١.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٢٦٠.
(٦) عاشور: العصر المماليك، ص٤٧٦.
(٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص١١٥.
(٨) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٥.
(٩) المصدر نفسه: ج٢، ق١، ص٨٨.
(١٠) ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج٣، ص٢٧٨.
(١١) بردي، ابن تغري: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٣٣٣.
(١٢) السخاوى: الضوء اللامع، ج٦، ص١٦٨.

السياسيين المراد الخلاص منهم، ففي سنة (٨٥٣هـ/١٤٤٩م) أصيب ابن النويري بالإسهال الشديد أثناء مدة حبسه في سجن حلب ولم يجد من يطببه حتى توفي[١]، وكان الأمير جمال الدين الأشرفي خرج في رأسه دملاً يسمى سلعة[٢]، فطلب أن يصرف له العلاج وعمل عملية لإزالتها فمات بعد اجراء العملية(٧٣٦هـ/١٣٣٦م) [٣]. ومن ناحية أخرى أوصى السلاطين بالمساجين لأسباب سياسية وخاصة للمعتقلين في قلعة القاهرة بأطباء خاصين لهم، فأوصى السلطان قلاوون بتوفير الدواء للمرضى من المعتقلين وتوفير أطباء لهم[٤]، وعين أطباء بأجر لتطبيب الأمراء المسجونين في القلعة[٥]، وكانت السجون الخاصة بكبار المساجين السياسيين مثل الأبراج والقلاع مجهزة بدورات مياه خاصة بهم ليترضوا بها[٦]، ويتاح للسجناء بمراسلة ذويهم في الخارج ويحق لهم مقابلة أقاربهم ورؤية أهاليهم وخواصهم من خلال زيارتهم لهم[٧]، وفي بعض الأحيان كان يسجن المساجين بسجون معزولة عن المجتمع ومعتقلات انفرادية، ففي زمن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون كثرت السجون الأنفرادية وتم إقصاؤهم عن المجتمع وأخباره حتى إنهم كانوا لا يعرفون ما يدور حولهم في الخارج[٨]، وفي بعض الأحيان يسمح للمساجين السياسيين من كبار السلاطين وكبار الأمراء باصطحاب الخدم داخل السجن من مماليك وجواري[٩]، فكان في خدمة الظاهر برقوق في سجن الكرك جواري تقوم بفرش القاعة وأرسلت ما يحتاجه من أدوات وكانت تطبخ له الأطعمة اللائقة بمقامة[١٠].

ومنحت الدولة للمساجين السياسيين حق التظلم، وفي عهد السلطان الناصر محمد رفع كاتب السر تظلم إلى السلطان بين فيه أنه ظلم وأعلن توبته وطالبه أن يعفو عنه، ولما عرض التظلم عليه وتشاور مع الحاشية ومستشاريه أفرج عنه[١١]، وأعطت الدولة للمساجين السياسيين حق ممارسة الشعائر الدينية كالصلاة والعبادة فكان السجناء يشغلون أوقاتهم بالصلاة والذكر وقراءة

(١) سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ص٢١٥.
(٢) سلعة: هي عبارة عن زيادة تحت الجسد المعرفة بالدمل وتكون صغيرة وكبيرة؛ الثعالبي: فقه اللغة، ص١٠٢.
(٣) الصفدي: أعيان العصر، ص١٦٦.
(٤) حسين: التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، ص٢٥٦.
(٥) السبكي: معيد النعم، ص٢٢.
(٦) عزب: سور وقلعة صلاح الدين، ص٧٢.
(٧) المقريزي: البيان والإعراب، ص٢٤.
(٨) العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص٣١٨.
(٩) ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج٣، ص٢٧٨.
(١٠) الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٢٢٦.
(١١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٨٧.

القرآن، وفي سنة(٦٣٨هـ/١٢٤٠م) حين اعتقل السلطان الصالح إسماعيل[١] العز بن عبد السلام[٢] مارس كافة الشعائر الدينية في سجنه وشغل وقته بالذكر والقرآن[٣]، ومارس السجناء السياسيين أغلب أنواع الترفيه داخل السجن فكان السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجي[٤] [٥]، يسمح له بشرب الخمر ومجالسة الغواني وسماع الأغاني وعنده فرقة موسيقية تغني له من الجواري[٦]، وهذا لا يعني إنه سمح لكل المساجين بمثل هذه الامتيازات وكانت هذه الأمور تتم بعلم السلطان أو خلسة[٧]، وكانت حقوق التأليف والكتابة محفوظة للسجناء السياسيين كي يشغلوا أوقات فراغهم بها وخرجت الكثير من المؤلفات من داخل السجون حيث مثلت ثروة علميه وكانت بعض هذه الكتابات تناقش مسائل فقهية وأمور دينية[٨].

وكتب السجناء السياسيون الشعر داخل السجون، وقام جماز السحني أمير المدينة المنورة بكتابة القصائد الشعرية وهو في السجن في سنة(٧٢٩هـ/١٣٢٨م) كتب هذه الأبيات مفاخراً بنسبه

إنا ابن الكرام الطيبين بني عَمر النبي ومن بهم في الجدب يستنزل المطر

ومن لهم في فضلهم ولجدهم جليس المصطفى حسن السير[٩]

واتبعت الدولة سياسية خاصة مع المساجين السياسيين بحرمانهم من حق العودة للعمل السياسي، ونفيهم وأهم هذه المنافي في الدولة دمياط[١٠]، ونفي إليها أمراء الألوف بعد خلع السلطان

(١) هو العز بن عبد السلام الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء فقيه شافعي ٥٧٧هـ/١١٨١م، توفي في مصر زمن الظاهر بيبرس؛ شهبه: الطبقات، ج2 ، ص110 ؛ الصفدي: الوافي ج1، ص287 .

(٢) الصالح اسماعيل: هو الملك الصالح إسماعيل الأيوبي صاحب دمشق وكان على خلاف مع اخيه نجم الدين أيوب وتصادق مع الفرنجة؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص١٨٦.

(٣) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص٣٩٥.

(٤) المظفر حاجي بن الاشرف بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون بن عبد الله الصالحي وزوال دولة عمه الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون؛ ابن كتير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٧٨.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٣٢٣.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥١١.

(٧) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٢٣٥.

(٨) السخاوى: الضوء اللامع، ج٢، ص٤٧.

(٩) العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٦، ص١٤٧.

(١٠) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤٩١.

الظاهر برقوق[١]، ومدينة قوص كانت من أسوء المنافي داخل مصر[٢]، ونفي إليها الخلفاء المعزولون وأبناؤهم ومن الذين نفوا إليها الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع[٣][٤]، ونفي إلى قوص أيضاً أبناء الناصر محمد[٥]، ونفي السلطان الناصر بن برقوق أخواته المنصور، وعبد العزيز وسيدي ابراهيم إلى مدينة الإسكندرية[٦]، كما ونُفي عدد كبير من المماليك إلى أسوان في زمن الأشرف شعبان[٧] وعمل السلاطين المماليك على نفي السجناء السياسيين المخالفين إلى خارج مصر فكانت مدينة القدس أحد هذه المنافي[٨]

ومدينة دمشق إحدى هذه المنافي أيضاً[٩]، ومدينة الكرك نفي إليها العديد من السلاطين والأمراء[١٠]،و طرابلس أحد المنافي التي نفي إليها المخالف لأوامر السلطان في عهد السلطان الظاهر جقمق[١١]، ونفي إلى حلب العديد من الأمراء نذكر منهم شمس الدين الكاتب لتطاوله على الأمام الشافعي[١٢]، ونفي في عهد السلطان الناصر محمد سنة(٧٧٣هـ/١٣٣٢م) إلى صفد كاتب السر فضل الله [١٣]، واتخذت مدينة غزة منفى في عهد السلطان الناصر محمد[١٤]، وكان العديد من المدن في بلاد الشام عبارة عن منافي للسجناء السياسيين مثل صرخد[١٥]

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٤١٣.
(٢) ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج٣، ص٦٠٧.
(٣) المستكفي بالله: هو أبو الربيع سليمان المستكفي بالله هو الخليفة العباسي في عهد دولة المماليك نصب للخلافة سنة ١٣٠٢/ ١٣٣٧ م ٧٠١ / ٧٤٠ هـ؛ بك، محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمإنية،ج١، ص١٠٤.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٧٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص١٩٤.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٠٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٦٨.
(٦) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٣١.
(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٧١.
(٨) الإمام: مدينة القدس، ص١١٤.
(٩) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٨٨.
(١٠) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص٣٨.
(١١) السخاوى: التبر المسبوك، ص٢٥٧.
(١٢) أبو المحاسن: حوادث الدهور، ج١، ص١٦٦.
(١٣) المقريزي: السلوك، ج٢،ق٢، ص٣٦٢.
(١٤) المصدر نفسه، ج٢، ق٢، ص٣٨٦.
(١٥) صرخد: تقع شرق بصرى وجنوب السويداء بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة؛ الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج3 ، ص401 .

والصبيبة[١] والمرقب[٢] وحماه[٣]، وهناك منافٍ خارجية من أمثلتها القسطنطينية فنفي إليها أبناء السلطان الظاهر بيبرس في سنة(٦٩٠هـ/١٢٩١م) [٤].

ونفى بعض السجناء السياسيين إلى قبرص زمن السلطان الناصر فرج[٥]، وبعد تتبع سيرة السجناء السياسيين في دولة المماليك نجد إن سلاطين المماليك أعطوا المساجين السياسيين من كبار الخلفاء والسلاطين والأمراء ورجال الدين وأصحاب الآراء الفكرية حقوقاً كثيرة داخل السجون، وذلك لما يتمتع به أولئك السجناء من قوة داخل المجتمع ووجود أتباع لهم، ما جعل السلاطين يتساهلون معهم ويقدمون لهم كافة الحقوق في أغلب الأحيان، ولكن في المقابل كان بعض أولئك السياسيين يلاقي معاملة قاسية جداً. وذلك للحد من نفوذهم وإرهاب أتباعهم والسيطرة عليهم بشكل تام، فمن هؤلاء المساجين السياسيين من سجن بسجون أنفرادية لم يروا فيها شمساً ولا نوراً ومنهم من منع عنه الطعام حتى مات ومنهم من منع من مقابلة أو زيارة أي شخص، ومنهم من أشرف السلاطين أنفسهم على تعذيبهم، ومنهم من قام السلاطين بقتلهم وبذلك يرجع إعطاء الحق للسجين السياسي حسب علاقته بالسلطان[٦].

(١) الصبيبة: من أعمال دمشق وتسمى أيضاً قلعة النمرود وهي قائمة على ذروة جبل مشرف على قرية بانياس الجنوبية، وعلى جميع الوديان وبدء غور الأردن، وتعتبر الأجزاء السفلية من القلعة من عمل الصليبيين وأما أقسام القلعة وأبراجها فهي عربية صرفة، وكان في موضعها قلعة للإسماعيليين، استولى عليها الصليبيون سنة 525هـ/ 1130م، ثم استطاع الأتابك عماد الدين زنكي إن يستخلصها من أيديهم سنة 527 هـ /1132م، وأقام فيها نائباً عنه، ثم استعاد الصليبيون القلعة مرة أخرى وأقاموا فيها بعض المنشآت، وأخيراً استطاع نور الدين محمود بن زنكي إن يحرره سنة 559 هـ /1164م؛ المقريزي :السلوك، ج1، ص8؛ ابن شداد الأعلاق الخطيرة، ج1، ص86 .

(٢) المرقب: هي قلعة من قلاع الشام بالقرب من دمشق كانت تستخدم سجن في عهد دولة المماليك؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٢٩٨.

(٣) حماة: هي مدينة من مدن الشام بالقرب من دمشق كان يوجد فيها قلعة كان يعتقل فيها وتستخدم كسجن؛ الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج3 ، ص401 .

(٤) العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٣٥٠؛ بيبرس الدوادار، التحفة المملوكية، ص١١٦.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص٤٠٠.

(٦) ينظر : ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٢٠.

# المبحث الثالث
# حقوق أسرى العدو

ولدت دولة المماليك ووجدت الصليبيين يحتلون جزءاً من أراضي مصر والإمارات والمستعمرات القوية التي أسسوها في بلاد الشام ودولة مسيحية في أرمينيا وقبرص، وكانت الإمارات الصليبية في بلاد الشام تعبر عن الخطر الأوروبي الغربي، وتعتمد في تهديها الدائم لبلاد المسلمين في الشرق الأدنى على قواعد قوية ثابتة، وهناك خطر آخر لا يقل عن الخطر الصليبي وهو الخطر المغولي، ودارت معارك طاحنة بين المماليك والمغول من جهة ومن جهة أخري معارك مع الإمارات الصليبية ، فعجت بلاد المماليك بأسرى العدو وبما أن دولة المماليك دولة تتخذ من الشرع الحنيف منهجاً لها، وعمل الإسلام على إلغاء الرق وتحرير البشرية من استعباد الإنسان للإنسان ،ولكن المسلمون كانوا يضطرون لأخذ الأسرى لأن غير المسلمين كانوا يأخذون المسلمين أسرى، فترك الإسلام هذا الباب مفتوحاً ونظمه كي لا تكون الأمور مفتوحة[١]، وعامل المسلمون أسراهم بالرفق والرحمة والإحسان وقدموا لهم الحاجات الأساسية كالطعام والشراب والعلاج عملاً بوصية النبي ﷺ استوصوا بالأسرى خيراً وقوله تعالى ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** ﴾[٢]، وكان مصير الأسرى في غالب الأحيان يكون بإطلاق سراحهم مقابل فدائهم بأسرى المسلمين في الجهة المقابلة، وحرصت الدولة الإسلامية عبر التاريخ على الإحسان إلى الأسرى ومداواة الجريح منهم، وتمكن المماليك من أسر آلاف الجنود الصليبيين في معركة المنصورة وتم الإفراج عنهم وعن ملكهم لويس التاسع بعد إن افتدوا أنفسهم[٣]، ولكن في بعض الظروف كان يضطر المماليك إلى تغيير معاملاتهم مع الأسرى، ففي عهد السلطان قطز وعندما أرسل له المغول الرسل ليسلمهم أراضي دولته فاعتبر هؤلاء الرسل أسرى فقتلهم وعلق رؤوسهم على أبواب القاهرة[٤]، وفعل السلطان قطز هذا الأمر من أجل رفع المعنوية لدى جنوده، وإرسال إشارة إلى جنود المغول بأنه لا يخشاهم، ودب الرعب في قلوبهم وكان يتم الإفراج عن الأسرى الذين يعلنون إسلامهم، وبذلك يُعصم دمه ،وفي مذهب الإمام أحمد أن الأسير صار رقيقاً[٥]

وفي بعض الظروف كان هنالك أسرى لا بد من قتلهم فور الظفر بهم، مثلما حدث مع أسرى الداوية والاسبيتارية وهذه الأسماء لمجموعات صليبية كانت مهمتها ارتكاب المجازر بحق

---

(١) شلبي، أحمد: الجهاد والنظم العسكرية، ص١٢٤.

(٢) سورة محمد: أية(٤)

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٥٥.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٢٩.

(٥) ابن النحاس: مشارع الأشواق، ص١٠٤٦.

المسلمين فحرص المماليك على تقتيلهم شر قتله[١]، بما يحققه قتلهم من أخذ حق المسلمين منهم ورفعة للمسلمين وإشفاء صدورهم لما قتلوه منهم وإضعاف تلك المجموعات وإرباك صفها، ولمنع إلتحاق الصليبيين بهم فقد أمر السلطان الظاهر بيبرس بقتل خيالية الداوية والاسبيتارية بالقرب من صفد لما اقترفته أيديهم من جرائم بحق المسلمين ولم ينجوا منهم إلا إثنان[٢]، وكان لأخذ الأسرى جانب كبير للانتصار في المعركة وكسر شوكة الغزاة حيث كان المماليك يحملون أسراهم على الجمال والحمير ويطوفون بهم على مرأى من الصليبين لإرهابهم فيصيبهم الوهن والضعف، ما يجعلهم يفرون من مواجهة جنودهم[٣]، وتعامل المماليك مع الأسرى بكل قوة وحزم وتم الاستفادة منهم عندما تطول مدة إقامتهم داخل الدولة في تعمير المدن وهدم أسوار المدن التي حدثت فيها المعارك وتخريب مدنهم كي لا يستفيدوا منها مرة أخرى[٤]، واستفاد المماليك كل الاستفادة من الأسرى لتحرير أسراهم وكانوا مفاوضين على درجة عالية من المهارة، فعندما يكون الأسير صاحب رتبة عالية وسامية يتم مبادلته بأسرى كثر فقد استرد المماليك عدة قلاع مقابل إطلاق سراح أسير واحد وهو ملك سيس( ريتون بن هيتوم بن تكفور)، والإفراج عن سنقر الأشقر من كبار أمراء المماليك[٥]، وتعامل المماليك مع الأسرى الذين بحوزتهم على إنهم صيد ثمين فأمنوا لهم حراسة شديدة حتى لا يتم هروبهم فشددت الحراسة على السجون التي أسر فيها الصليبيين والمغول لتتمكن الدولة من تحرير أسراها عند تلك الدول مقابل فديتهم[٦]، ومن أشهر السجون الذي اعتقل فيها الأسرى الصليبيون سجن الكرك وكان سجناً حصيناً[٧]، وأمن المماليك للأسرى الأدوية وعينوا الأطباء لتطبيب السجناء وعلاجهم ومداواة جروحهم وحمايتهم من الأمراض[٨].

واعتاد سلاطين المماليك عندما ينتهون من فتح الحصن على سير الأسرى في مقدمة الركب لتأمين الحماية للموكب من أي هجماتٍ أثناء سيرهم وتنقلهم[٩]، وكانت هذه الطريقة من عادات سلاطين المماليك لحماية أنفسهم والاستفادة من خبرة الأسرى في معرفة الطريق، وتوجيه السلطان وجيشه على الطرق الآمنة ليسلكوها وتجنب الكمائن غير المتوقعة في الطريق، واستفاد

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٧٦؛ القلقشندي: مأثر الأناقة، ج٣، ص٣٠٦.
(٢) المنصوري: مختار الأخيار، ص٣٣.
(٣) العسقلاني، شافع: الفضل المأثور، ص١١٩.
(٤) المنصوري: التحفة المملوكية، ص٥٧.
(٥) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٢١.
(٦) العسقلاني، شافع: الفضل المأثور، ص١١٩.
(٧) المنصوري: التحفة المملوكية، ص٥٩.
(٨) العسقلاني، شافع: الفضل المأثور، ص١٢٩.
(٩) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص١٤.

المماليك من الأسرى بتشغيلهم في البناء وتعبيد الطرق[١]، وفي عهد الناصر محمد سنة(٧٠٢هـ/١٣٠٢م) وبعد معركة شقجب[٢] بين المماليك والمغول حيث أُسر في هذه المعركة أعداد كثيرة من الأرمن المتحالفين مع المغول ونقلوا من الشام إلى القاهرة وتم أسرهم في سجن خزانة البنود[٣]، واستبدل السلطان الناصر محمد سنة(٧٠٩هـ/١٣٠٩م) سجن خزانة البنود وحوله إلى منازل يقيم الأسرى فيها[٤]، وسكن لهم ولنسائهم ولأولادهم[٥]، ولكن أساء الأسرى استخدام هذه المنازل وجاهروا في إظهار المفاسد من خمر بيعاً وشرباً وحماية أهل الجرائم[٦]، وحماية الفسوق والانحلال[٧]، فتعرضت هذه المنازل وما بها من أسرى لهجوم العامة فنهبت وصدر مرسوم من السلطان بألا يتعرض أحدٌ لأي أسير من أسرى الفرنج ومن يتجاوز ذلك يعرض نفسه للمسؤولية[٨]، واستفاد المماليك من الأسرى استفادة كبيرة، واستطاعوا إجلاء القوات الصليبية عن دمياط والإسكندرية بعقد صفقة لإطلاق سراح لويس التاسع مقابل جلاء القوات الغازية وفداء نفسه، وقدم السلطان المعز أيبك بادرة حسن نية للويس التاسع الذي لم يعد بعد الإفراج عنه لبلاده مباشرة بسبب شعوره بالحرج الكبير بعد الإفراج عنه، بل ذهب إلى الممالك الصليبية في بلاد الشام فرحبوا به ترحيباً كبيراً وعمل جاهداً على توحيد الخلافات بين أمراء الصليبيين والحفاظ على وحدة الإمارات الصليبية الموجودة، وعمل من جانب آخر على الاستفادة من الوضع القائم في تأجيج وتوسيع هوة الخلاف بين المماليك والأيوبيين، فحاول السلطان أيبك استرضائه بالإفراج عن دفعات من الأسرى الصليبيين بلغت نحو ثلاثة آلاف أسير[٩].

وحاول الناصر يوسف كبير الأيوبيين في بلاد الشام استرضاء الملك لويس التاسع وعرض عليه التحالف ضد المماليك مقابل إعطائه بيت المقدس، ولكن الحنكة السياسية لدى لويس التاسع جعلته يرفض هذا العرض وذلك لوجود عشرة آلاف صليبي تحت الأسر في أيدي المماليك

(١) المنصوري: مختار الأخبار، ص٢٠.

(٢) شقجب: هي مدينة من مدن الشام بالقرب من حلب ،وقع بها معركة بين التتار والمسلمين وانتصر فيها المسلمون وكان العلماء من أعلام جيشها؛ الادريسي: نزهة المشتاق، ص٨٠. ؛ ابن خلدون: العبر، ج٥، ص٥٦٥.

(٣) العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٥٠.

(٤) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص٢٥.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢، ق٢، ص١٨٨.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٠٠.

(٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٧٣؛ لابدوس: مدن إسلامية، ص٢٨٦.

(٨) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٢٢.

(٩) عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٨٤.

،وفضل إن يعقد اتفاقية مع المماليك مقابل إطلاق سراح الصليبيين وإعفائه من مؤخر الفدية المستحقة عليه[١].

وأخذ الأسرى عند المسلمين في بعض الأوقات حقوقهم وفي أوقات أخرى لم يأخذوها حسب طريقة الأسر سواء كانت بالتسليم، أو في الحرب، أو وفق اتفاقية ، ووقع كثيرٌ من الأسرى الصليبين والمغول في الأسر فمنهم الملوك والأمراء والعساكر ومن الأسرى من كان ينقل إلى السجون ومنهم من كان يقتل على الفور حسب ما اقترفت يداه من الاعتداء على المسلمين[٢]، وعند فتح قيسارية سنة(٦٦٣هـ/١٢٦٣م) قام أصحاب قيسارية بطلب العفو من السلطان الظاهر بيبرس وأطلقوا أسرى المسلمين من عندهم فتسلمهم السلطان[٣]، ولما وصل إلى السلطان الظاهر بيبرس بأن أهل مدينة قار يبيعون المسلمين لأهل حصن عكار فثارت ثائرة السلطان وجهز الجيوش وداهم الحصون ونهب وقتل من فيها وسبيت ذراريهم[٤]، وفي سنة(٦٦٦هـ/١٢٦٤م) عندما فتحت مدينة أنطاكية أُخِذَ منها مكاسب كثيرة وأسرى كثر ومال لا يحصى كثرته، وقسمت النقود على جميع الجنود ووزعت الغنائم على الأمراء ووزع الأسرى ليعملوا في خدمة الأمراء والدولة ،وفي المقابل تم الصلح بين السلطان (والملك التيكفور بن هيتوم) صاحب سيس وأطلق سراح ولده وكتبت الهدنة بينهم وأرسل السلطان الظاهر بيبرس الهدايا إلى ملك أنطاكية وأخرج عشرين من أسرى أنطاكية وقسيسين ورهبان[٥]، وفي سنة(٦٨٦هـ/١٢٧٠م) أمر الظاهر بيبرس بقتل عدد من أسرى الفرنج الذين سجنوا في القاهرة وذلك انتقاما منه لما قام به الإفرنج من ضرب جماعة من أسرى المسلمين، أخذ السلطان الظاهر بيبرس مائة فارس من الأسرى الذين بحوزته وأغرقهم في النيل ليلاً[٦]، في سنة(٦٧٢هـ/١٢٧٣م) وصلت معلومات إلى السلطان الظاهر بيبرس بأن ملك الكرخ زار القدس متخفياً فبعث الظاهر بيبرس من يعرفون ملك الكرخ ليتقصوا الحقيقة فكشفوهم وأسروه هو وثلاثة من معاونيه وسجن في سجن القلعة[٧].

وقبض الأمير قرا يوسف التركماني صاحب تبريز على أحد أمراء المغول في سنة(٧٩٨هـ/١٣٩٦م) وهو الأمير أطلنش قريب تيمور لنك وأرسله إلى السلطان ما أدى إلى

(١) العيني: عقد الجمان، ج١٨، ق٢، ص٣٤٤.
(٢) السلوك، ج١، ص٥١٠.
(٣) ابن عبد الظاهر: الروض، ص٢٥٢.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٤٥.
(٥) المقريزي: السلوك، ج١، ص٥٧٤.
(٦) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤٤٢.
(٧) العيني: عقد الجمان، ج١، ص١٣٧.

حروب في بلاد الشام[١]، وكان أسرى الفرنج بأعداد كبيرة يحبسون في سجن القاهرة، ففي سنة(٨٢٩هـ/١٤٢٥) قام السلطان الأشرف بربساي بفتح جزيرة قبرص وأسر عدداً كبيراً من جنودها وعلى رأسهم ملك قبرص، وقام بعرضهم وهم مصفدين بالحديد[٢]، وحبس عدد كبير من الإفرنج من أسرى جزيرة رودس في سنة(٨٤٧هـ/١٤٣٤م) [٣]، وتم القبض على تجار الفرنج في ثغر الإسكندرية في سنة(٨٨٠هـ/١٤٧٥م)، وذلك رداً لما قام به الإفرنج بأسر عدد من تجار الإسكندرية وكانت شروط الإفراج عن أسرى الإفرنج مقابل الإفراج عن الأسرى المسلمين من تجار الإسكندرية، فوافق الإفرنج على ذلك واستجابوا لطلب المسلمين وأطلقوا سراح تجار الإسكندرية مقابل تجار الإفرنج[٤]، كان لدولة المماليك بعمليات الأسر ظروف خاصة فكان عندهم كثير من الأسرى وفي المقابل لهم الكثير من الاسرى عند الأعداء، فكانت تتراوح هذه الحقوق بين إعطاء الحق وسلبه، ففي حالات الحروب والنزاعات المستمرة كانت تتردى حقوق أسرى العدو، فيتم إما قتل الأسرى أو استخدامهم في الأعمال الشاقة أو توزيعهم كعبيد وسبايا وغلمان وفي أوقات أخرى يتم مبادلتهم بأسرى المسلمين أو يتم بيعهم في الأسواق كعبيد أو يتم فديتهم بالأموال من أبناء جلدتهم وحاضناتهم الدينية المختلفة، فتجد هذه الحقوق موجودة في وقت وفي وقت آخر مصادرة، ولكن في أغلب عصر المماليك ولحالة الكره والعداء الموجودة بين القوى المتحاربة كانت تهدر حقوق أسرى العدو في أغلب الأحيان، ما لم تتدخل الدولة التي ينتمون إليها وتحميهم وتعقد المعاهدات والهدن والصفقات لاسترجاعهم إلى بلادهم.

(١) العسقلاني: انباء الغمر، ج١، ص٥٠٩.
(٢) سليم: عصر سلاطين المماليك، ج٢، ص٢٥٩.
(٣) السخاوى: التبر المسبوك: ج١، ص٦١.
(٤) سليم: عصر سلاطين المماليك، ج٢، ص٢٥٩.

## المبحث الرابع
## حقوق أسرى المسلمين عند العدو

انطلق سلاطين المماليك من الواجب الشرعي إلى تخليص الأسير وفك أسره من عند العدو، وقد اتفق الفقهاء على وجوب تخليص الأسير المسلم من أيدي أعدائه إذا وقع عندهم أسيرا لما ورد في الحديث الشريف عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (فكوا العاني واطعموا الجائع وعودوا المريض) [١] والرسول صلى الله عليه وسلم فك أسيرين من المسلمين برجلين من المشركين[٢]، وحرص سلاطين المماليك والأمراء على إخراج أسرى المسلمين عند العدو وإطلاق سراحهم، وجندوا لذلك كل طاقاتهم لتحرير الأسرى، وأوقفوا الأوقاف لذلك وجيشوا الجيوش وعقدوا المعاهدات وبعثوا السفارات لكي يعيدوا أسرى المسلمين من أيدي الأعداء، وكان عدد كبير من أغنياء الأمة يدفعون من أموالهم لتحرير الأسرى من أيدي العدو[٣]، ففي عام(٧٢٤هـ/١٣٢٣م) أوقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون أوقافٍ لفكاك أسرى المسلمين من أيدي العدو وشراء الأملاك والاستفادة من ريعها في إطلاق سراح الأسرى[٤]، فذكر شهاب الدين بن أحمد العدوي أن بعض الأوقاف كان من شروطها أن يُخصص جزء من ريعها لفكاك الأسرى، واشترط أن يصرف من ريعها في كل سنة خمسون درهماً للأسرى على سواحل الشام في عام(٨٥١هـ/١٤٤٧م) [٥]، وعقد المماليك المعاهدات من أجل إطلاق سراح أسرى المسلمين، ففي عام(٦٦١هـ/١٢٦٢م) عقدت اتفاقية بين المماليك والصليبيين[٦]، وكان المماليك بقيادة الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس لا يميل إلى توقيع تلك الهدنة ولكن وافقوا عليها مقابل إن يُطلق الصليبيون سراح أسرى المسلمين[٧]، وفي سنة(٦٧٩هـ/١٢٧٩م) طلب الفرنجة الهدنة من المماليك فكان شرط المماليك في الموافقة عليها إطلاق سراح أسرى المسلمين فوافق الصليبيون وتمت الهدنة[٨].

---

(١) البخاري: صحصح البخاري، ج٢، ص٩٣٧.
(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٢٥٣.العسقلاني: الإصابة، ج٥، ص٢٦.
(٣) العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٤٨٠.
(٤) أبشرلي: أوقاف وأملاك المسلمين، ص٦٨.
(٥) المنصوري: مختار الأخبار، ص٢٦.
(٦) المنصوري: التحفة المملوكية، ص٩٦.
(٧) ابن الجيعان: القول المتظرف، ص١٠٥؛
(٨) العسقلاني، بن شافع: الفضل المأثور، ٩٣.

وبعد أن فتح السلطان الظاهر بيبرس حصن أرسوف قام بإطلاق الأسرى المسلمين المسجونين بقلعتها، وقيد الأسرى الفرنج بالقيود التي كان بها أسرى المسلمين وكان عددهم حوالى ألف أسير[١]، وأرسل السلطان الظاهر بيبرس بعض جنوده على السفن إلى عكا فانكسرت هذه السفن فخرج الرجال إلى البر فأسرهم الصليبيون فأرسل السلطان الأمير فخر الدين بن المقري الحاجب إلى عكا لابتياعهم فطلب الفرنجة فيهم أسعاراً غالية، وقالوا هؤلاء جمرة البحار وفرصة الأعمار، وكان عددهم ستة أشخاص، وتم حبسهم في سجن حصين في قلعة عكا فتم رشوة سجانيهم بالمال، وتم إدخال المبارد والمناشير لقطع قضبان السجن وأعدوا لهم مركباً مهيأ ليهربوا به بعد تنفيذ مهمتهم، وكانت لهم خيل واقفة معدة فركبوها وذهبوا بها إلى القاهرة وقامت في عكا بسببهم فتنة كبيرة[٢]، وفي سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٨م) جرت محاولة لعقد هدنة بين السلطان الظاهر بيبرس وملك قبرص هيومن الثالث فكان من أهم شروطها إخلاء سبيل الأسرى[٣]، وفي سنة(٦٧٦هـ/١٢٦٨م) بينما كان السلطان الظاهر بيبرس في طريقه من مصر إلى الشام اعترضت طريقه امرأة مسلمة فشكت له تصرف صاحب مدينة صور حيث كانت أسيرة هي وابنتها عند صاحب صور ففدت نفسها وابنتها بالمال فأطلق سراحهما، وهم في طريق العودة لحق بها الجيش وأخذوا الفتاة وأعادوها إلى الأسر فأرسل الظاهر بيبرس سفارة إلى صاحب صور يسأله عن هذه الفتاة فرد عليه صاحب صور بأنها تنصرت وكان رجال صور وجنودها من الصليبيين أمسكوا رجالاً من المسلمين وقتلوا عدداً منهم ما أثار حمية السلطان الظاهر بيبرس وأعد العدة وهاجم صور وأنزل بها خسائر فادحة، وأمر بأن تصادر المنتجات والأراضي الزراعية المحيطة بها ونكل بأهلها[٤]، ودارت مفاوضات بين السلطان الظاهر بيبرس وبين هيتوم صاحب أرمينا من أجل إطلاق سراح ابنه المأسور عند المسلمين، فطلب الظاهر بيبرس مقابل ذلك إرجاع جميع الحصون التي أخذها الأرمن من المسلمين وهي حصون بهسنة ودربساك ومرزبان ورعبان وشح الحديد [٥].

واستغل سلاطين المماليك كل حادثة مع الفرنجة من أجل إطلاق سراح المسلمين الأسرى الموجودين عندهم، فعندما اخترقت الهدنة بينهم وبين الصليبيين في حصن المرقب حيث كان ممنوعاً على الصليبيين بناء هذا الحصن حسب اتفاقية الهدنة مع السلطان الظاهر بيبرس فقاموا بترميمه بعد موت الظاهر بيبرس، وقد ساعد أمير طرابلس( بهيمند ) وقام الإسبتارية

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٣٠.
(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ص٦١٥..
(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٣٢؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٧١.
(٤) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٤٧؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤٠٨.
(٥) النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٦٧.

بمساعدته في ترميم الحصن وعجز المماليك ونواب السلطان القريبين من الحصن بمنع الصليبيين من إعادة بنائه واكتفوا بمراقبة الصليبيين من فترة إلى أخرى، وقرر السلطان المنصور قلاوون انتزاع هذا الحصن بالقوة ولكن منعة هذا الحصن وقوته ووجوده داخل البحر الأمر الذي أدى لصعوبة هذا الأمر وتحريره، ما دفع السلطان الى استخدام الوعيد وتوعد كل من ساعد في ترميم هذا الحصن مثل الملك بهيمند والإسبتارية، وأرسل لهم الرسائل بما أنكم ساعدتم في بناء هذا الحصن فلا بد من دفع ثمن ذلك، وإن لم تقوموا بهدمه أخذت بلادكم بدلاً منه وسوف تندمون حيث لا ينفع الندم، فأخافت تهديدات السلطان قلاوون بهيمند فقام بتسليم الحصن للمسلمين بعد هدمه وأطلق سراح المسلمين الذين كانوا في الأسر مقابل أن يوافق السلطان قلاوون على تجديد الهدنة، فاشترط عليه السلطان أن لا يترك عنده أسيراً مسلماً إلا وأطلقه وأن يحمي في مملكته ولا يقطع الطريق على أي مسافر مسلم، وأرسل السلطان المنصور قلاوون أحد أمرائه للإشراف على هدم ذلك الحصن فهدم حصن مرقب حجراً حجرا[١]، وكان الظاهر بيبرس حريص على إخراج الأسرى المسلمين من سجون الأعداء، وطالب أكثر من مرة مبادلة الأسرى المسلمين عند الأعداء ولكن رفضوا ذلك مثل ما حدث مع أمارة الكرك، فقام بمراسلة الصليبيين فيها طالباً منهم إخراج الأسرى الذي عنده مقابل أسرى المسلمين ولكن أبوا ذلك فرد عليهم الظاهر بيبرس برسالة شديدة اللهجة قال فيها إن قلوبكم قاسية حتى على إخوانكم في الدين وأخذ يعمل كل ما بوسعه لانقاد الأسرى المسلمين من يد الأعداء[٢]، وأمر سلاطين المماليك على إطلاق سراح أسرى المسلمين عند الأعداء وكانوا يقتنصون الفرص من أجل تحقيق ذلك وعامل السلطان المنصور قلاوون الأرمن معاملة صارمة قوية فطلبوا من السلطان في العديد من المرات الكثير من الهدوء ولكن السلطان وافق على إعطائهم هدنة مقابل فرض الجزية عليهم وتسليم جميع أسرى المسلمين وبقى أسرى الأرمن مماليك عند الدولة[٣].

وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون طالب الملك ( أرجون ) من السلطان بإطلاق سراح أسير مسيحي، فوافق السلطان على الطلب، ولكن في طريق عودة هذا الأسير رأى السلطان أن يأخذ فدية عن هذا الأسير وأرسل من يعيده، فقام الإسبان برفض الطلب وأخذوا أسيرهم وخطفوا وفد السلطان أسرى معهم وأبحروا من الإسكندرية إلى بلادهم، ما أثار حمية السلطان وقام بإصدار قوانين صارمة ضد المسيحيين في بلاده، وثار المسلمون عليهم بل حرضهم السلطان للهجوم عليهم علانية، وفرضت عليهم قوانين صارمة على الرغم من محاولة دول أوروبا استرضاء السلطان ولكن

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٨٩؛ سرور، جمال الدين: دولة بني قلاوون، ص٢٣٨.
(٢) موير، السير وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص٥١.
(٣) المصدر نفسه، ص٦٥.

دون جدوى[١]، وفي سنة(٧٨٨هـ/١٣٨٤م) هاجم قراصنة قبرص ثغر الإسكندرية على الرغم من إنهم عقدوا مصالحة مع السلطان برقوق، فقاموا بمهاجمة سفن جماعة من التجار قادمين من بلاد الشام إلى الإسكندرية وبصحبة هؤلاء التجار أخت السلطان الظاهر برقوق وبعض أقاربه فأسروا جميع من في هذه المراكب من التجار، فأصدر السلطان الظاهر برقوق أمراً إلى جميع نوابه في السلطنة بأسر جميع التجار الصليبيين في أراضي السلطنة فأسروهم جميعاً فأضطر الجنويون إلى الانصياع لأوامر السلطان الظاهر برقوق بالإفراج عن جميع الأسرى الذين تم أخذهم في الغارة ورد أمتعتهم ولم ينقص منها شيء[٢]، والواضح من خلال تتبع سيرة سلاطين المماليك تجد أنهم أعطوا هذا الحق جل وقتهم وقنصوا الفرص واستغلوها أحسن استغلال، لإخراج أسرى المسلمين من سجون العدو وقادوا الحروب الطاحنة من أجل اطلاق أسير أو أسيرين، ودفعوا المبالغ من أجل فداء الأسرى، وعقدت الاتفاقيات وأهم بنودها إطلاق سراح الأسرى وأكبر دليل على ذلك فشل بعض الاتفاقيات مع الظاهر بيبرس بسبب رفض الصليبيين الفرنجة الإفراج عن الأسرى المسلمين، ما دفع السلطان إلى تجييش الجيوش من أجل إخراج هؤلاء الأسرى، وتعهدت الدولة على مدار حكمها بإخراج أسرى المسلمين من عند العدو، وفي المقابل كانت تنتقد وتستهجن صمت الأعداء وعدم اندفاعهم لإخراج أسراهم مثلما استهجن السلطان الظاهر بيبرس على الفرنجة عدم سؤالهم على إخوانهم في الدين، وكيف يصبرون على ترك إخوانهم في الدين أسرى، فيمكن القول في هذا المجال، إن دولة المماليك لم تنس أسراها في أي وقت من الأوقات، بل كانت تتحين أي فرصة وأي حرب وأي معاهدة وأي بذل من المال من أجل إخراج أسراها من عند العدو، وبذلت من أجل ذلك الأرواح والأموال والغالي والنفيس.

(١) المصدر نفسه، ص٨٥.

(٢) سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ الإسكندرية، ص٣٨٥.

# الخاتمة

## أولاً: النتائج

- أولى سلاطين المماليك لحقوق الانسان اهتماماً كبيراً، فحضو وعملوا على تفعيل هذه الحقوق في اغلب الظروف.
- إن قوة الدولة في عهد سلاطين المماليك كان هو المحرك الاساس للعمل على اعطاء الرعية حقوقهم وحمايتهم وصيانة انفسهم واموالهم.
- اهتم سلاطين المماليك بالنصح واخذ الراي والشوري وعملوا على تفعيل هذه المجالس والانفاق عليها.
- مارس سلاطين المماليك حقوق الانسان في حياتهم اليومية ولم يسمحوا للأمراء التطاول على الرعية وتوفير الحقوق للرعية من ظلم الامراء وسجل التاريخ لهم هذه الافعال.
- أقدم كبار علماء الأمة وصلحائها في دولة المماليك على نصح الحكام بشجاعة وجرأة.
- حرص سلاطين المماليك على اعطاء الحقوق لجميع طوائف الشعب دون استتناء ووفروا لهم الحماية.
- نعم أهل الذمة بكامل حقوقهم السياسية والاجتماعية والدينية داخل دولة المماليك في أغلب الأحيان.
- عمل سلاطين المماليك كل جهودهم لإخراج الاسري من السجون العدو بكافة الوسائل والسبل.
- كان سلاطين المماليك حريصين على إعطاء الحقوق الاقتصادية للرعية كي تزدهر التجارة في بلادهم.
- أقام سلاطين المماليك الكثير من دور العلم والعبادة والمستشفيات في عهدهم وكانت مجانية للجميع دون تمييز.
- كان للمرأة دورها في عهد دولة المماليك وكان لها دور في جميع مجالات الحياة العلمية والصحية والتجارية والسياسية.
- حمت دولة المماليك الارث العلمي والثقافي الكبير من الضياع بعد تدمير المغول بغداد ووفد العلماء من مكان الى دولتهم.

- ساهم المماليك في اعادة الحرية لجميع مدن الشام المحتلة من الصليبين واعادة الحقوق لسكانها لما عانوه من قهر وظلم من المحتل.
- بالرغم من اتساع أركان دولة المماليك حرص سلاطينها على صيانة حقوق الانسان فيها وكانت سمة غالبة.

## ثانياً: التوصيات:

- يوصي الباحث أن تعمل الحكومات والشعوب الإسلامية من حكام علماء ومثقفين على تفعيل حقوق الانسان في عصرنا الحاضر.
- تولي هذه الدراسة عناية من كل الجهات الرسمية، وجعلها ركيزة لهم في كل جهد في محاكاة حياتهم في عصرنا الحالي.
- أن يُولي الحكام اهتمامهم بحقوق الانسان ويشجعوا عليه، مادياً ومعنوياً، ويكونوا أنموذجاً يُحتذى به في تطبيقها.
- أن تكون هذه الدراسة دافعاً للمسلمين للعمل على تطبيق حقوق الانسان في وقتنا الحاضر الذي نحن بأمس الحاجة إليها.
- تعزيز مفهوم حقوق الانسان وفق المنهج الإسلامي.
- على جميع أبناء الأمة الإسلامية كل في موقعه أخذ دوره الإيجابي في تطبيق حقوق الانسان.

## قائمة المصادر والمراجع

**أولاً: القرآن الكريم**

**ثانياً: المصادر العربية:**

**إبراهيم ابن أحمد الحنبلي، (ت ٨٧٦ هـ/ ١٤٧١ م):**

١. شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ١٩٩٦ م.

**ابن الاثير: محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م):**

٢. الكامل في التاريخ، ١١ أجزاء، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥م.

**ابن الأخوة القرشي، محمد بن محمد بن أحمد، (ت ٧٢٩ هـ/ ١٣٢٩ م):**

٣. معالم القربه في أحكام الحسبة، (تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد المطيعي)، الهيئة المصرية العامة لكتاب، القاهرة، ١٩٧٦ م.

**الأدريسي: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس (ت٥٦٠هـ/١١٦٦م):**

٤. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (أسطوانة مكتبة التاريخ والحضارة الإصدار الثالث).

**الأدفوي، كمال الدين أبي الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوي الشافعي/ت: ٧٤٨هـ:**

٥. الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، طه الحاجري، الدار المصرية للتأليف والنشر، ١٣٨٢هـ

**الأسدي، محمد بن محمد بن خليل:**

٦. التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختبار، تحقيق عبد القادر طليمات ،ط١،دار الفكر العربي، ١٩٦٨ م.

**أسعد بن مماتي (٥٤٤ – ٦٠٦ هـ = ١١٤٩ – ١٢٠٩ م):**

٧. قوانين الدواوين ،مكتبة مدبولي، مصر.

**الأسيوطي: شمس الدين بن أحمد المنهاجي(ت٨٨٠/١١٤٧٥م):**

٨. جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود ،لبنان ،بيروت ١٩٩٦م.

**الأصفهاني، أبو فرج:**

٩. الأغاني، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ط ١٣٧١ ،٢ هـ- ١٩٥٢ م

**ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أبي العباس احمد بن القاسم بن حذيفة (ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م):**

١٠. عيون الانباء في طبقات الأطباء، ١جزء، تحقيق: نزار رضا بدار مكتبة الحياة، بيروت.

**الأنطاكي، داود بن عمر:**

١١. تذكرة أولي الألباب ،ط١، ١٣٥٦ هـ | ١٩٣٧م.

**الألوسي، محمود شكري:**

١٢. غاية الأماني في الرد على النبهاني، سنة النشر: ١٣٩١ هـ ،ج٢، ط٢.

**ابن إياس: أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م):**

١٣. بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: وكتب لها المقدمة محمد مصطفى، ط١، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

١٤. جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، الدار الثقافية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦.

١٥. **ابن أيبك، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري (توفي بعد ٧٣٦ هـ/ ١٣٣٥ م):**

الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية (الجزء الثامن من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر)، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة، المعهد الألماني للآثار- قسم الدراسات الإسلامية، ١٣٩١ هـ- ١٩٧١ م.

١٦. الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر (الجزء التاسع من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر)، تحقيق: هانس روبرت رويمر، القاهرة، المعهد الألماني للآثار- قسم الدراسات الإسلامية.

**البخاري: محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م):**

١٧. صحيح البخاري، تح مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، بيروت ،١٩٨٧م.

**البرزالي ،علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي الدمشقي ت ٧٣٩هـ:**

١٨. المقتفي على كتاب الروضتين أو تاريخ البرزالي، المكتبة العصرية، مصر، ط١٤٢٧،١هـ/ ٢٠٠٦م.

١٩. **ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي(ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م):** الرحلة المسماه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق:علي المنتصر الكتاني، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م.

**البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت الطيب أبو بكر (ت٤٦٢هـ) :**

٢٠. تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية– بيروت.

**البغوي، الحسين بن مسعود أبو محمد:**

٢١. معالم التنزيل (تفسير البغوي)، تحقيق: محمد عبد الله النمر، الناشر: دار طيبة، سنة النشر: ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

**البكري، أبي عبيد:**

٢٢. المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، ط١، ١٨٥٧م.

**البكري: أبو عبد الله بن عبد العزيز الأندلس(ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م):**

٢٣. معجم ما استعجم تحقيق:مصطفى السقا، ط٣، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٢م.

**البلاذري: أحمد بن يحي بن جابر(ت ٢٧٩هـ-٨٩٢م):**

٢٤. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة، القاهرة،١٩٨٦م.

٢٥. فتوح البلدان، ١ جزء، تحقيق: رضوان محمد رضوان، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط،سنة١٤٠٣م.

**البلوي، خالد بن عيسى ( ت ٧٨٠ هـ / ١٣٨٨ م ):**

٢٦. تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ،تحقيق: الحسن بن محمد السائح، المغرب.

**بنيامين، الرابي بنيامين بن الرابي يونة التطيلي النباري الإسباني اليهودي (المتوفى: ٥٦٩هـ):**

٢٧. رحلة بنيامين التطيلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط٢، ٢٠٠٢م.

**بيبرس المنصوري، الأمير ركن الدين الدوادار ت( ٧٢٥هـ/ ١٣٤٤ ):**

٢٨. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالد ريتشارد، الشركة المتحدة لتوزيع، بيروت، ١٩٩٨.

**الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م):**

٢٩. الجامع للسنن(اسطوانة موسوعة الحديث الشريف)

**ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠ م):**

٣٠. الدليل الشافي على المنهل الصافي تحقيق وتقديم فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د. ت.

٣١. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، د.ت.

٣٢. مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل أحمد، القاهرة: دار الكتب المصرية. (د.ت)

٣٣. المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي: تحقيق: محمد أمين، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (د.ت)

**ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ):**

٣٤. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي بن حسن؛ عبد العزيز بن إبراهيم؛ حمدان بن محمد ،دار العاصمة، السعودية ،ط٢، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

**الثعالبي ،عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ):**

٣٥. فقه اللغة وسر العربية، تحقيق:عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي ،ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

**ابن جبير: محمد بين أحمد (ت٦١٤ هـ /١٢١٧م):**

٣٦. الرحلة المسماة تذكرة الاخبار وعن اتفاقات الاسفار، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، بيروت ومصر، (د.ت).

٣٧. الدار الكامنه في اعيان المائة الثامنه ٦ج ،تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، نشر مجلس دائرة المعارف، الهند، ط٢، سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

**الجزري، شمس الدين أبو عبد الله بن مجد الدين إبراهيم، (ت ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨ م):**

٣٨. حوادث الزمان، د. نعمان جبران، (د.ت).

**الجزيري، عبد القادر بن محمد بن عبد القادر ( ت ٩٧٧ هـ ١٥٦٩ م ):**

٣٩. درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة ا لمعظمة، المطبعة السلفية ومكتبتها. د. ط، د. ت.

**ابن جماعه، بدر الدين ( ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م ):**

٤٠. تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط.

**الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم:**

٤١. أحكام أهل الذمة، ط١، رمادى للنشر، الدمام، ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧م

**ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري المالكي الفاسي المتوفى سنة ٧٣٧ هـ:**

٤٢. المدخل، مكتبة دار التراث، القاهرة، (د.ت).

**حاجي خليفة:**

٤٣. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ،جزءان، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)

**ابن حبان ،محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ):**

٤٤. صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ /١٩٨٨ م.

**ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر، (ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م):**

٤٥. تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، (تحقيق محمد أمين وسعيد عاشور)، ج ١، مطبعة دار الكتب، القاهرة،١٩٧٦ م، ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢ م.

٤٦. المنتقى مِن درةِ الأسلاك في دولة ملك الأتراك في تاريخ حلب الشَّهباء، تحقيق عبد الجبار زكَّار، تقديم الأستاذ الدكتور سهيل زكار، الطبعة الأولى، دار الملاَّح،١٤٢٠ هـ.

**ابن حجر العسقلاني: أبو الفضل، أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ):**

٤٧. الاصابة في تمييز الصحابة، طبع مطبعة السعادة بمصر، ١٣٢٨هـ.

**ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨م ):**

٤٨. أنباء الغمر بابناء العمر في التاريخ، مراقبة السيد عبد الوهاب النجاري، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط ٢.

**الحضراوي ،أحمد بن محمد بن أحمد بن عبده:**

٤٩. مختصر حسن الصفا والإبتهاج في ذكر من ولي إمارة الحاج، تحقيق، محمد بن ناصر الخزيم؛ محمد بن سيد أحمد التمساحي، زهراء الشرق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧.

**الحموي: شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م):**

٥٠. "معجم الادباء" المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ،٧ أجزاء، حققه وضبط نصوصه وقدم له: عمر الفاروق الطباع، ط١، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٤٢٠هـ /١٩٩٩م.

٥١. معجم البلدان ،٥ج، د.ط،دار الفكر، بيروت، د.ط.

**الحنبلي: مجير الدين العليمى (ت٩٢٧هـ/١٥٢٠):**

٥٢. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ،٢ج،تح، عدنان يونس عبدالمجيد نباتة، نشر مكتبة دنيس، عمان، د.ط، سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

**الخالدي، بهاء الدين محمد بن لطف العمري، (من أعيان القرن ٩هـ/ ١٤ م):**

٥٣. المقصد الرفيع المنشأ الهادي لصناعة الإنشاء، مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية ١٩٨٨.

**ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م):**

٥٤. مقدمة ابن خلدون، ط٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤.

٥٥. تاريخ ابن خلدون(العبر)، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤م، ط٥.

**ابن خلكان: أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابي بكر (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م):و**

٥٦. وفيات الأعيان وأنباء الزمان ،٨أجزاء ،تح،لإحسان عباس دار الثقافة ، بيروت ،١٩٦٨م.

**الداودي، شمس الدين محمد بن علي ابن أحمد( ت ٩٤٥ هـ/ ١٥٣٨ م):**

٥٧. طبقات المفسرين تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، شارع الجمهورية، ط ١، سنة ١٩٧٢م م.

٥٨. معجم شيوخ الذهبي تحقيق وتعليق د. روحية عبد الرحمن السيوفي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط١ ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م.،

**الداودي، شمس الدين محمد بن علي ابن أحمد( ت ٩٤٥ هـ/ ١٥٣٨ م):**

٥٩. معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار د نصه وعلّق عليه بشار عواد، معروف وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م.

**أبو داوود: سليمان بن الأشعث الأزدي (ت ٢٧٥ هـ):**

٦٠. سنن أبي داوود، أعده وعلق عليه عزت عبيد الدعاس وعادل السيّد. طبع دار الحديث بحمص، ١٩٧٤م.

**ابن دقماق: برهان الدين (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م):**

٦١. الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق "محمد كمال الدين ،عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م.

٦٢. الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ٢ ج، (تحقيق لجنة إحياء التراث العربي)، دار الآفاق الجديدة، بيروت،١٩٨٠ م.

**الدوادار، بيبرس المنصوري:**

٦٣. التحفة الملوكة في الدولة التركية، تحقيق عبد الله ابراهيم محمد راجح، ( القاهرة )، ١٩٨٨.

**الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ( ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):** "

٦٤. تذكرة الحفاظ "، طبعة١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م،" العبر في خبر من غبر"، ٤أجزاء، حققه وضبطه هاجر زغلول، دار الكتب العلمية، د،ت.

٦٥. كتاب دول الإسلام، ٢ج، دار المعارف النظامية، ١٣٣٧ م.

٦٦. سير أعلام النبلاء، القاهرة: دار الحديث، ط ١٤٢٧ هـ- ٢٠٠٦ م.

٦٧. العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية.

٦٨. الذيل على العبر في خبر من عبر، مج ١، مؤسسة الرسالة،، ١٩٨٩

٦٩. "تذكرة الحفاظ"، طبعة ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨ م."

٧٠. تاريخ الإسلام، دار الكتاب العربي- لبنان، ١٩٨٧م، ط١، تحقيق: عمر بعد السلام تدمري

٧١. سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ١٤١٣هـ، ط٩، تحقيق: شعيب الارناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي.

**الرازي، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ):**

٧٢. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة الباز - السعودية، ط٣، ١٤١٩ هـ.

**الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر:**

٧٣. مختار الصحاح، مكتبة لبنان، ١٩٨٩م.

**الزبيدي: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي:**

٧٤. تاج العروس من جواهر القاموس ،دار التراث العربي الكويت، (١٣٨٥هـ/١٩٦٥م)، تح، عبدالستار أحمد فراج.

**الزرقاني، محمد عبد العظيم (ت ١٣٦٧هـ):**

٧٥. مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، لبنان، ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م، ط١.

**زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ):**

٧٦. التوقيف على مهمات التعاريف، الناشر: عالم الكتب –القاهرة ،ط ١،ج١ ،١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

**السبكي: تاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م):**

٧٧. طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: عبدالفتاح الحلو ومحمود الطناجي، مطبعة عيسى البابي، ط١.

٧٨. معيد النعم ومبيد النغم، مؤسسة الكتب الثقافية ،بيروت ١٩٨٦م.

**السخاوي، عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان، (ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٦ م):**

٧٩. التبر المسبوك، ط١، دار الجيل، بيروت ،١٩٩٢م.

٨٠. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة،١٩٣٦م، د.ط، د.ن.

٨١. تاريخ دمشق، نقلا عن الموسوعة الشاملة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ،تح، إبراهيم الزيبق، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٩٧م.

٨٢. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، تح، أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٧٩م.

٨٣. وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، (تحقيق بشار معروف وآخرون)، مؤسسة الرسالة، د.م، ١٩٩٥ م.

٨٤. التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ٢ جزء، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣ م.

**ابن سعد، محمد بن منيع البصري الزهري أبو عبد الله (ت٢٣٠هـ):**

٨٥. الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.

**السعدي، عبد الرحمن بن ناصر:**

٨٦. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ،المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مكتبة دار السلام للنشر والتوزيع ،الرياض ،ط٢، ١٤٢٢ – ٢٠٠٢.

**ابن سلاّم، أبو عُبيد القاسم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ):**

٨٧. كتاب الأموال، تحقيق، خليل محمد هراس ،دار الفكر، بيروت، (د.ت).

**السيوطي، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م):**

٨٨. كوكب الروضة، تحقيق: مصطفى الشكعة، مكتبة المدينة، القاهرة، ١٩٨٢م.

٨٩. الإنصاف في تمييز الأوقاف، القاهرة إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م.

٩٠. تاريخ الخلفاء، ج١، تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧١هـ.

٩١. حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ٢جزء،تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، ط ١، عالم الكتب، ١٩٩٠ م.

٩٢. طبقات المفسرين، ١ جزء،تحقيق على محمد عمر،ط ١،مكتبة وهبة، القاهرة، ١٣٩٦ هـ

٩٣. طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ١٩٩٤

٩٤. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، حققه وراجع أصوله عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط ٢،١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م.

**ابن شاكر الكتبي، محمد بن أحمد بن شاكر، (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م):**

٩٥. عيون التواريخ، ٢١ ج، (تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود)، ج ٢٠، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠ م

**٩٦. ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل، (ت ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٩ م):**

٩٧. زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، (وضع حواشيه خليل المنصور)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧ م.

**٩٨. الشجاعي، شمس الدين، ( ت في القرن ٩هـ/ ١٤ م):**

٩٩. تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده، الاردن – الجامعة الاردنية، ١٩٨٦.

**ابن شداد: عز الدين محمد بن على بن إبراهيم (ت ٦٨٤هـ/١٢٥٠م) تاريخ الملك الظاهر:**

١٠٠. "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٩٢م.

١٠١. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ٢جزء، دار المعرفة، بيروت(د.ت).

**الشوكاني، محمد بن أبي بكر أبو عبد الله (ت١٢٥٥هـ):**

١٠٢. فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤ هـ

**الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٠٧١م):**

١٠٣. الوافي بالوفيات، تح، أحمد الأرناؤوطي وتركي مصطفى، نشر دار إحياء التراث، بيروت، سنة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

١٠٤. أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق فالح احمد البكور،ط ١،دار الفكر بيروت، لبنان، ١٩٩٨ م.

**الصيرفي، علي بن داود ( ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٥ م):**

١٠٥. نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دار الكتب،١٩٧١ م.

**الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت ٣٦٠ هـ/ ٩٧١ م):**

١٠٦. المعجم الكبير، تحقيق: حمدي السلفي، القاهرة: مكتبة ابن تيمية(د.ت).

**الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد أبو جعفر (ت٣١٠هـ) :**

١٠٧. تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار المعارف بمصر(د.ت).

١٠٨. تاريخ الطبري( تاريخ الأمم والملوك)، دار الكتب العلمية، بيروت(د.ت).

**ابن طولون ،محمد بن طولون الصالحي (ت ٩٥٣ هـ ):**

١٠٩. القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ،تحقيق: محمد أحمد دهمان، مجمع اللغة العربية، دمشق ،ط٢، ١٩٨٠.

**ابن عبد الظاهر: محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصري(ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م):**

١١٠. الروضة البهية الزاهرة في خطط المعربية القاهرة، تح، أيمن فؤاد سيد، ط، ١٩٩٦م.

١١١. تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور،قلاوون ،تحقيق: مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١ م.

**ابن عبد البر، يوسف عبد الله محمد أبو عمر:**

١١٢. الإستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: محمد علي البجاوي ،مج٤،ط١، الناشر: دار الجيل، سنة النشر: ١٤١٢ – ١٩٩٢.

**ابن العجمي، أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل، موفق الدين، أبو ذر سبط ابن العجمي (المتوفى: ٨٨٤هـ):**

١١٣. كنوز الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب ،ط١، ١٤١٧ هـ.

**العسقلاني: شافع بن علي(ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م):**

١١٤. الفضل المأثور في سير السلطان الملك المنصور، تح، عمر بن عبد السلام تدمري، ط١، المكتبة العصرية، بيروت ،١٩٩٨م.

**العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٩ م):**

١١٥. إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٣٨٩ هـ- ١٩٦٩ م.

١١٦. الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١٤١٥هـ، – ١٩٩٥ م.

**ابن العماد، عبد الحميد بن أحمد بن محمد العكري (ت١٠٨٩هـ):**

١١٧. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٦هن ط١، تحقيق: عبد القادر الارناؤوط ومحمود الارناؤوط.

**العمري: فضل الله العمري شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م):**

١١٨. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح، أ.د.محمد عبد القادر خريسات وآخرون، إصدارات مركز زايد للتراث والتاريخ، سنة ٢٠٠١م.

**العيني، محمد بن أحمد بن موسى بن أحمد بدر الدين، (ت ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م):**

١١٩. السلطان برقوق مؤسسة دولة المماليك الجراكسة، من خلال مخطوط عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان(ت٧٨٤هـ/١٣٨٢م)، تح، شكري إيمان عمر، الناشر مكتبة مدبولي،٢٠٠٢م.

١٢٠. السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، (تحقيق فهيم محمد شلتوت)، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٦ م، ١٩٦٧ م.

**أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين على (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م):**

١٢١. المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت(د.ت).

**ابن الفرات: ناصر الدين بن محمد بن عبد الرحيم (ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م):**

١٢٢. تاريخ ابن الفرات، م٥،ج١، تح، حسن محمد الشماع، ١٩٧٠م.

١٢٣. تاريخ الدول والملوك، المعروف بتاريخ ابن الفرات، تح، قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٩م.

**الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (المتوفى: ١٧٠ هـ/ ٧٨٧ م):**

١٢٤. كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال(د.ت).

**أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين بن محمد الأموي (ت ٣٤٦ هـ):**

١٢٥. الأغاني، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة.

**ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى، (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩ م):**

١٢٦. التعريف بالمصطلح الشريف، (تحقيق محمد حسين شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨ م.

**أبو الفضل الهمداني،محمد بن عبد الملك بن إبراهيم(ت ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م):**

١٢٧.تكملة تاريخ الطبري، تحقيق ألبرت يوسف كنعنان،ط ١، المطبعة الكاثوليكية،بيروت، ١٩٥٨ م.

**أبو الفضل، محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد الحسيني، (المتوفى: ١٢٠٦هـ):**

١٢٨.سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ،دار البشائر الإسلامية، دار ابن حزم، ط٣، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

**الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت٨١٧هـ/١٤١٤م):**

١٢٩. القاموس المحيط، تح، مكتب التراث، بإشراف محمد نعيم العرقوس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م.

١٣٠.القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت).

**ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي ت (٨٥١ هـ/ ١٤٤٧ م):**

١٣١.تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤م.

١٣٢.طبقات الشافعية، ٤ج، تح، الحافظ عبد العليم خان، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ.

**القرطبي: محمد بن أحمد أبي بكر بن فرج القرطبي أبو عبد الله(ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م):**

١٣٣.الجامع لأحكام القرآن، تح، أحمد عبد العليم البردیني، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط٢، ١٩٥٢م.

**القلقشندى، احمد بن علي (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م):**

١٣٤. مآثر الانافة في معالم الخلافة، ٥ أجزاء،تحقيق عبد الستار احمد فراج،ط ٢،مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٥ م.

١٣٥.صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة، (د.ت).

**ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (المتوفى: ٧٥١هـ):**

١٣٦. التبيان في أقسام القرآن، تحقيق، محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).

١٣٧. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، مكتبة دار البيان، (د.ت).

**ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي أبو الفداء (ت٧٧٤هـ):**

١٣٨. البداية والنهاية في التاريخ، مكتبة المعارف، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م، ط١، تحقيق: علي شيري.

١٣٩. تفسير القرآن الكريم، دار الفكر– بيروت، ١٤١٠هـ.

**ابن كنان، محمد بن عيسى:**

١٤٠. المروج السندسية الفسيحة فى تلخيص تاريخ الصالحية، تحقيق، محمد أحمد دهمان، ط ١. مديرية الآثار القديمة العامة، دمشق، ١٩٤٧.

**الماوردي، علي بن محمد بن حبيب البصري أبو الحسن: (ت٤٥٠هـ):**

١٤١. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م.

**المحبي، محمد أمين بن فضل الله (ت ١١١١ هـ/ ١٦٩٩ م):**

١٤٢. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، د.ط ،د.ت.د

**المراكشي، عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، محيي الدين (المتوفى: ٦٤٧هـ) :**

١٤٣. المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين ،تحقيق: الدكتور صلاح الدين الهواري ،المكتبة العصرية، صيدا–بيروت ،ط١، ١٤٢٦هـ /٢٠٠٦م

**المسعودي، علي بن الحسين بن علي أبو الحسن (ت٣٤٦هـ):**

١٤٤. مروج الذهب(د.ت).

**المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي: ت (٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م):**

١٤٥. إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط ١، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٧ م.

١٤٦. السلوك لمعرفة دول الملوك، تح، محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

١٤٧. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، ٣ج، تح، محمد زينهم، ومديحه الشرقاوي، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٧م.

١٤٨. المقفي الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١ ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م.

١٤٩. البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: فردناد واسطون فيلد، جوتنجن، ألمانيا، ١٨٤٧ م.

١٥٠. شذور العقود في ذكر النقود، دراسة وتحقيق: دكتور / محمد عبد الستار عثمان ،مطبعة الامانة بالقاهرة، توزيع دار المعارف – ط١، ١٩٩٠ م.

**المكي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي العاصي(ت ١١١١هـ/١٦٩٩م) :**

١٥١. سمط النجوم العوالي، ج٤، تح، عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية د.ط، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

**المنصوري: بيبرس (ت ٧٣٥هـ/١٣٣٤م):**

١٥٢. مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية، الدار المصرية اللبنانية، د.ط.

**ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت٧١١هـ):**

١٥٣. لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط١.

**ابن منقد ،أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري (المتوفى: ٥٨٤هـ):**

١٥٤. الاعتبار، تحرير: فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

**ابن النحاس، أبي زكريا أحمد بن ابراهيم بن محمد الدمشقي ثم الدمياطي المشهور بابن النحاس:**

١٥٥. مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام (في الجهاد وفضائله)، تحقيق: إدريس محمد علي ومحمد خالد إسطنبولي، دار البشائر الإسلامية، ط٣، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢ م.

**النعيمي: عبد القادر بن محمد النعيمي (ت ٩٧٨هـ/١٥٧٠م):**

١٥٦. الدارس في تاريخ المدارس، تح، إبراهيم شمس الدين، ٢جزء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ.

١٥٧. الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ٢جزء، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠ هـ.

**ابن النفيس ،علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي ابن النفيس:**

١٥٨. المهذب في الكحل المجرب، تحقيق ،محمد ظافر الوفائي، محمد رواس قلعه جي، ط ٢، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م.

**النويري: شهاب الدين أحمد (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م):**

١٥٩. "ذيل مراة الزمان " ،٤ أجزاء، ط٢ ،دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤١٣هـ /١٩٩٢ م.

١٦٠. نهاية الإرب في فنون الأدب ،د.ط، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ،القاهرة، د..ت.

١٦١. نهاية الإرب في فنون الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ٢٠٠٤م، ط١، تحقيق:: مفيد قمحيه.

**الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ):**

١٦٢. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق، عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان،ط١ ،١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م.

**ابن واصل،جمال الدين محمد بن سالم(ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨ م):**

١٦٣. مفرج الكروب في أخبار بني أيوب،تحقيق حسنين محمد ربيع، مصر، (د.ت).

**ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م):**

١٦٤. تاريخ ابن الوردي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١ – ١٤١٧، هـ٩٦ ١٩م

**اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان أبو محمد (ت٧٦٨هـ):**

١٦٥. مرآة الجنان وعبر اليقظان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤١٣هـ= ١٩٩٣م

**ياقوت: أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله الرومي الحمري (ت ٦٢٦ هـ):**

١٦٦. معجم البلدان، طبع دار صادر ببيروت، ١٩٧٧م.

**اليوسيفي،موسى بن محمد بن يحيى(ت ٧٥٩ هـ/ ١٣٥٨ م):**

١٦٧. نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر،تحقيق ودراسة أحمد حطيط،ط ١،عالم الكتب،بيروت، ١٩٨٦ م.

**اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥ م):**

١٦٨. ذيل مرآة الزمان، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ط٢ – ١٤١٣هـ، ١٩٩٢ م.

## ثالثاً– المراجع العربية:

**إبراهيم علي طرخان :**

١٦٩. النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي،القاهرة، ١٩٦٨، وزارة الثقافة

**أبشرلي، محمد:**

١٧٠. أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين ،تحقيق وتقديم: محمد أبشرلي؛ ومحمود داود التميمي ،منظمة المؤتمر الاسلامي، مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافية الاسلامية ،استانبول ،(١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

**أحمد، إبراهيم محمد:**

١٧١. تطور الرعاية الطبية عن المسلمين عبر القرون ،طبعة القاهرة ،١٩٨١م.

**الإمام، رشاد:**

١٧٢. مدينة القدس في العصر الوسيط. تونس: الدار التونسية، ١٩٧٦ م.

**أمين، فوزي محمد أمين:**

١٧٣. المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، القاهرة، ١٩٨٢م.

**امين، محمد محمد:**

١٧٤. ازدهار الأوقاف في عصر سلاطين المماليك دراسة تاريخية وثائقية، مكة، ١٤٢٢هـ.

١٧٥. الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨هـ /١٥١٧م )، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٤١٠هـ / ١٩٨٠م.

**البصري، هلال بن يحي بن مسلم:**

١٧٦. أحكام الوقف، دار المعارف العثمانية، حيدر اباد، الهند، ١٣٥٥هـ.

**باشا، أحمد فؤاد:**

١٧٧. التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، ط. ١، مطابع دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.

**الباشا، حسن:**

١٧٨. الفنون الاسلامية والوظائف على الأثار العربية ،دار النهضة العربية ،القاهرة، ١٩٦٦ م.

**ابن بسام، محمد بن احمد، سامرائي، حسام الدين :**

١٧٩. نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة المعارف، ١٩٦٨م.

**البغدادي، محمد أحمد، ( ١٩٩٧ م):**

١٨٠. السجون في مصر من الفتح الإسلامي إلى الحكم العثماني. دار النهضة العربية، د.م.

**بكر، سيد عبد المجيد:**

١٨١. الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، تهامة للنشر، جدة، ط ١، ١٤٠١ هـ/١٩٨١م.

**بهيم، محمد جميل:**

١٨٢. المرأة في حضارة العرب والعرب في تاريخ المرأة ،ط ١، ١٩٦٢م.

**بن بيه، عبد الله بن الشيخ المحفوظ:**

١٨٣. حوار عن بعد حول حقوق الإنسان في الإسلام، الناشر: العبيكان للنشر(د.ت).

**البيومي إسماعيل:**

١٨٤. النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٨ م

**عبد التواب، عبدالرحمن محمود:**

١٨٥. الاشرف قايتباي سيف الدين ابو النصر قايتباي المحمودي، الهيئة المصرية لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة ،ط١، ١٩٧٨م.

**الجبوري، جميل عائد علي:**

١٨٦. دراسات في الحضارة الإسلامية، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، ط ١، ١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م.

**الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن ( ت ١٢٣٧ هـ / ١٨٢١ م ):**

١٨٧. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، د.ط ،د.ت.

**خريشة، على محمد:**

١٨٨. حرمات لا حقوق الإنسان في ظل الإسلام (دراسة مقارنة )، ط١، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، ١٩٨٧.

**الحريرى، سيد على:**

١٨٩. الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، الزهراء للاعلام العربى، ط١،القاهرة ،١٩٨٥.

**الحجي: حياة الناصر:**

١٩٠. صور من الحضارة العربية الإسلامية، القاهرة، دار الكتب العلمية ،د.ط، د.ت،الكويت، ط١، ١٩٨٣م.

١٩١. أحوال العامة في دولة المماليك، ١٩٨٤.

**حسين، محمد كامل:**

١٩٢. الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة.

**حسين، حسن عبد الوهاب:**

١٩٣. التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧ م.

**حسين، علاء طه رزق:**

١٩٤. السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ٢٠٠٢م.

**الحصري، أحمد محمد:**

١٩٥. الدولة وسياسة الحكم في الفقه الإسلامي. ج٢، القاهرة ،مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٨.

**الحقيل، سليمان عبد الرحمن:**

١٩٦. حقوق الانسان في الاسلام، ط٤، ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م.

**حكيم أمين عبد السيد:**

١٩٧. قيام دولة المماليك الثانية، المكتبة العربية، الدار القومية للطباعة، ١٩٦٦ م،وزارة الثقافة.

**عبد الحليم: رجب محمد:**

١٩٨. انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية(د.ت).

**حمدي: حافظ أحمد:**

١٩٩. الدولة الخوارزمية والمغول ( غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية )، دار الفكر العربي(د.ت).

**حميد ،عفاف عبد الغفور:**

٢٠٠. جهود المرأة في نشر الحديث وعلومه، مجلة جامعة أم القرى لعلوم، ١٤٢٨ هـ.

**الخالدي: اسماعيل عبد العزيز:**

٢٠١. المغول وغزو العالم الإسلامي، مكتبة الفلاح، الكويت ط١، ١٩٨٤م.

**خليل، عماد الدين:**

٢٠٢. دراسات تاريخية، دار ابن كتير، ط٢، ٢٠١٤.

**عبد الرازق، أحمد:**

٢٠٣. المرأة في العصر المملوكي، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٩م.

**رمضان، هويدا عبد العظيم:**

٢٠٤. المجتمع في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي إلى العصر الفاطمي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤ م.

**الزحيلي ،محمد:**

٢٠٥. حقوق الانسان في الاسلام، دار المعارف، الاردن(د.ت).

**الزرقا، مصطفى أحمد:**

٢٠٦. المدخل الفقهي العام، الناشر:دار القلم – دمشق، ط١،سنة النشر: ١٤١٨ هـ- ١٩٩٨ م.

**الزركلي، خير الدين بن محمود:**

٢٠٧. الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢ م.

**زيادة، نقولا:**

٢٠٨. رواد الشرق العربي في العصور الوسطى ،الشرق الاوسط ،ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٢٠٩. (الحسبة والمحتسب في الإسلام، المطبعة الكاثوليكية )بيروت: ١٩٦٢ م.

**سالم، السيد عبد العزيز:**

٢١٠. تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٢ م.

**سرور، محمد جمال الدين:**

٢١١. دولة الظاهر بيبرس فى مصر، دار الفكر العربى للطباعة والنشر، القاهرة،ط١، ١٩٩٣م.

**سلطان، محمود السيد:**

٢١٢. بحوث في التربية الإسلامية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩.

**سليم، محمود رزق:**

٢١٣. الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث ،مطابع دار الكتاب العربي، مصر ،ط١، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.

٢١٤. الاشرف قانصوه الغوري، القاهرة: الدار المصرية، ط١.

**سليم، محمود:**

٢١٥. موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، القاهرة: مكتبة الآداب، ط٢، ١٣٨٤ هـ- ١٩٦٥ م.

**السيد الباز العريني:**

٢١٦. المغول، دار النهضة العربية،بيروت، ١٩٨٦ م.

**شبارو، عصام محمد:**

٢١٧. الدولة العربية الإسلامية الأولى (١-٤١هـ/٦٢٣-٦٦١م)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥.

٢١٨. الدولة العربية الإسلامية الأولى (١-٤١ هـ / ٦٢٣-٦٦١ م)، ط٣..

٢١٩. تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، دار مصباح الفكر، ١٩٨٧.

**الشربيني، البيومي إسماعيل:**

٢٢٠. مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية. ٢ مج، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.

**شلبي: أحمد:**

٢٢١. الجهاد والنظم العسكرية، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٤م.

**شلبي، محمود:** حياة الملك الظاهر بيبرس ،دار الجيل للطباعة والنشر ،ط١، ١٩٩٢.

**الشيال، جمال الدين:**

٢٢٢. تاريخ مصرالإسلامية ،مطابع دارالمعارف ،القاهرة ،د.ط،د.ت.

**الصالح، صبحي:**

٢٢٣. النظم الاسلامية نشأتها وتطورها ،بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨،ط٢.

**الصالح، عثمان عبد الملك:**

٢٢٤. حق الأمن الفردي في الإسلام ( دراسة مقارنة بالقانون الوضعي )، الكويت، ١٩٨٣.

**صفي الدين الحِّلي، عبد العزيز بن سرايا:**

٢٢٥. الديوان، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت ،للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٢ هـ.

**الصَّلاَّبي، عَلي محمد محمد:**

٢٢٦. المغول بين الانتشار والانكسار، الأندلس الجديدة، مصر،ط١، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩م.

**الصياد: فؤاد عبد المعطي:**

٢٢٧. المغول في التاريخ، ج١، دار النهضة العربية ١٩٨٠م.

**طقوش، محمد سهيل:**

٢٢٨. تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام. بيروت: دار النفائس ( ١٩٩٧ م).

**طوخان، ابراهيم علي:**

٢٢٩. الإقطاع في الإسلام أصوله وتطور، القاهرة، ١٩٥٧م.

**عاشور، سعيد عبد الفتاح:**

٢٣٠. مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، مكتبه النهضة المصرية، ط٢، ١٩٥٩.

**ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر(المتوفى: ١٣٩٣هـ):**

٢٣١. التحرير والتنوير «تحرير، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

**عاشور: سعيد عبدالفتاح:** ا

٢٣٢. لايوبيين والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، طبعة جديدة، ١٩٩٦م.

٢٣٣. العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، طبعة جديدة، ١٩٧٦م.

٢٣٤. المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، طبعة جديدة، ١٩٩٢م.

٢٣٥. الحركة الصليبية. ط ٢,٤ ج، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٢ م.

٢٣٦. نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك، مطبوع ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١ ،١٩٨٧ م.

**العريس ،محمد:**

٢٣٧. موسوعة التاريخ الإسلامي العصر العثماني، دار اليوسف،٢٠٠٥.

**عز الدين، محمد كمال:**

٢٣٨. التاريخ والمنهج التاريخي لابن حجر، دار إقرأ، ط١، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

**عزام: عبدالوهاب :**

٢٣٩. مجالس السلطان الفوري: صفحات من تاريخ مصر في القرن العاشر، لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٠ هـ/ ١٩٤١م.

**عزب، خالد:**

٢٤٠. أسوار وقلعة صلاح الدين ،مكتبة زهراء الشرق ،ط١، ٢٠٠٦.

**عطار، احمد عبدالغفور:**

٢٤١. الديانات والعقائد في مختلف العصور ،مكة المكرمة،ط١.

**علوان، عبد الكريم:**

٢٤٢. الوسيط في القانون الدولي العام ج ٣ (حقوق الانسان )، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،ط١، ٢٠١١.

**على إبراهيم حسن:**

٢٤٣. تاريخ المماليك البحرية،مكتبة النهضة المصرية.

**على، السيد على:**

٢٤٤. الجواري في مجتمع القاهرة المملوكي ،الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٨م.

**عمار، حامد:**

٢٤٥. علاقات مصر المملوكية بالدول الافريقية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، الدار المصرية اللبنانية، ط١(د.ت).

**عمر بن علي البزار، الحافظ البغدادي:**

٢٤٦. سراج الدين أبو حفص، الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٩ هـ.

**فرغلي: محمد:**

٢٤٧. كتاب الحركة التاريخية، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٩٦م.

**فهمى، نعيم زكى:**

٢٤٨. طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ،ط١، ١٩٧٣م.

**قاسم عبده قاسم:**

٢٤٩. أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية دولة المماليك، دراسة وثقافية، عين للدراسات، القاهرة، ١٤٢٢ هـ.

٢٥٠. الأيوبيون والمماليك( التاريخ السياسي والعسكري) عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، ١٩٩٥ م.

٢٥١. السلطان المظفر سيف الدين قطز بطل معركة عين جالوت، دار القلم ،دمشق، ط١، ١٤١٩هـ /١٩٩٨م.

٢٥٢. اليهود في مصر ،دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣.

٢٥٣. عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، دار الشروق ،ط١، ١٩٩٤م

٢٥٤. الأسواق المصرية فى عصر سلاطين المماليك ،عين للبحوث والدراسات، القاهرة ،ط١، ٢٠١٣.

**الكاندهلوي، محمد يوسف:**

٢٥٥. حياة الصحابة ،تحقيق: بشار عواد معروف، ،ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

**كحاله، عمر رضا:**

٢٥٦. أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، ط ٥، ١٤٠٤ هـ= ١٩٨٤ م.

**كمال ، أحمد عادل :**

٢٥٧. أطلس تاريخ القاهرة ، دار السلام للطباعة والنشر ، ط١ ، ٢٠٠٤.

**الكيالي، عبد الوهاب:**

٢٥٨. موسوعة السياسة، مج ٧، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٩٥.

**المحامي،محمد فريد بك:**

٢٥٩. تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق، إحسان حقي، ط ٢،دار النفائس، بيروت، ١٤٠٣هـ.

**محسن محمد حسين:**

٢٦٠. الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين(تركيبه – تنظيمه –أسلحته– بحريته وابز المعارك التي خاضها)،ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت ،١٩٨٦ م.

**محمد أحمد دهمان:**

٢٦١. معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي،الطبعة الأولى،دار الفكر، بيروت،دمشق، ١٩٩٠ م.

**محمد جمال الدين سرور:**

٢٦٢. دولة بني قلاوون في مصر الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص، دار الفكر العربي.

**محمد سهيل طقوش:**

٢٦٣. تاريخ المماليك في مصر والشام، الطبعة الثانية، دار النفائس، القاهرة، ١٩٩٩ م.

**محمد ماهر حمادة:**

٢٦٤. الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ١٢٥٨ م– ١٥١٦ م.(دراسة ونصوص)،الطبعة الأولى ،مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠ م

**محمد، ماهر عبد القادر:**

٢٦٥. مقدمة في تاريخ الطب العربي ،دار العلوم العربية للطباعة والنشر، بيروت ،١٩٨٨م.

**مرزوق، محمد عبد العزيز:**

٢٦٦. الفن الاسلامي: تاريخة وخصائصة، مطبعة اسعد ،القاهرة، ١٩٦٥م.

٢٦٧. **المطوي: محمد العروس:**

٢٦٨. الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط٢، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢م.

٢٦٩. **معروف، ناجي:**

٢٧٠. أصالة الحضارة العربية، دار الثقافة والنشر والتوزيع، ١٩٧٥.

٢٧١. **عبد المنعم ماجد:**

٢٧٢. نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه)مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧ م.

**النابلسي، ابن عثمان النابلسي الصفدي الشافعي:**

٢٧٣. تاريخ الفيوم وبلاده، القاهرة، ١٨٩٨م.

**نذير، أحمد:**

٢٧٤. الإسلام في التاريخ العالمي منذ وفاة النبي محمد وحتى نشوب الحرب العالمية الأولى، المعهد الأمريكي للثقافة والتاريخ الإسلامي، ٢٠٠١م.

٢٧٥. النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، طبعة دار عين، القاهرة ٢٠١٢م.

**رابعاً- المراجع العربية المعربة:**

**اسكندر، فايز نجيب:**

٢٧٦. مصر في كتابات الحجاج الروس في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، دار الفكر الجامعي، ١٩٨٨م.

**براور، يوشع:**

٢٧٧. عالم الصليبيين ،ترجمة وتعليق وتقديم: قاسم عبده قاسم؛ محمد خليفة حسن ،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٩م.

**لابدوس، إيرا، ( ١٩٨٧ م):**

٢٧٨. مدن إسلامية في عهد المماليك. (ترجمة علي ماضي). بيروت: الأهلية للنشر (د.ت).

٢٧٩. مدن الشام في العصر المملوكى، ترجمة ،سهيل زكار، دمشق، سورية: دار إحسان للطباعة والنشر ،ط١، ١٩٨٥م.

**ليا ليفين:**

٢٨٠. حقوق الإنسان أسئلة وإجابات، ط٥، النشر: بيروت، لبنان : اليونسكو، ٢٠٠٩.

**موير، وليم:**

٢٨١. تاريخ دولة المماليك في مصر. (ترجمة محمود عابدين وسليم حسن).القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٥م.

## خامساً- الرسائل العلمية:

**أبو هويشل، محمد عطية :**

٢٨٢. الأحوال الصحية والطبية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية ،غزة، ٢٠١٢م

**زيادة، عادل محمد:**

٢٨٣. الحمامات الباقية في مدينة دمشق خلال العصرين المملوكي والعثماني، رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٠٨م

**ظاهر، عدنان محمد محمود:**

٢٨٤. التعليم في مدارس بيت المقدس الإسلامية في العصر الأيوبي، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان ١٩٩٠م.

**عطية، سليمان:**

٢٨٥. سياسة المماليك في البحر الأحمر حتى نهاية عصر السلطان برسباي( ١٢٥٠ – ١٤٣٨م)،( أطروحة ماجستير)، جامعة القاهرة . كلية الآداب، سنة ١٩٥٩م.

**المدني، رشاد عمر المدني:**

٢٨٦. الحياة العلمية في فلسطين في مرحلة الصراع الصليبي الإسلامي، ٦٩٠ هـ/٤٩١م، ١٢٩١م/١٠٩٨ هـ"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة، الإسلامية، غزة، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م.

**وشاح، غسان:**

٢٨٧. حقوق الإنسان في الدولة الإسلامية (١-١٣٢هـ – ٦٢٢-٧٤٩م)، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة الجنان، ٢٠١٢م.

## سادساً- الدوريات:

**امين، محمد محمد:**

٢٨٨. ازدهار الأوقاف في عصر سلاطين المماليك دراسة تاريخية وثائقية(د.ت).

**الحسني، جعفر:**

٢٨٩. المدرسة الاسعردية، مجلة المجمع العلمي العربي، ٣٣مج، ج ٣، ٤ ،١٩٥٨م.

**عبد الدايم ،عبد العزيز:**

٢٩٠. الرعاية الطبية في عصر المماليك، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد الثاني، ١٩٧٧م.

**الزايدي، عبد الله:**

٢٩١. الأثر الثقافي للوقف في الحضارة الإسلامية، دورية صادرة ،أوقاف، الكويت ،٢٠٠٦ م.

**أبو الشعر، هند:**

٢٩٢. بحث واقع الأوقاف في نيابة دمشق في العهد المملوكي المتأخر- ١٣٩٨ هـ / م١٥٠٩) المؤتمر - ٨٠١/٩١٥، الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام: الأوقاف في بلاد الشام منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن العشرين- أيلول ٢٠٠٦ م.

**أبو المجد، زينب:**

٢٩٣. أوقاف النساء، المرأة ،المعرفة، السلطة ،مقالات المرأة والحضارة، ٢٠٠٥م.

**المنجد، صلاح الدين:**

٢٩٤. أماكن القصاص في دمشق، مجلة مجمع اللغة العربية، مج ٤٨، ج ٣، ١٩٧٣ م.

**النهار، عمار محمد:**

٢٩٥. الدراسات النظرية الجديدة في عصر دولة المماليك البحرية (١٣٨٢ م / ٧٨٤ هـ = ١٢٥٠ م/٦٤٨ هـ)، دمشق.

**سابعاً- مواقع الويب:**


1. www.archaeology.land/forums/viewtopic.php?t=31892
2. http://www.cairodar.com/326379/
3. http://www.discover-syria.com/image/_px/ds_1473.jpg (1)
4. http://www.cairodar.com/326379
5. http://www.cairodar.com/326379
6. http://www.castles.nl
7. http://www.castles.nl

# الـــــمـــــلاحـــــق

# ملحق رقم ( ١ )

## مصر والشام في عهد دولة المماليك

# ملحق رقم ( ٢ )

## صور لبعض الأدوات الطبية المستخدمة في الجراحة

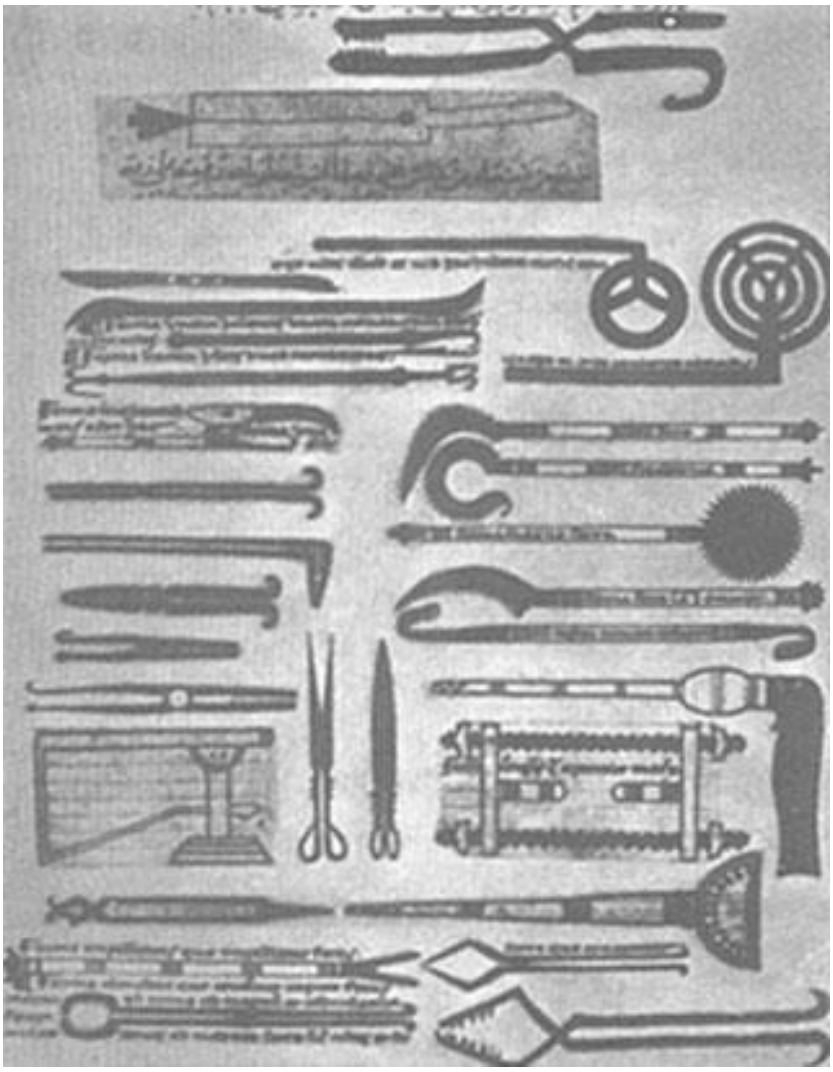

(1) www.archaeology.land/forums/viewtopic.php?t=31892

صوره مجرد فيه حويف
صوره مجرد لطيف
صوره مجرد مقطوف الطرف
صوره مقطع للعظم
صوره مجرد
صوره مجرد
صوره مجرد يصلح لجرد ما انتقب من العظم
صوره مجرد عريض الراس

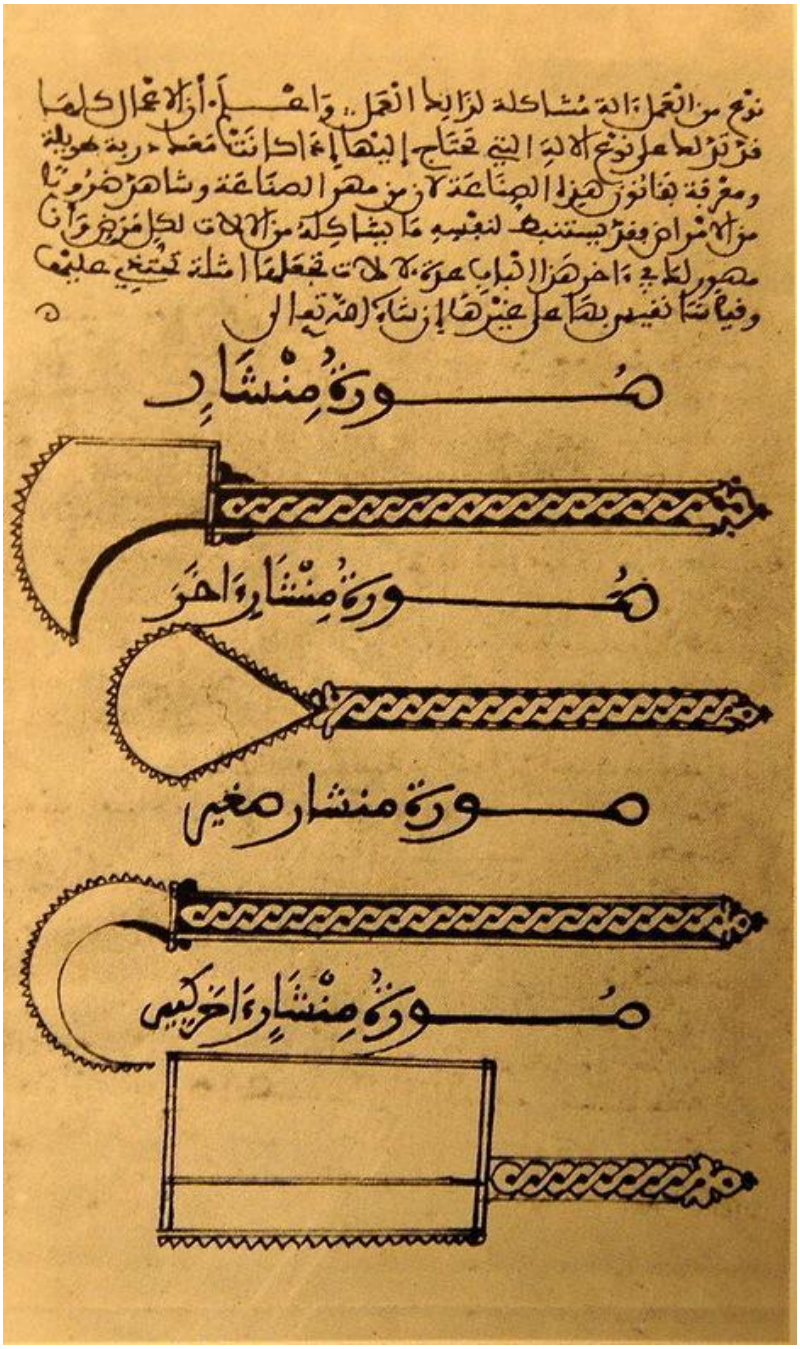
صورة منشار
صورة منشار آخر
صورة منشار مغير
صورة منشار آخر كبير

أدوات جراحية في كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف ) للزهراوي

# ملحق رقم ( ٣ )

## صور لبعض المساجد والمدارس والأسواق

**جامع السلطان حسن**

(1) http://www.cairodar.com/326379/

**مسجد السلطان الناصر حسن بن قلاوون**

**مسجد الناصر حسن**

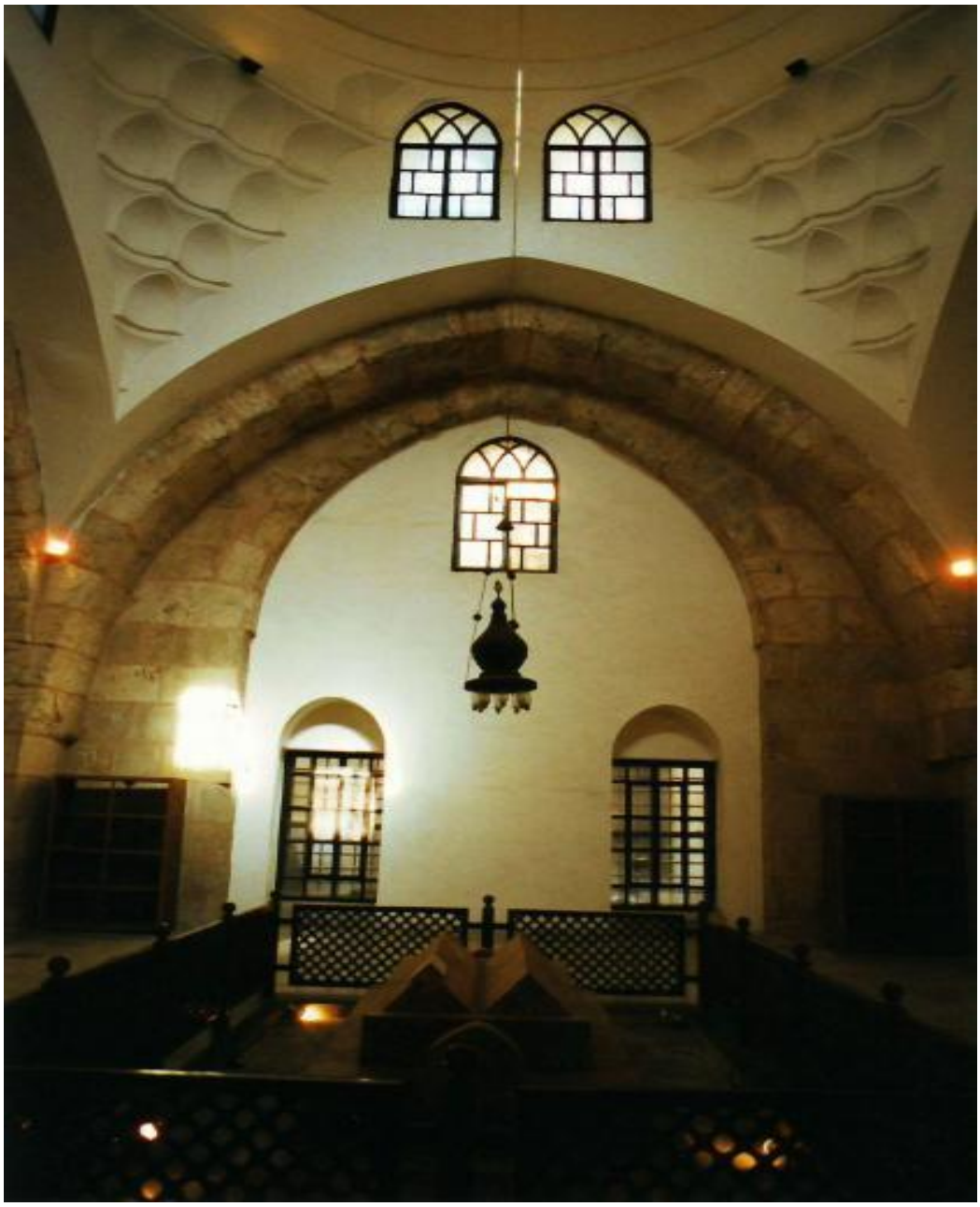

**المدرسة العادلية من الداخل**

(1) http://www.discover-syria.com/image/_px/ds_1473.jpg

**بوابة المدرسة العادلية**

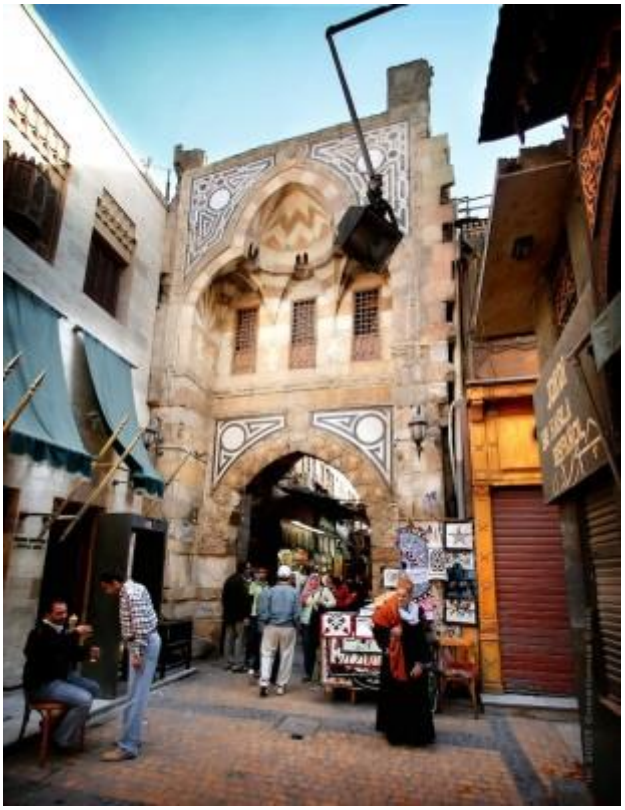

**وكالة السلطان قنصوه الغوري في القاهرة**

(1) http://www.cairodar.com/326379

# ملحق رقم (٤)

## صور لبعض القلاع في عهد المماليك

**المحمودي قلعة السلطان قايتباى**

(1)http://www.cairodar.com/326379

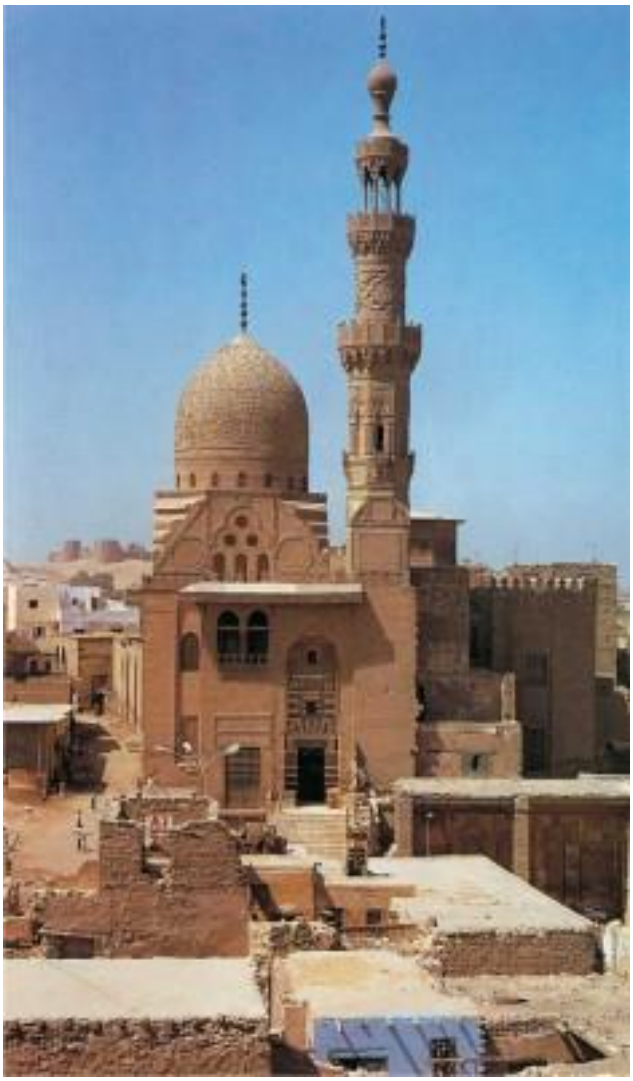

المحمودي ضريح السلطان قايتباى

## ملحق رقم (٥)

## صور بعض السجون في عهد المماليك

## موقع. خزانة البنود في القاهرة.

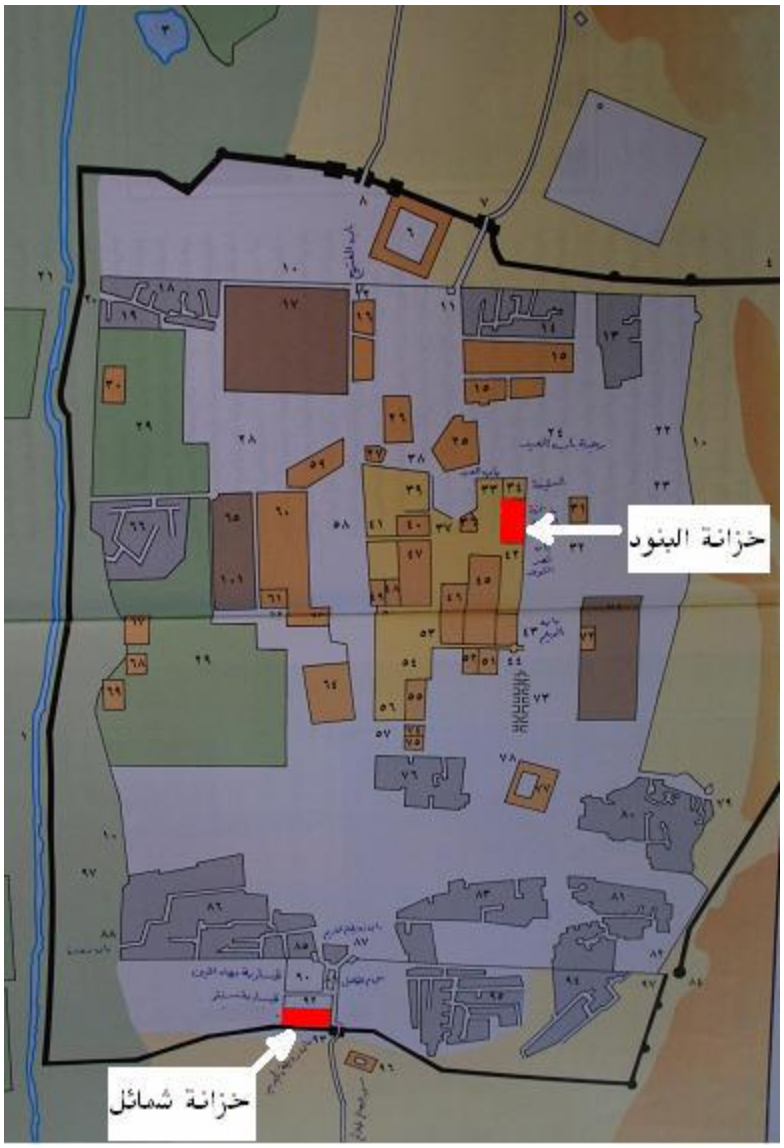


(١) كمال: أطلس القاهرة مدينة، ص ٧٨.

## موقع: خزانة شمائل

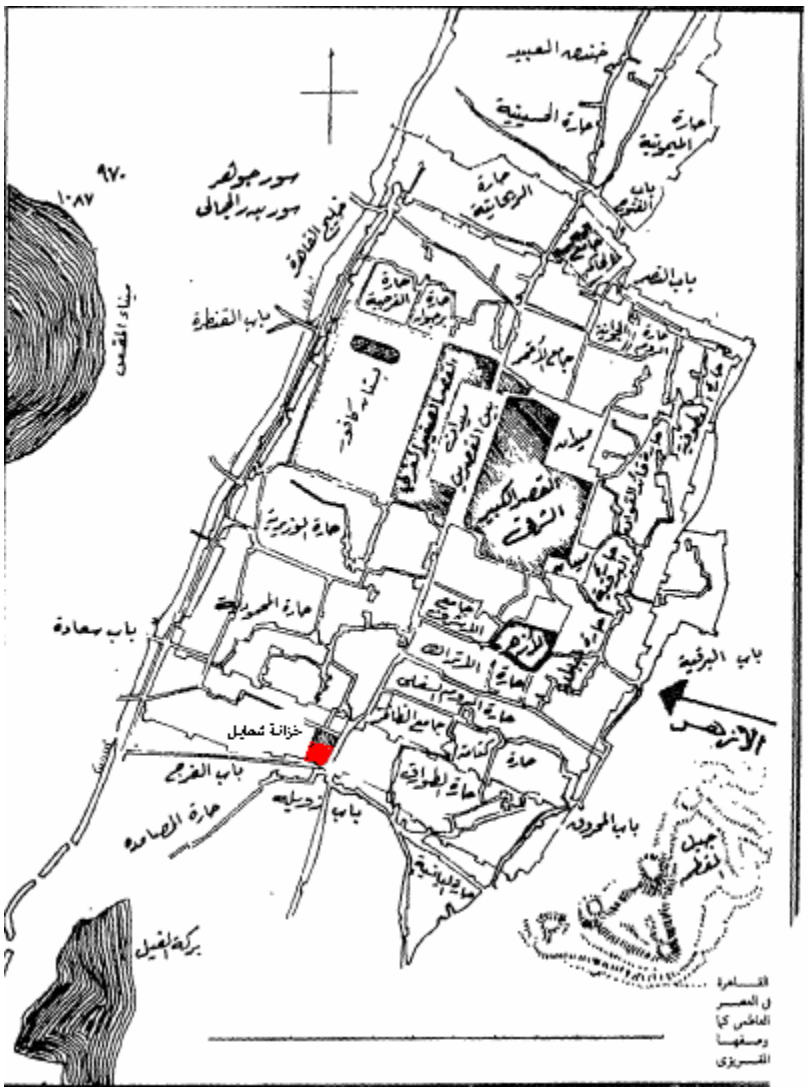


(١) أحمد، تاريخ وآثار مصر الإسلامية، أحمد، ص ٢١٠.

## المعونة. وسجن موقع حبس الرحبة في القاهرة

(١) كمال: أطلس القاهرة مدينة، ص ٩٠.

## قلعة المرقب بانياس

( ١) http://www.castles.nl

# قلعة المرقب بانياس

# قلعة صلاح الدين

(١) http://www.castles.nl

# ملخص الدراسة باللغة العربية

اشتملت الدراسة على ستة فصول وخاتمة وتضمن التعريف بحقوق الإنسان في اللغة والاصطلاح وتعريفات أئمة أهل اللغة في ذلك والوقوف على الحكم الشرعي في تطبيق حقوق الإنسان، والشروط الواجب اتباعها في تطبيق حقوق الإنسان وعوامل نجاحها والوصول بها إلى اعلي درجات تطبيقها.

وتوضيح منهج الإسلام في تطبيق حقوق الإنسان وما هو واجب على الحكام لتطبيقها، وذكر الأدلة الصحيحة التي نصت على كفالة هذه الحقوق من آيات القرآن، ومن صحيح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك ما ثبت عن الصحابة الكرام رضي الله عنهم في توفير هذه الحقوق لمواطنين، ثم بعض التعليقات عليها، وتم إيضاح طبيعة المنهج الإسلامي في توفير الحكام لهذه الحقوق من خلال الشرع الحنيف وسيرة النبي صلي الله عليه وسلم وصحبه الكرام.

حرص سلاطين المماليك على تطبيق هذه الحقوق المواطنين داخل الدولة، حيث أن كل ما قامت به الدولة كان يصب في خدمة هذه الحقوق جميعا للمسلم وغير المسلم داخل حدودها من كافة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخدمات العامة والصحية معاملة الاسري داخل السجون واطلاق سراح الأسري عند العدو، وحفظت هذه الحقوق للرجل والمرأة.

ثم تحدثت الدراسة عن منهج سلاطين المماليك في توفير هذه الحقوق حتي للعبيد والموالي والحرص على تطبيقها في أحلك ظروف الدولة، وإفساح المجال أمام العلماء للنقد والتقويم والنصح، فكان أولي العلم مقربون من سلاطين الدولة ينصحونهم ويشيرون عليهم وعلى ولاتهم وللمسلمين.

لم تقتصر الحقوق على ناحية من النواحي بل شملت كافة هذه الحقوق، اعتبارها جزء أساسي من الإسلام، ومن أساسيات الحكم الرشيد فمؤسس الدولة المملوكية الفعلي السلطان الظاهر بيبرس، اسس لهذه الحقوق ورعاها وحرص على تفعيلها وتطبيقها وتابعها بنفسه لخاصة المواطنين وعامتهم، استمر العلماء والفقهاء ورجالات الدولة المملوكية المخلصين في تذكير السلاطين والولاة على كفالة هذه الحقوق وحمايتها.

# Abstract

The study includes six chapters, conclusion, definition of human rights in lexical and contextual terms, definitions provided by the linguists, the Sharia judgments relating to the implementation of human rights, and the conditions which have to be met when implementing the human rights, factors of success, methods to implement them to the highest standards, elucidation of the approach of Islam in implementing human rights and what is needed from the rulers in order to apply them, reckoning of the right proofs which show how these rights are warranted and grounded in the holy Quran, the Hadiths (Sahih) of the messenger of Allah (PBUH), and the teachings of the messenger's honorable companions (May Allah be pleased with them) in regard to maintaining and providing these rights to the citizens, followed by some comments and an illustration of the nature of the Islamic approach in urging the rulers to provide these rights through Sharia and the life (PBUH) of the prophet and his honorable companions.

The Mamluk Sultans were keen on granting these human rights to their subjects in the state, the state endeavors were intended to serve and grant these rights to the muslims and non-muslims alike within its borders including all social, economic, political, public services, health services, treatment of prisoners inside the prisons and releasing the prisoners from the prisons of enemies, and maintained these rights for both the man and woman.

The study then addressed the approach of Mamluk sultans in providing these rights even to the slaves and mawali and how they continued providing them during the hardest times of the state, giving more space for the scholars to provide criticism, corrections and advice, so those endued with knowledge always remained close to the sultans and provided consultation to them, their rulers and all muslims.

The study has not been limited to one single aspect but rather addressed all these rights since they are a key component of Islam and the principles of good governance. The real founder of the Mamluk state Sultan *al-Zahir* Baibars was the one to set the foundations, maintain, protect and follow up the implementation of these rights with all the citizens and subjects. The scholars, jurisprudents and devoted Mamluk statesmen kept reminding the sultans and rulers about the necessity to promote and protect these rights.